قافلة الحج الشامي
وأهميتها في العهد العثماني

د. عبد الكريم رافق

كلية الاداب ـ جامعة دمشق

كانت قافلة الحج الشامي احدى قافلتين رئيسـتين في الدولـة العثمانية ، والقافلة الاخرى هي قافلة الحج المصري . وقد أوجدت في عام ١٥٥٦/٩٦٣ قافلة ثالثة ، هي قافلة الحج اليمني ، ولكن وجودها كان متقطعا ، والغيت في عام ١٦٣٥ ، عندما استقل اليمن ، بزعامة الأئمة الزيديين ، عن العثمانيين . وكان اليمن بذلك أول ولاية عربية تخرج عن السلطة العثمانية .

وقد لعبت قافلة الحج الشامي دورا هاما في تاريخ دمشق وبلاد الشام بعامة ، من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية . وكانت لها اهمية خاصة في الدولة العثمانية لان السلطان العثماني ، منذ فتحه حلب في عام ١٥١٦، اتخذ لقب حامي (او خادم) الحرمين الشريفين ، واقتضى ذلك تامين سلامة الحجاج لزيارة الحرمين الشريفين . كما ان انتقال العلماء والافكار ، وكذلك التجار ورؤوس الاموال ، من دمشق واليها ، ابان فترة الحج ، كانت له آثاره الواضحة محليا وفي الدولة العثمانية ككل .

تشكل القافلـة

ام دمشق ، في موسم الحج ، عدد كبير من الحجاج ، من المناطـق الشمالية والشرقية ، من داخل الدولة العثمانية وخارجها . ووصل الحجاج اليها جماعات عرفت بحسب مناطقها . وكان ابرزها الحج الرومي ، والحج الحلبي ، والحج العجمي،

---

* اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ، ١٦ ــ ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠ ــ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

والحج الشامي(١) . ولم تكن هذه التقسيمات الجغرافية ضيقة المعنى ، اذ التحق بهذه الجماعات حجاج من خارج مناطقهم .وكان اكثر هذه الجماعات عددا الحج الرومي لان كلمة روم اطلقت على المناطق ما وراء طوروس والفرات(٢) .

ولم يمر الحج الرومي، في الغالب، بمدينة حلب، ولهذا لم يندمج مع الحج الحلبي. أما الحج العجمي فكان يأتي الى دمشق اما عبر حلب اومباشرة عبر بغداد والطريق الصحراوي برفقة قافلة التجارة ، للافادة من الحماية المتوافرة لها . ووصل بعض الحجاج الى دمشق قبل انطلاق القافلة باربعة او خمسة اشهر ولكن الغالبية منهم وصلت في شهر رمضان . واقام معظم الحجاج في منطقة المرج بدمشق ، قرب التكية السليمانية . ونزل بعضهم في خان الحرمين ، قرب باب البريد(٣) ، او بالقرب من جامع الورد(٤) ، في سوق ساروجا . واقام الحجاج الاعجام عادة في حي الخراب والبسويقة(٥) .

ولم يشر الاخباريون الدمشقيون الى عدد الحجاج الذين وصلوا دمشق .وكانوا يكتفون بالقول انه وصل حج كبير او كثير . واشاروا احيانا الى عدد الحجاج الاعجام الذين قدروا عددهم ، في احدى المرات ، بنحو ثلاثمائة (٦) ، وفي مرة اخرى ، بألف وستمائة ، ووصفوهم انذاك بأنهم « حجاج كثيرون من العجم »(٧) . وقد لفت الحجاج الاعجام النظر بسبب البضائع التي كانوا يحملونها وبخاصة الاحجار الكريمة .

ولم يشر الاخباريون المحليون الى عدد حجاج قافلة الحج الشامي ككل الا في الحالات التي هوجمت فيها القافلة في طريقها الى الحجاز . ولم تكن الاعداد التي اعطوها صحيحة لانها غير مبنية على اية وقائع . وكثيرا ما كانت تضخم للايحاء بشدة الهجوم وكثرة الخسائر ، كما حدث مثلا بالنسبة للقافلة التي هوجمت في طريق العودة في ايلول ١٧٥٧ ، في المنطقة بين القطرانة ومعان . وقد قدر عدد هذه القافلة الرحالة الفرنسي فولني ، الذي زار بلاد الشام في حوالي عام ١٧٨٤ ، بأنه كان ٦٠ر٠٠٠(٨) . وقدرها مصدر معاصر في استانبول بانها كانت بين ٧٠ر٠٠٠ و ١٠٠ر٠٠٠(٩) .وذكر فولني ان عدد حجاج القافلة في الظروف العادية تراوح بين ٣٠ر٠٠٠ و ٥٠ر٠٠٠(١٠) . وقد قدر عددها مراقب آخر في عام ١٧٣٩ بانه يتراوح بين ١٥ر٠٠٠ و ٢٠ر٠٠٠(١١) . ولعل متوسط عدد حجاج قافلة الحج الشامي كان بحدود ٢٠ر٠٠٠ ، وارتفع احيانا الى ٤٠ر٠٠٠ ، او اكثر ، في الاوقات التي اعقبت كارثة ما ، أو حربا ما ، اقتضت التوجه الى الحج لشكر الله على انتهائها ، أو حين ازدهرت حركة التجارة مما زاد في عدد التجار المرافقين لقافلة الحج(١٢) .

وقد تناقص عدد الحجاج الاروام ، الملتحقين بقافلة الحج الشامي ، في القرن التاسع عشر ، في اعقاب تسيير البواخر المنتظمة في البحر الابيض المتوسط ، فانتقل عدد متزايد من الحجاج بواسطتها الى جدة ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ . وقدر عدد حجاج القافلة التي عادت الى دمشق في ٢١ نيسان ١٨٤٥ بـ ٦٠٠٠ منهم ٢٠٠٠ تركي و ٢٠٠٠ عجمي والبقية من العرب(١٣) . وذكر ان الحجاج الاعجام قد استخدموا في اوائل عام ١٨٧٠ البواخر من الخليج العربي الى جدة(١٤) .

قيادة القافلـة :

لم تخرج قافلة الحج الشامي الى الحجاز في السنتين اللتين اعقبتا الفتح العثماني لبلاد الشام في عام ١٥١٦ بسبب التبدل في السلطة الحاكمة واضطراب الامن في الارياف وتحرك القبائل البدوية(١٥) . وبعد ما قضى العثمانيون على ثورة جان بردي الغزالي، والي دمشق المملوكي الاصل ، في عام ١٥٢١ ، استبعد المماليك نهائيا من امارة الحج الشامي ، في حين انهم تسلموا قيادة قافلة الحج المصري طوال وجودهم في مصر في العهد العثماني . وعمد العثمانيون ، في بلاد الشام ، الى تعيين احد الامراء المحليين ، من حكام صناجق غزة او عجلون او اللجون او نابلس او صفد او القدس ، التي كانت تتبع ولاية الشام ، اميرا على الحج . وممن عين من هؤلاء الامراء المحليين امراء لقافلة الحج الشامي قانصوه بن مساعدة الغزاوي امير عجلون والكرك ، الذي شغل منصب امير الحج الشامي مدة خمس عشرة سنة ، من حوالي عام ٩٨٠/١٥٧٢ – ١٥٧٣ ، وعين ايضا لهذا المنصب الامير منصور بن فريخ ، امير البقاع ، الذي مد سلطته على صناجق صفد وعجلون ونابلس ، والامير احمد بن الامير قانصوه بن مساعدة الغزاوي، حاكم عجلون ، والامير طراباي ، حاكم اللجون ، والامير فروخ بن عبد الله ، حاكم نابلس والقدس(١٦) .

وكانت الدولة العثمانية قد اعترفت بهؤلاء الامراء المحليين ، الذين قامت قوتهم على اسس قبلية واقطاعية ، حكاما على الصناجق التابعة لولاية الشام لانهم اثبتوا وجودهم وسلطتهم محليا ، وكان القضاء عليهم سيكلف الدولة كثيرا من الجهد . وضمنت الدولة بذلك دفعهم الضرائب اي اموال الميري (المشتقة من امير وتجبى من اراضي الدولة) ، عن المناطق التي سيطروا عليها . ثم عمدت الى تعيين بعضهم امراء للحج لانهم اصحاب سلطة بين البدو وبامكانهم تسيير قافلة الحج بسلام الى الحجاز. ولجأت الدولة ، من ناحية اخرى ، لضمان سلطتها على هؤلاء الامراء ، الى اثارة امير ضد آخر .

وحين قام فخر الدين المعني الثاني ، امير جبل لبنان ، بتوسيع سلطتــه في الفترة بين ١٥٩٠ و ١٦٣٥ ، لتشمل الساحل اللبناني والبقاع وصناجق فلسطين ، اصطدم بالامراء المحليين ، الذين عينوا امراء على الحج ، فأزال بعضهم من السلطة ، واضعف البعض الآخر . وحين قضت الدولة العثمانية على الامير فخر الدين في عام ١٦٣٥ ظهر فراغ محلي في المنطقة ، سرعان ما ملأه ولاة دمشق وولاة صيدا ، بعد تأسيس هذه الولاية في عام ١٦٦٠ . وعمدت الدولة الى تعيين انكشارية دمشق الذين ازدادت سلطتهم ، في هذه الفترة ، امراء على الحج الشامي . وعين هؤلاء الانكشارية، في الوقت نفسه ، حكاما على صنجق او اكثر من صناجق فلسطين ، ليتمكنوا من جمع الضرائب المحلية ، لتغطية نفقات القافلة . كما ان القوات الموضوعةتحت تصرفهم ، لقيادة القافلة ، اقامت معهم في هذهالصناجق . وبازدياد نفوذ انكشاريةدمشقعمدت الدولة ، في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي (١٦٥٦–١٦٧٦) ، الى البطش بزعمائهم في عام ١٦٥٩ . واقامت طائفة انكشارية جديدة عرفت بالقابي قول (عبيد السلطان)الى جانبهم . وكانتهذه الطائفة اكثر ولاء للسلطان. وعرفت الطائفة الاولى باليرلية(المحلية) وبدولة دمشق ، لكثرة ما سيطرت عليها العناصر المحلية . بينما عرفت القابي قول بدولة القلعة . حيث اقامت سلطتها ودعمت هيبة الدولة . ولجأت الدولة اثر ذلكالى تعيينموظفين عثمانيين ، ضموا بعضولاة دمشق ،امراءالحج الشامي. وعينبعضهم ،في الوقت نفسه ، حكاما على الصناجق السابقة . وطبيعي انه لم تكن هناكمنسنة محددة تم فيها استبدال طائفة من امراء الحج باخرى ، اذتداخلت الفترات مع بعضها ، ومع ذلك تميزت كل فترة باشتهار فئة معينة في امارة الحج(١٧) .

وحين عين حاكم الصنجق اميرا على الحج ، وكذلك حين عين امير الحج حاكما على صنجق ما . فان امير الحج ـ حاكم الصنجق اقام مع قواته في ذلك الصنجق الى ان يحين موعد سفر القافلة . ويأتي عندئذ الى قبة الحج ، في طرف دمشق الجنوبي ، خارجبوابة ، أو باب الله، حيثتتجمع قافلة الحج ، لقيادتها الىالحجاز. وفيالحالات التي لم يعين فيها امير الحج حاكما على صنجق ما فانه اقام مع القوات الموضوعة تحت تصرفه في دمشق . ونتج عن ذلك اضطراب الوضع الامني والاجتماعي في المدينة لما سببته تلك القوات من فوضى .وذكر مفتي دمشق محمد خليل المرادي ، صاحب « سلك الدرر » . ان هذه الفوضى حفزت جده مراد المرادي للطلب من السلطان «برفع امارة الحج عن دمشق وعودها الى حكام القدس وعجلون وتلك البلاد كما كان الامر في الزمن السابق لاضمحلال حال دمشق بسبب ذلك فان دمشق من حين صارت امارة الحاج عليهـا زال رونقهـا وكثر الظلـم بسبب ذلـك فيهـا وزالت محاسنها وعمت الشدايد بها ... وقبل السلطان رجاه ورفعها عن دمشق وكانت منذ سنين لم ترفع

ووجهها للشريف يحي بن بركات المكي بمنصب القدس فذهب المذكور في تلك السنة اميرا للحج وارتفع عن اهالي دمشق في تلك السنة الظلم والعساكر والبغي والجرائم مما كان يوجد في وقت الحج . ثم ان الشريف يحي المذكور سها سهوة باذيه بعض الحجاج وبغى العرب فلما اخبرت الدولة العلية بصنيع الشريف يحي عزل من ذلك واعيدت امارة الحج الى دمشق كما كانت وهي الى الآن »(١٨) . وكانت امارة الشريف يحي للحج في سنة ١١٠٢ / ١٦٩٠ — ١٦٩١ . واصبحت دمشق منذ هذا التاريخ مركز امراء الحج من الموظفين والولاة ، ولكن لم يعين ولاتها باستمرار امراء للحج حتى عام ١٧٠٨ .

ولم يكن للموظفين العثمانيين ، الذين عينوا امراء للحج ، مصالح محلية ، على غرار حكام الصناجق المحليين ، ليحرصوا عليها بل كان همهم الاثراء من منصبهم بعد ان اشتروه بالمال ، لذا عمدوا الى الامتناع عن دفع ما اعتادت الدولة دفعه من اعطيات للقبائل المتحكمة بطريق الحج لشراء طاعتها وحمايتها للقافلة . وقد عرفت هذه الاعطيات بالصر او الصرة . وكانت تدفع للقبائل على قسطين ، في الذهاب وفي الاياب . وادى امتناع امير الحج عن دفع الصر الى البدو ، وبخاصة في طريق العودة ، الى مهاجمة القبائل القافلة . ومما اغرى البدو للقيام بذلك ان القافلة في طريق العودة كانت محملة بالبضائع .

وقد هوجمت قافلة الحج سبع مرات في القرن السابع عشر جرت خمس منها في الثلاثين سنة الاخيرة من القرن ، حين عين امراء الحج من الموظفين . وادى هجوم عام ١١١٢/١٧٠٠–١٧٠١ الى ابادة القافلة بكاملها تقريبا . وتسببت كثافة الهجمات في الاضرار بهيبة الدولة لدى المسلمين . وكانت الدولة العثمانية قد خرجت لتوها من حرب خاسرة مع ال هابسبورغ في اوربة اذ وقعت معهم في عام ١٦٩٩ معاهدة كارلوفيتز التي تخلت لهم بموجبها عن جميع هنغاريا وترانسلفانيا وبودوليا . وكانت هذه اول خسارة كبرى للعثمانيين منذ حوالي ثلاثمائة عام ، حين هزمهم تيمورلنك في عام ١٤٠٢ كما كانت هذه اول مرة وقع فيها العثمانيون الصلح كمنهزمين وتخلوا عن مناطق سيطروا عليها منذ فترة طويلة . وغدا السلطان، بنتيجة ذلك ، اكثر حرصا على سمعته بين المسلمين وبالتالي اكثر تصميما للحفاظ على سلامة قافلة الحج الشامي ، بصفته حامي الحرمين الشريفين . ولهذا عمد في عام ١٧٠٨ الى تعيين والي دمشق باستمرار اميرا للحج الشامي . وترتب على ذلك حدوث تطورات هامة في تاريخ دمشق . فلم يعد والي دمشق يكلف من قبل السلطان بالمشاركة في الحملات خارج حدود ولايته ، كما ان سفر الوالي — امير الحج مدة ثلاثة اشهر مع قافلة الحج اتاح المجال للقوى المتنفذة في دمشق للاقتتال فيما بينها وتعكير الامن العام غير عابئة بسلطة المتسلم الذي ناب عن الوالي .

وادى استئجار الوالي ــ امير الحج القوات المرتزقة وتجميعها في دمشق لحماية القافلة، الى اضطراب الامن في المدينة لان هذه القوات رفضت مغادرة دمشق بعد انتهاء مهمتها . وكان لها تأثير سيء على الاخلاق العامة التي انهارت بسببها وبسبب الضائقة الاقتصادية لدى قطاع كبير من الشعب . وهذا ما يفسر كثرة ايراد البديري في يومياته لاخبار بنات الهوى وحوادث الانتحار .

ومن التطورات الهامة التي ترتبت على تعيين والي دمشق اميرا للحج استمراره في منصبه طالما انه يؤمن سلامة القافلة مما ارضى السلطان والراي العام الديني. ولهذا شهدت دمشق ، منذ عام ١٧٠٨ ، استمرار ولاتها في الحكم سنوات عديدة ، خلافا لما كان عليه الامر في القرن السابق . وقد ادى ذلك الى اطالة حكم الولاة من آل العظم الذين امنوا سلامة القافلة ، وحكموا دمشق حوالي ستين سنة بشكل متقطع في القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر .

واستمر ولاة دمشق يعينون امراء للحج حتى عام ١٨٦٦ حين فصل المنصبان ، وعهد بالامارة الى قائد قوات (الباش بوزوق) ، الذي اصبح يعرف بمحافظ الحج . واختير محافظ الحج ، في الفترة بين ١٨٦٦ و ١٩١٦ عندما توقفت القافلة ، من اغوات الاكراد في دمشق ، من اسر اجليقين وبوظو وشمدين واليوسف(١٩) . وهكذا نلاحظ ان تبدل هوية امير الحج الشامي ، خلال اربعة قرون من الحكم العثماني ، قد املته التطورات السياسية في بلاد الشام و تبدل الاوضاع العامة في الدولة العثمانية .

والى جانب امير الحج وجد امير الجردة الذي عرف ايضا بلقب باشة الجردة ، وجرده جي ، وامير الملاقاة . ومهمة الجردة ، في الاساس ، الخروج لملاقاة القافلة في طريق عودتها وتزويدها بالمؤن التي تنقصها . ونظرا لتعرض الجردة الى هجمات البدو فقد اضطرت الى التسلح . وعلى غرار امير الحج عين امين الجردة اولا من بين الامراء المحليين ثم من الانكشارية والموظفين . وحين اصبح ولاة الشام امراء للحج عهد بامارة الجردة الى والي صيدا او والي طرابلس ، وفي حالات نادرة الى والي حلب . وعمد والي دمشق ــ امير الحج الى الطلب من السلطان ان يعين ابنا له او قريبا واليا على صيدا او طرابلس او كليهما ليضمن ولاء امير الجردة وحرصه على الذهاب الى ابعد مسافة في ملاقاة الحج . ولهذا كثيرا ما حكم افراد اسرة واحدة ، في القرن الثامن عشر ، ولايات الشام وصيدا وطرابلس في آن . وابعد نقطة وصل اليها امير الجردة لملاقاة قافلة الحج كانت في هدية . وتغادر الجردة دمشق عادة في شهر ذي العقدة او ذي الحجة ، واذا ما تعرضت الى اعتداء عليها وجب اعداد جردة اخرى . والقيت مسؤولية ذلك . في الغالب ، على الدمشقيين (٢٠) .

تمويل القافلة

تنوعت المصادر المالية التي مولت قافلة الحج الشامي ، وجاء قسم كبيرمنها من الضرائب التي اشير اليها بمال الميري ، او من الرسوم التي فرضتهاالدولة على التجارة والصناعات في ولاية الشام بصورة رئيسية وفي ولايات صيدا وطرابلس وحلب الى حد ما . وقد سبقت الاشارة الى ان تعيين امير الحج من بين حكام صناجق نابلس ، عجلون ، اللجون ، غزة ، صفد ، القدس ، أو تعيين امير الحج حاكما ، في الوقت نفسه ، على واحد او اكثر من هذه الصناجق ، في الفترة التي سبقت تعيين والي الشام اميرا للحج ، في ١٧٠٨ ، كان الهدف منه جمع اموال الميري من هذه المناطق لتمويل قافلة الحج . وعرف المال المخصص لذلك بأنه « مال الحج » ، والمال المخصص للجردة بأنه «مال ملاقاة الجردة »(٢١) . وعندما عين والي دمشق اميرا للحج اصبح يخرج بنفسه كل سنة ، قبيل خروج القافلة ليدور على الصناجق التابعة لولايته ويجمع منها مال الميري المخصص للقافلة ، وعرف خروجه هذا بالدورة . ورغم ان والي دمشق هو في الاساس المحصل الرئيسي لاموال الميري في ولايته فلم يكن مضطرا قبل تعيينه لامارة الحج للخروج كل سنة لجمع الضرائب لان حكام الصناجق المحليين الذين عينوا امراء للحج قاموا عنه بهذه المهمة . واستغرقت الدورة ما يقرب من الشهر واصطدم الوالي خلالها بالملتزمين الذين رفضوا دفع اموال الميري ، كما حدث مثلا في هجوم والي دمشق سليمان باشا العظم على ظاهر العمر المتحصن في طبرية في عام ١٧٤٣ ، وقد توفي الوالي اثناء الحصار(٢٢) . واذا ما اضفنا الزمن الذي اقتضاه غياب الوالي في الدورة الى فترة غيابه مع قافلة الحج لتبين ان مجموع غيابه عن دمشق مشتغلا بأمور القافلة قد بلغ حوالي اربعة اشهر .

ومن الموارد المالية التي رصدت لقافلة الحج « مال البدل » ، اي المال الذي دفعه اصحاب الاقطاعات من الجنود السباهية (الفرسان) لقاء اعفائهم من القيام بالخدمة العسكرية. وقد حدث ذلك بعد ان تضاءل شأن الجنود السباهية، بالمقارنة مع الانكشارية اصحاب النفوذ المتزايد(٢٣) . كما ان مالكانات حمص وحماه ومعرة النعمان التي التزمت ضرائبها مدى الحياة الحقت بوالي دمشق منذ أن عين اميرا للحج لينفق من عائداتها على قافلة الحج(٢٤) . وهناك مصادر مالية اخرى ، مثل التزام المقاطعات والاقلام المتنوعة التي رصدت لتمويل الحج والتي يضيق المجال بذكرها .

واستخدم امير الحج هذه الموارد للانفاق على احتياجات القافلة مثل استئجار قوى عسكرية غير نظامية للمشاركة في حماية القافلة ، وتوفير المؤن اللازمة للقائمين بشؤون الحج ، وكذلك وسائط نقلهم ، ولدينا معلومات مفصلة تبين أنواع السلع التي

اشتراها امير الحج للوفاء باحتياجاته فقد اشترى مثلا حسن باشا امير الركب الشامي في عام ١١١٩/١٧٠٨ مقدار ٧١٥ قنطارا من البكسماد من طائفة البكسمادية بدمشق لاحتياجاته(٢٥).

وعرف هذا البكسماد ، الذي كان على شكل قوالب ، بالسفري ، ويصنعونه عادة من طحين الخاص ، واشترط فيه ان يكون يابسا ، ظاهره كباطنه ، ليتحمل السفر ، ويبل بالماء عند اكله(٢٦) . وخصصت كميات كبيرة من الحنطة والشعير ، من صناجق ولاية الشام لتمويل القافلة . وقد جاء في سجلات غزة الشرعية مثلا ، انه نقل من شونه غزة في شوال ١٢٧٣ / حزيران ١٨٥٧ الى بندر معان ، لتموين الحج الشامي ، مقدار ١٨٦٤٠ كيلة شعير بالكيل المجيدي (تزن كيلة الشعير ٢٥ر٢٢ كغ) . ونقل في جمادى الاولى ١٢٧٦ / كانون الاول ١٨٥٩ ، مقدار ١٠٩٩١ كيلة حنطة (تزن كيلة الحنطة ٢٧ر٢٥ كغ) و ٢٥ر٢٢٩٩٢ كيلة شعير الى بندر معان الغرض نفسه (٢٧) .

واحتاج امير الحج الى استئجار المئات من الجمال لنقل الجنود والمؤن المتعلقة بالقافلة ، فقد استأجر عثمان باشا والي الشام وامير الحج ، في جمادى الاولى ١١٧٤/ كانون الاول ١٧٦٠ ، خمسمائة جمل من مشايخ قرى حوران لنقل اثقاله من المزيريب الى المدينة المنورة (٢٨) . واستأجر اكثر من ذلك العدد في العام التالي (٢٩) .

وانفق امير الحج ، من المال المخصص للحج ، المبالغ المرصدة الصر او الصرة التي كانت تدفع الى بعض القبائل البدوية على طريق الحج لشراء حمايتها . وقد حاول العثمانيون ، في مطلع حكمهم لبلاد الشام ، السيطرة على القبائل البدوية ، في جنوبي بلاد الشام ، ولكنهم فشلوا ، ولذلك لجأوا الى العادة القديمة بشراء رضى القبائل بالمال . ويذكر ان اسعد باشا العظم ،والي الشام (١٧٤٣ ــ ١٧٥٧) ، قد دفع الصر الى القبائل القوية علىطريق الحج في حين انه فرض الضرائب على القبائل الصغيرة. وقد استثيرت القبائل الصغيرة فثارت لنفسها بمهاجمة قافلة الحج الشامي في عام ١٧٥٨ وابادتها تقريبا ، وذلك في اعقاب عزل اسعد باشا عن ولاية دمشق (٣٠).

وكان السلطان العثماني يرسل ، بمناسبة سفر قافلة الحج الشامي الى الحجاز، اعطيات نقدية وعينية ، عرفت بالصرة ، الى اشراف وعلماء وفقراء الاماكن المقدسة ، التي ضمت مكة والمدينة واحيانا القدس . وعهد السلطان بالصرة الى موظف عرف بالصرة اميني أو أمين الصرة . وكان الصرة اميني يغادر استنابول كل سنة في اواسط رجب متجها نحو دمشق وسط احتفالات شعبية ورسمية ، ويرافقه ، بالاضافة الى

حاشيته ، عدد من الحجاج للافادة من الحماية المؤمنة له . وطلب السلطان من حكام الولايات التي مر بها موكب الصرة اميني تأمين الحماية له ، كل في منطقته ، واعلام السلطان بذلك . ويصل الصرة أميني الى دمشق ، عادة ، في القسم الاول من رمضان ، ويغادرها ، بعد عودته من الحج باتجاه استانبول ، بين ١٥ صفر و ١٥ ربيع الثاني ، حسب الظروف (٣١) .

نقــل الحجــاج

مما يثير الاهتمام معرفة الطريقة التي تم بها نقل مابين خمسةعشر الفا وعشرين الف حاج ، بالاضافة الى القوات المرافقة لهم ، من دمشق الى الحجاز ، كل سنة ، وكذلك نقل القوات المرافقة للجردة من دمشق الى هدية . ان الحيوان الرئيسي الذي استخدم في عملية النقل كان الجمل . وقد اشتهرت قرى حوران ، التي كان سكانها بدوا او من أصول بدوية ، بتوريد آلاف الجمال الى القائمين على شؤون القافلة مما سهل نقلها وأتى بالفوائد المالية لاصحاب الجمال . وقام مشايخ قرى حوران بالنيابة عن سكانها بتأجير الجمال الى المسؤولين في دمشق . وذكرت وثائق دمشق الشرعية اسماء عدد من مشايخ هذه القرى تذكر منهم في الفترة بين ١١٧٤ — ١١٧٧/١٧٩٥ — ١٧٦٤ الشيخ شهاب الدين بن حمد الحتمل شيخ قرية الطره (أو الطرا) ، والشيخ أحمد بن عمر المحاميد والشيخ بكار بن موسى قطيفان شيخا قرية ادرعا(ترد ادرعات او أذرعات وهي درعا اليوم) ، والشيخ ملحم بن ناصر الجبلاق شيخ قرية شمسكين أو أشمسكين (شيخ مسكين اليوم) ، والشيخ حمد بن علي الحريري شيخ قريةالسعلية (أو السلعة) ، والشيخ دعيبس بن حسين شيخ قرية الكرك،والشيخ حسن بن مقداد شيخ قرية بصير ، والشيخ عبد الله الشنور شيخ قرية اعجيم ، والشيخ راشد بن محمد الراشد شيخ قرية الحراك ، والشيخ رشيد بن علي الغزالي شيخ قرية الحراك الشرقي ، والشيخ منصور بن مصطفى حجار شيخ قرية السهوة ، والشيخ ابراهيم ابن الشيخ مصطفى الزعبي شيخ قرية البصيلة ، والشيخ ابراهيم بن الشيخ علي الزعبي شيخ قرية المسيفرة ، والشيخ محمد بن مصطفى شيخ قرية غوشه ، والشيخ سعيفان بن الشيخ محمد شيخ قرية صورا ، والشيخ محمد بن نصر الله شيخ قرية بصرة (بصرى) ، والشيخ حسن بن علي الغزالي شيخ قرية خربة الغزالة ، والشيخ ابراهيم الحريري واحمد بن حمدان شيخا قرية منصورة ، والشيخ خليل العبادية بن ناصر شيخ قرية المحجي . وبرزت أيضا قرى عراضه وملجم وطفس في عملية تقديم الجمال . وشاركت كذلك ، في هذه الفترة ، طائفة السخانة من نواحي حماه . كما ان تجمعات قبليـة اخرى ،مثل السردية وبني صخر وبني صقر ، زودت القافلة بالجمال في أوقات مختلفة . ويمكننا معرفة الطاقة الاقتصادية لكل قرية باجراء

مقارنة بين اعداد الجمال التي قدمتها القرى . وقد حضر مشايخ القرى ، الذين اجروا الجمال الى والي دمشق أمير الحج ، الى المحكمة الشرعية بدمشق لتسجيل واقعة التأجير وكيفية دفع الاجرة ، وتبرئة ذمة الوالي مما يستحق لهم عليه . وكانت اجرة الجمل الذي حمل أثقال الوزير من المزيريب الى المدينة في عام ١١٧٥/١٧٦٢ مثلا، ٣٣½ قرشا ، ومن المزيريب الى مكة ٦٥ قرشا . وكانت اجرة الجمل الذي حمل اثقال الجردة من المزيريب الى هدية . ومن هدية الى دمشق ٤٠ قرشا (٣٢) .

وقد وجدت طوائف حرفية خاصة في دمشق وحلب وغيرها لنقل الحجاج الى الحجاز . وابرز هذه الطوائف طائفة المقومين الدوجية . وكلمة الدوجية، أو الدعجية، المستخدمة بالتركية ، مشتقة من الكلمة العربية (يدعو) ، وتشير الى الذين يدعون الى اللـه . والمقوم هو الذي يتعهد بنقل الراغب بالحج من دمشق أو غيرها الى مكة المكرمة ، ويعيده ، بحسب الاتفاق ، الى مكان بدء الرحلة . ويركب المسافر في محارة ، وهي محمل من الخشب يغطى بالقماش ، وتتسع لراكب واحد . وتوضع اثنتان منها على ظهر الجمل ، كل واحدة من طرف . ولم يكن ضروريا وضع مسافرين على جمل واحد اذ وضعت أحيانا حمولة في الطرف الآخر . واستخدمت تسمية أخرى للمحارة، في دمشق وحلب ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهي الشقدوفة (٣٥) . واستخدمت كذلك كلمة محفة (٣٦) ، وهي تخت خشبي وضع على ظهر الجمل ، واستخدم لنقل الحجاج . ويبدو ان للمحفة ميزات خاصة ميزتها عن المحارة ، أو الشقدوفة ، بدليل ان امراة في مدينة حلب دفعت لنقلها في محفة الى مكة ثم عرفات ، ذهابا وايابا ، مع تقديم الزادوالماء وسائر اللوازم لها ، مائة وسبعين قرشا (٣٧) ، وهي ما يساوي تقريبا اجرة شخصين يركبان المحارة ، مع الخدمات ذاتها. ولا ندري اذا كان الركوب في المحفة يدل على الثروةوالمكانة الاجتماعية ، ام على حالة مرضية . ويقدم المقوم للمسافر ، بالاضافة الى مكان جلوسه ، طعامه وماءه وما يلزمه .

وانتظام المقومين في طائفة لها شيخها يدل على اهمية هذه الحرفة ، وضرورة مراقبة افرادها ذاتيا وحرفيا ، من قبل شيخ الطائفة ، وبمعرفة القاضي الشرعي . وخوفا من تقصير المقوم (الدوجي) في خدمة زبائنه ، أو هربه في الطريق ، تعهد المقومون ، امام القاضي الشرعي ، قبل السفر الى الحج ، بانهم يضمنون بعضهم بعضا، فاذا اخل احدهم بشروط العقد مع المسافر ضمنه زملاؤه ، وضمن الجميع شخص واحد ، وذلك لحصر المسؤولية (٣٨) .

وساهمت طائفة العكامة في عملية نقل الحجاج ، ولكن دورها كان ثانويا اذا ما قورن بالمقومين الذين تعهدوا عملية النقل بكاملها . والعكام (٣٩) هو الذي يقود

الجمل ويخدم راكبيه(٤٠) . وفي حين ان طائفة المقومين اختصت بنقل الحجاج فقط ، فان طائفة العكامة استخدمت في مرافقة حيوانات النقل ، من جمال وغيرها ، في خدمات متعددة ، مثل نقل الذخائر بين حلب وبلاد الروم (٤١) ، او مرافقة المسافرين في انحاء الامبراطورية . وساهمت كذلك طائفة الجمالة في تقديم الجمال لاغراض الحج ولكنها لم تتدخل مباشرة بنقل الحجاج (٤٣) . وتقديم الجمال لاغراض الحج جزء من عمل هذه الطائفة الذي شمل أيضا تقديم الجمال للقيام بخدمات التحميل بصورة عامة . كما ان المشعلجية ، وهم حملة المشاعل ، رافقوا جماعات المسافرين .

واختلفت اسعار نقل الحجاج ، تبعا للخدمات المقدمة لهم . وقد قمنا بدراسة عينتين : الاولى من حلب ، من حوالي منصف القرن الحادي عشر الهجري ، والثانية من دمشق ، من حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري . ففي العينة الاولى تعاقد مسافر وأمه ، في ١٦ شعبان ١٠٤٥ / ٢٥ كانون الثاني ١٦٣٦ ، مع مقوم على ان يدفعا له لقاء حملهما في محارتين من الخشب (شقدوفتين) ، ونقلهما من مدينة حلب الى مكة المكرمة ثم الى عرفات ،ثم الى مكة عودا ، صحبة الركب الشريف (أي قافلة الحج الشامي) ، المتوجه في ذلك العام الى الحجاز ، وتزويدهما « بجميع اكلهما ومايهما وزادهما وساير لوازمهما الضرورية التي لابد منها في الطريق»اجرة قدرها مائة قرش مقبوضة من المتعاقدين « قبضا تاما سلفا ومعجلا »(٤٤) . ويبدو ان هناك تخفيضا لافراد الاسرة ، وربما روعي سن الاولاد ، بدليل ان الام وابنها في المثال السابق دفعا مائة قرش في حين ان امرأة من حلب تعاقدت بعد شهر من العقد السابق على ان تدفع للمسافة نفسها وللخدمات ذاتها سبعين قرشا (٤٥) . ويبدو ان دفع اجرة الذهاب والاياب معا كانت اكثر توفيرا لأن المقوم يضمن العودة بدون شواغر . وكانت العادة ان يتخلف بعض الحجاج في الحجاز للمجاورة . وسواء كانت الرحلة للذهاب فقط ، ام للذهاب والاياب ، فقد دفعت الاجرة للمقوم علىاقساط . وبقي أحيانا جزء من الاجرة الى مابعد العودة . وعمد بعض الراغبين بالسفر الى الحجاز الى استئجار الجمال فقط بدون الخدمات الاخرى . وبلغت اجرة الجمل من حلب الى مكة ، ثم الى عرفات ، وعودا الى مكة ، في تلك الفترة ، أربعا واربعين قرشا ، مما يعني ان قيمةالخدمات ، بالمقارنة مع مثال الام وابنها ، بلغت ستا وخمسين قرشا . ويفترض ان صاحب الجمال المؤجرة رافقها الى الحجاز للعودة بها . واذا كان قد رتب مسبقا لايجارها من هناك فهذا يدل على تنظيم دقيق في النقل والمواصلات .

وفي العينة التي اخترناها من دمشق في حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري نلاحظ ان اجرة نقل المسافر من دمشق الى مكة في شوال ١١٥٨ / تشرين الثاني ١٧٤٥ كانت سبعين قرشا (تفصيلها : اجرة جمل ٤٠ ، سقاية ماء ٥ ، ثمن

شقدوفة ٥ ، أجرة عكام ٥ ، اجرة حمولة وزنها ١٥ أوقه ١٥ قرشا) . ويبدو أن الاجرة لم تتضمن الطعام لانه لم ينص عليه (٤٦) . وفي مثال اخر تعاقد رجل وامه ان يدفعا اجرة نقلهما من مكة الى دمشق ، بما في ذلك كامل الخدمات ، مائتي قرش ، بمعدل مائة قرش للشخص مقسطة (تفصيلها : اجرة الجمل للشخص الواحد ٨٠ قرشا — من غير اجرة ارطال على الراكب أي بدون أجرة الحمولة — و ١٥ نظير اكله ، و ٥ لقاء سقايته) . وحين احتج الراكبان ، لدى وصولهما الى دمشق ، أن السعر مرتفع ، استدعى القاضي الشهود فشهدوا ان المائة قرش هي سعر المسلمين في سنة تاريخه ، فالزمهما القاضي بالدفع (٤٧) . وتؤكد هذه الاجرة امثلة اخرى من الفترة ذاتها (٤٨) . والملاحظ ان سعر العودة الى دمشق كان أغلى من سعر الذهاب . وربما يفسر ذلك بعامل الاضطرار . كما انه بالمقارنة بين اسعار حلب ، في حوالي منتصف القرن الحادي عشر ، واسعار دمشق ، بعد قرن من ذلك ، يتبين لنا تدني قيمة العملة ، وبالتالي ارتفاع الاسعار ، وهذا امر كان شائعا في الدولة العثمانية .

واذا ما أخذنا عينة من اسعار السلع الاستهلاكية(٤٩) ، واثمان العقارات(٥٠) ، ومستوى الارباح والاجور ، في تلك الفترة ، وقارناها مع تكاليف السفر الى الحج ، لتبين لنا ان كلفة الذهاب للحج لم تكن بقليلة على اصحاب الدخل المحدود . وحتى العلماء ، الذين كان وضعهم المادي احسن من غيرهم ، نظرا للوظائف الدينية المتعددة التي شغلوها والتي رصدت لها الاعتمادات من مال الوقف ، فقلما ذهب واحدهم الى الحج اكثر من مرة بسبب النفقات الباهظة المترتبة على ذلك . وفي مقابلة بين عالم مصري وعالم دمشقي ، هو نجم الدين الغزي صاحب « الكواكب السائرة » ، في المدينة المنورة ، في اواسط محرم ١٠٠٢/ أواسط تشرين الاول ١٥٩٣، ذكر المصري انه حج أربعا وعشرين مرة . فقال الغزي أن أهل الشام لايكاد يحج الواحد منهم الا مرة . فأجاب المصري « الواحد منا يستأجر بعيرا بعشرة ذهب ويحمل تحته الفريقيشات والبصلات ويحج وانتم اذا حج الواحد منكم تكلف كلفة كثيرة تكفي عدة منا وطريقكم اشق من طريقنا والاجر على قدر النصيب »(٥٢) .

سفر القافلة

كانت قافلة الحج الشامي تغادر دمشق في موكب حافل (٥٣) ، يسير فيه الوالي — أمير الحج ، ويحمل فيه المحمل والصنجق ، وترافقه قوات كثيرة . وتتم المغادرة ، في الغالب ، بين الثاني عشر والعشرين من شهر شوال . ويتوقف امير الحج عند قبة الحج ، خارج باب أوبوابة الله (سميت بذلك لانها تؤدي الى بلاد الله في الحجاز والقدس) ، بانتظار تجمع الحجاج . ويتباطأ هؤلاء في الخروج ، بسبب رغبة

بعضهم في مشاهدة موكب الحج ، أو لتوديع اقربائهم . أو للقيام بالمشتريات في اللحظة الاخيرة ، ويكتمل خروجهم خلال اسبوع . ومن قبة الحج تتوجه القافلة نحو المزيريب (تبعد حوالي ١٠٣ كم جنوبي دمشق) بشكل متفرق ، لانه ليس ثمة من اخطار تجبرها على التجمع . كما ان عددا من أقرباء الحجاج ومن الباعة يرافقون الحجاج الى المزيريب . وبعد توقف ، يقارب الاسبوع ، في المزيريب ، حيث يلتئم عقد الحجاج ، وتتم الاستعدادات النهائية ، ويودع الراغبون من الحجاج ودائعهم في قلعة المزيريب ، تنطلق القافلة ككل باتجاه الحجاز . ويعود الذين رافقوا الحجاج الى دمشق ، ويعرفون بالمزيرباتية (٥٤) . ويرافق القافلة الى الحجاز قاض ، عرف بقاضي الركب الشامي ، لنظر في القضايا الطارئة . واختير عادة من بين نواب القاضي الحنفي بدمشق ، أو من القضاة المتقاعدين ، أو من العلماء المدرسين (٥٥) .

وقد اشير الى الطريق الرئيسي ، الذي سلكته القافلة من دمشق الى الحجاز ، بالطريق السلطاني . وتألف من عدة منازل (مفردها منزل أو منزلة) ، حيث يتوقف الحجاج للراحة ، والتزود بالماء ، واحيانا بالمؤن . وضم الطريق السلطاني في القرنين السابع عشر والثامن عشر . المنازل التالية(٥٦) : قبه الحج ، المزيريب . المفرق ، الزرقاء ، البلقاء ، القطرانة ، الحسا (تابوت قره‌صى) ، العنزة ، معان ، ظهر العقبة (عقبة الحلاوة) ، جفيمان (المدورة) ، ذات حج ، القاع (قاع البسيط أو قاع الصفير) ، تبوك ، مغائر شعيب ، الاخضر (الاخيضر)، المعظم . دار الحمراء (اقيرع او مفارش الرز . اوشق العجوز) ، مدائن صالح (ديار او ابار ثمود او الحجر) . العلا ، المطران (بيار أو ابار الغنم ، أو طوامير) بئر الزمرد ، شعب النعام ، هدية ، الفحلتين (النخلتين) ، وادي القرى ، الجرف ، المدينة المنورة ، قبور الشهداء ، الجديدة ، القاع ، رابغ ، قديد ، خليص ، عسفان ، وادي فاطمة . مكة المكرمة . ولم تشمل هذه المنازل جميع الامكنة الصغيرة حيث توقف الحجاج في بعض الاحيان ، كما انه لم يكن من الضروري أن تتوقف القافلة في كل منها . واذا ما اراد البدو الاضرار بقافلة الحج ، دون الهجوم عليها ، لجأوا الى وضع الحشائش السامة ، مثل الحنظل . أو بقايا الحيوانات المتفسخة . في برك الماء ، في بعض المنازل . ولهذ اهتمت الدولة العثمانية ، منذ بدء حكمها في بلاد الشام ، ببناء القلاع في منازل الحج ، أو ترميمها ، او تعزيزها بالحاميات لحماية القافلة (٥٧) . وقام ولاة دمشق ، على فترات ، ببناء ، او ترميم ، القلاع ، ووضع الحاميات فيها (٥٨) . وقد عهدت الدولة العثمانية ، في بادىء الامر ، الى الجنود السباهيين . من أصحاب الاقطاعات بحماية القلاع (٥٩) ، ثم خلفهم الانكشارية ، وبخاصة البرلية منهم ، بعد عام ١٦٦٠ ، حين حل مكانهم ، في حماية القلعة وسور وأبواب

دمشق ، الانكشارية القابي قول (٦٠) . واضطرت القافلة ، أحيانا ، في طريق العودة الى دمشق ، الى التخلي عن الطريق السلطاني ، لتحاشي هجمات البدو عليها ، أو لانقاذ ما يمكن انقاذه في اعقاب الهجوم عليها . وحولت طريقها ، بعد منزلة ذات حج ، الى غزة ، حيث يمر الطريق التجاري المتجه من دمشق الى مصر ، وكان اكثر أمنا . وعرف هذا بالطريق أو الدرب بالغزاوي(٦١) . واقتضت العودة عن هذا الطريق تأخر وصول القافلة الى دمشق الى ما بعد النصف الأول من صفر ، وهو الموعد العادي لعودتها في الطريق السلطاني . واذا هدد الجردة ، التي كانت تخرج لاستقبال القافلة ، خطر مماثل عادت هي الأخرى على الطريق الغزاوي .

وسبق عودة القافلة الى دمشق وصول جوقدار (٦٢) الحج اليها ، مرسلا من قبل أمير الحج ، لابلاغ الدمشقيين بسلامة القافلة . وغالبا ما أرسل الجوقدار من معان ، حيث دخلت القافلة منطقة الامان . ويصل الجوقدار الى دمشق ، في العادة ، في أواخر شهر محرم (٦٣) . وخلال أسبوع من وصول الجوقدار يصل دمشق كتاب الحج حاملا رسائل الحجاج الى ذويهم ، وتوزع الرسائل في الدرويشية . ويرسل الكتاب في الغالب ، من منزلة القطرانة . ويحمل كتاب آخرون الرسائل الى حماه وحلب (٦٤) . أما الحجاج الاروام فانهم يرسلون المكاتيب الى استانبول لدى وصول القافلة الى منزل ظهر العقبة (٦٥) .

وتصل طلائع الحجاج العائدين الى دمشق خلال اسبوع من وصول الكتاب اليها، أي في النصف الأول من شهر صفر ، ويستبقون بذلك وصول المحمل وأمير الحج بحوالي اسبوع ، وهي المدة نفسها تقريبا بين خروج المحمل من دمشق الى قبة الحج، في الطريق الى الحجاز ، ولحاق آخر الحجاج به . ويتوقف أمير الحج العائد في قبة الحج ، حيث يستقبله اعيان دمشق (٦٦) .

اما المدة التي استغرقتها قافلة الحج الشامي في الوصول الى مكة من دمشق ، فكانت حوالي خمسة وثلاثين يوما (٦٧) . واستغرقت المدة ذاتها تقريبا في طريق العودة (٦٨) . وقد قدر احد الحجاج ساعات السفر التي اقتضاها الوصول الى مكة من دمشق بـ ٤٩٠ ساعة (٦٩) ، وقدر آخر ساعات العودة بـ ٤٥٠ ساعة (٧٠) . وهذا يعني ان القافلة كانت تسير بين ١٣ ـ ١٤ ساعة في اليوم .

اهمية قافلة الحج الشامي :

لعبت قافلة الحج الشامي ، في العهد العثماني ، دورا هاما ، سواء بالنسبة

لدمشق وبلاد الشام بخاصة ، أو العالم الاسلامي بعامة . وزاد من أهميتها ، آنذاك ، كونها واحدة من قافلتين رئيسيتين سمحت بهما ، وبالتالي تبنتهما ونظمتهما ، الدولة العثمانية ، في العالم الاسلامي . وتجلت أهمية قافلة الحج الشامي ، بالاضافة الى الناحية الدينية ، في النشاط الاقتصادي الذي رافقها ، وأهم من ذلك في التمازج السكاني والثقافي الذي سهلت تحقيقه الى حد كبير .

وكان سفر القافلة مناسبة هامة لانتقال البضائع ، سواء منها التي حملها الحجاج أنفسهم ، أو تلك التي حملها التجار بكميات كبيرة (٧١) . وقد حرص التجار على مرافقة القافلة للافادة من الحماية العسكرية التي تمتعت بها . وانضمام التجار الى قافلة الحج زاد في اعدادها ، وفي المخاطر التي تعرضت لها ، لان كثرة البضائع اغرت القبائل الناقمة على مهاجمتها . وقد افادت دمشق ، وحوران بصورة خاصة ، وحلب الى حد ما ، من تقديم الخدمات للقافلة . ففي دمشق نشطت صناعة البكسماد السفري الذي تمونت به القافلة ، وانعكس ذلك على نشاط الطائفة الحرفية الخاصة بالبكسمادية . وبلغت مبيعاتها أثناء موسم الحج آلاف القناطير (٧٢) . ونشطت طائفة البكسمادية أيضا في حلب ، بمناسبة موسم الحج . وأفادت كذلك طائفة العكامين ، الذين يقودون الجمال ، والمحايرية ، الذين يصنعون المحارة (الشقدوفة) . وسبقت الاشارة الى الفوائد التي جناها مشايخ قرى حوران ، وبدرجة أقل ، مشايخ البدو في منطقة حماه وحلب ،من تأجير الآلاف من جمالهم لنقل الحجاج والقوات والبضائع المرافقة للقافلة .

وقد اشارت المصادر الى انواع البضائع وكمياتها التي حملها الحجاج معهم . وضمت البضائع ، بصورة رئيسية ، الاحجار الكريمة والقهوة والمنسوجات والتوابل وقد عبر البديري عن النشاط الاقتصادي الذي عم دمشق ، في أعقاب وصول الحجاج الاعجام اليها في عام ١١٦٤ / ١٧٥١ ، بقوله : « وصار جبر خاطر لعموم الناس في البيع والشراء وجاء مع العجم ربيات ذهب كل واحدة بثلاثة عشر قرشا ولؤلؤ كبير وصغير واحجار ومعادن وشال وغير ذلك » (٧٣) . وحمل الحجاج الاروام معهم ، الى الشام والحجاز ، انواعا من السلع ، اشارت احدى الوثائق الشرعية الى بعضها ، في عام ١١١٩ / ١٧٠٧ ، بأنها عدة أحمال من الشال والزعفران ، بلغت قيمتها عدة آلاف من القروش . وقد جاء ذكرها بمناسبة هجوم قطاع الطريق ،في ناحية السويدية، التابعة لحاكم حماه ، عليها . وغرم هذا الحاكم بثمن المسروقات لأنه مسؤول قانونيا عن الأمن في منطقته (٧٤) .

وكانت قافلة الحج العائدة من الحجاز تحمل عدة سلع منها السنا (٧٥) ، وهو

نبات مليّن اشتهرت به منطقة مكة ، فعرف بالسنامكة . واشهر ما أتت به القافلة من منتجات الجزيرة العربية هو البن . ورغم ان اليمن هي التي اشتهرت بانتاج البن الا انه اشير اليه في المصادر المحلية بالبن الحجازي ، ربما لأنه شري في الحجاز (٧٦) . وبلغت كمية البن المستورد من الحجاز ، في عام ١٧٤٦ ، مثلا ، ستمائة كيس ادى طرحها في السوق الى هبوط سعر البن في بلاد الشام (٧٧) . ويدل هذا على شيوع شرب القهوة محليا (٧٨) . وحملت قافلة الحج، كذلك، المنسوجات والتوابل والعطور والاحجار الثمينة المستوردة من الهند عبر البحر الاحمر الى جدة ومنها نقلت الى مكة (٧٩) .

ويتبين لنا مدى مساهمة قافلة الحج الشامي في التجارة الدولية مما رافق القافلة ، التي عادت الى دمشق من الحجاز بتاريخ ٢٨ آذار ١٨٤٢ ، من بضائع . فقد ضمت ٢٢٥ حملا من الحناء زنتها ٢٢٥٠٠ رطلا (حوالي ١٤٥٠٠ كغ) ، سعرها ١٢٠٠٠٠ قرش ، وأربعين حملا من البن الحجازي Moka coffee (٨٠)(كانت في الاساس تسعين حملا ، ولكن سرق منها خمسون حملا في الطريق تزن ٤٠٠٠ رطل قيمتها ١٤٠٠٠٠ قرش) ، وعشرين حملا من نسيج هندي يصلح للعمائم ، يتألف كل حمل من بالتين ، تضم الواحدة منها مائة قطعة ، ثمن القطعة ٢٠٠ قرش ، ومجموع ثمنها ٨٠٠٠٠٠ قرش . وقدرت قيمة المجوهرات التي حملتها تلك القافلة بـ ١٠٠٠٠٠ قرش . واشتملت البضائع أيضا على ريش النعام ، وقيمته ١٧٠٠٠٠ قرش ، وعطورات ثمنها ١٦٠٠٠٠ قرش ، ومتفرقات قيمتها ٦٠٠٠٠ قرش . وبلغ مجموع قيمة البضائع التي حملتها تلك القافلة ٣٨٧٠٠٠ فرنك أو ما يعادل ١٨٥٠٢٠٠ قرش (٨١) .

وقد تأثرت تجارة قافلة الحج الشامي بازدياد استخدام الحجاج الاروام للطريق البحري الى الحجاز ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، وذلك لاسباب امنية واقتصادية . كما ان عددا متزايدا من الحجاج الاعجام بدأ يسافر بحرا من الخليج العربي الى جدة (٨٢) . وذكر القساطلي ، الذي عاصر هذه التطورات في دمشق ، في السبعينات من القرن التاسع عشر ، أن « أول نكبة دهمتها (أي دمشق) تسببت عن سير سفن البخار في البحار ... وعندما فتحت ترعة السويس حلت بلية عظمى وطامة كبرى على تجارة دمشق لانها سلبت كل ما بقي لها من التجارة البرية وفتحت بابا قريبا للحجاز فامتنع الحجاج من الاتيان اليها فخسرت جداول الذهب الغزيرة التي كانوا يسكبونها فيها ذهابا وايابا » (٨٣) .

وعلى صعيد آخر ادى التنوع في جنسية الحجاج الذين اموا دمشق للالتحاق

بقافلتها ، وبقاء بعضهم للعيش والعمل فيها ، الى تعدد الاقوام في دمشق . وكثيرا ما اقام هؤلاء في احياء خاصة مثل حي الخراب والسويقة بالنسبة للحجاج الاعجام ، او في زوايا تحمل اسمهم ، مثل زاوية المغاربة(٨٥) ، وزاوية الهنود ، القائمة ظاهر دمشق ، بمحلة السويقة ، والتي تولى امرها هنود(٨٦) . وذكرت زاوية السنود ، بمحلة الهنود بدمشق ، بمناسبة تعيين الشيخ محمد بن محمد السندي في وظيفة الامامة فيها(٨٧) . وربما كانت التسميتان (زاوية الهنود وزاوية السنود) ، اللتان ذكرتا بفاصل خمس سنوات تشيران الى زاوية واحدة ووجدت كذلك زاوية للموصليين بمحلة ميدان الحصى ، تعاقب على مشيختها اناس من اصل موصلي(٨٨) .

وقد رغب عدد من المسلمين الاغراب الاقامة في دمشق سواء منهم الذين قدموا اليها بمناسبة الحج . او الذين قصدوها خصيصا بهدف المجاورة لبعض الوقت او للاقامة فيها كنزلاء . واجتذبت دمشق ، بصورة خاصة ، العلماء والمتصوفة بسبب شهرة ما ضمته من اماكن دينية . ونظرا لكثرة الاغراب الذين دفنوا فيها ، وبخاصة من الحجاج ، فقد خصص مكان لدفنهم ،عرف بمقابر الغرباء ، في تربة مرج الدحداح(٨٩)، وقد جاء ، مثلا ، في احد سجلات القسام المدني (يشار اليه ايضا بالعربي) ، الذي نظر في مخلفات المتوفين في دمشق ، في الاعوام ١١٦٣ ـ ١١٦٦ هجرية . ذكر خمسة وسبعين غريبا ، معظمهم من الحجاج الاروام ، دفنوا في دمشق ، اما العلماء الاغراب فقد دفنوا في الغالب حيث دفن علماء دمشق (٩٠).

وقد اغنيت الحياة الثقافية في دمشق بتوافد العلماء اليها بمناسبة الحج،واقامة بعضهم فيها . وكثيرا ما حدثت المناظرات بين العلماء الزائرين والعلماء المقيمين ، مثال ذلك زيارة عبد الله السويدي البغدادي لدمشق بين ٢٢ شعبان و ٢٠ شوال ١١٥٧/ ٣٠ ايلول و ٢٦ تشرين الثاني ١٧٤٤ ، بمناسبة سفره للحج . ووصفه الجو الاجتماعي في دمشق ومناقشاته مع علمائها(٩١) .

وقد شغل عدد من نزلاء دمشق مراتب عليها فيها ، سواء في الامامة أو في التدريس ، على اختلاف مستوياته(٩٢) ، بما في ذلك تدريس الحديث تحت قبة النسر في الجامع الاموي ، في اشهر رجب وشعبان ورمضان ، وهو من ارفع مراتب التدريس(٩٣) ، واقام النزيل ، او المجاور ، عادة ،في حجرة في مدرسة او في جامع(٩٤) واذا ما تزوج سكن في دار(٩٥) ، واذا لم يكن النزيل عربي اللسان امكنه تعلم العربية بدمشق(٩٦) ، واستغل العلماء المحليون وجود العلماء الاغراب في دمشق ، بمناسبة الحج ، فحصلوا منهم على الاجازات فيما اختصوا به من علم(٩٧) . وافاد العوام ، كذلك ، من العلماء النزلاء الذين كانوا بمستوى معرفتهم . وقد وصف احد هؤلاء

العلماء بأنه « يتكلم على الحقيقة ولا يعرف الشريعة وكان لكثير من الناس فيه كبير اعتقاد »(٩٨) .

ورغم ان مناسبة الحج كانت فرصة هامة لتبادل الآراء بين العلماء الاغراب والمحليين ، وللتعليم والتعلم في آن ، فقد ساعد ذلك ايضا على نشر التصوف والطرق الصوفية . ولعل خير مثال ، في هذا المجال ، هو نشر الطريقة النقشبندية في دمشق، في أواخر القرن السابع عشر ، على يد جد الاسرة المرادية ، السيد مراد المرادي ، الذي ام دمشق بمناسبة الحج . واهتم بنشر هذه الطريقة في دمشق ، وتابع عمله من بعده ابنه السيد محمد . واصل الاسرة المرادية من بخارى . ولكن الطريقة النقشبندية التي نشروها تنتسب الى الشيخ احمد الفاروقي ، الذي اقام في الهند ، واشتهر بالمجدد(٩٩) . ولو لم يكن المناخ مهيئا في دمشق لنشر هذه الطريقة وغيرها لما شاعت بين الناس ولما ام دمشق عدد من الهنود النقشبندية آنذاك(١٠٠) . وانتشرت طرق صوفية عدة في دمشق ، في العهد العثماني. وانتسب الناس الى اكثر من طريقة. وافاد انتساب العلماء الى الطرق الصوفية بأن رفع من مستواها وازال منها كثيرا من تطرفها ، كما انه عزز الروابط بين افراد الطريقة الواحدة ، دون أن يوجد حساسيات قاتلة بين الطرق ، لانها لم تكن عقائدية متعمقة ، وانما ذات شعائر اجتماعية متقاربة.

ورغم انه لم يقم اي سلطان عثماني باداء فريضة الحج ، بما في ذلك السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي اعلن نفسه خليفة المسلمين ، ربما لاسباب امنية ، فقد اهتم العثمانيون بتأمين سلامة قافلة الحج،بوصفهم حماة الحرمين الشريفين،طوال القرون الاربعة التي حكموا فيها بلاد الشام .

* * *

المراجع

(١) انظر : محمد بن عيسى بن كنان ، الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر الف ومية ، جزءان مخطوطان في مجموعة برلين ، ارقامها : 9479, We. (II) 1114, 9480, We. (II) 11150 ج ٢ ، الاوراق ٧١ أ ، ٨٠ أ ، ١٢٥ ب ، ١٤٧ أ ، ١٦٢ أ ، ١٧١ ب ،د.صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٧ ، حقق فيه : الباشات والقضاة ، لمحمد بن جمعة ، والوزراء الذين حكموا دمشق ، لرسلان القاري ، ص٢، ٥٣ ، احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ — ١٧٤١/١١٧٥ — ١٧٦٢ ، تحقيق د . أحمدعزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٠ ، ١١٥ ، ١٦١ ، ١٧١ .

(٢) سكن هذه المناطق ، قبل العثمانيين ، الروم البيزنطيون . وقد اشار العرب ، منذ الفتوحات الاولى ، الى البيزنطيين باسم الروم . وحين زال الحكم البيزنطي عن الاناضول ، وحل محلـــه حكم السلاجقة ، ثم العثمانيين ، فقد تعبير « روم » مدلوله السياسي ، ولكنه لصق بالمنطقة مـن ناحية جغرافية . لذلك اشار العرب الى سلاجقة قونية بانهم سلاجقة الروم ، والى العثمانيين بانهم روم ، والى سلطانهم بانه ملك ، ثم سلطان ، الروم .

(٣) البديري ، ص ١٧٦ .

(٤) ابن كنان ، ج ١ ، ١٤١ ب.

(٥) البديري ، ص ١٧١ .

(٦) البديري ، ص ١٠ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٦١ .

(٨) انظر :

C.F. Chasseboeuf Comte de Volney, **Voyage en Egypte et en Syrie**, ed. J. Gaulmier, Paris, 1959, P. 253.

(٩) انظر :

Public Rcord Office (P R O), London, State Papers (SP) 97/38: Istanbul (date of despatch) 3. 12. 1757.

(١٠) انظر : Volney, p. 322

(١١) انظـر :

Lettres édifiantes... de la Compagnie de Jésus (Jesuits), 34 Vols., Paris, 1707- 73, P. 444.

(١٢) انظر كتابنا :

The Province of Damascus, 1723-1783, Khayats, Beirut, 2nd ed. 1970. P. 61.

(١٣) انظر :
Affaires Etrangères, Correspondance Commerciale (Quai d'Orsay), Damas 2, 16 Mars 1847.

AE. CC. Damas 5, 19 Janvier 1870.

(١٤) انظر :

(١٥) محمد بن طولون ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد احمد دهمن دمشق ١٩٦٤ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٥ .

(١٦) انظر تفاصيل ومصادر هذه المعلومات في كتابنا : بلاد الشام ومصر (١٥١٦–١٩٧٨) ، دمشق ١٩٦٨ ، ص ١٥٧ ، ١٩٧ – ٢٠٠ .

(١٧) انظر تفاصيل ذلك في كتابنا : بلاد الشام ومصر ص ٢١٣ – ٢١٤ ، ٢٢٥ – ٢٣١ .

(١٨) محمد خليل المرادي ، مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ، مخطوطة في المتحف البريطاني بلندن ، رقم ٤٠٥٠ ، OR ، الاوراق ، ٢٦ ب – ٢٧ أ .

(١٩
R. Tresse, **Le Pélerinage Syrien aux Villes Saintes de l'Islam.** Paris,1937, PP. 85, 88.

(٢٠) انظر تفاصيل اخرى عن الجردة في كتابنا :
The Province of Damascus, PP. 65-68.

(٢١) حيدر أحمد شهاب ، تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي ، نشر نعوم مغبغب ، القاهرة ، ١٩٠٠ – ١٩٠١ ، ص ٦٧٧ – ٦٧٩ – ٦٨٣ – ٦٨٤ ، الحسن بن محمد البوريني ، تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، صدر منه جزءان ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٩ – ١٩٦٦ ، ج ١ ، ٢٠٥ .

(٢٢) البديري ، ص ٤٢ – ٤٦ .

(٢٣) المرادي ، مطمح الواجد ، الاوراق ، ٤٢أ – ٤٢ب .

(٢٤) المرادي ، سلك الدرر ، ج٢ ، ص ٣٢ ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٢٥) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩٦ ، ١٢ شوال ١١١٩/ (٢٥ كانون الاول ١٧٠٨) .

(٢٦) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٤٤٧٥٣ ، محرم ١٠٤٥/ (٢٠ حزيران ١٦٣٥).

(٢٧) انظر بحثنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣–١٢٧٧/١٨٥٧ – ١٨٦١ ، بحث قدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، نيسان ١٩٨٠، ص ٨٠ – ٨١ .

(٢٨) سجل دمشق ، رقم ١٦٦ ، ص ٢٩١ ، ٢٠ جمادى الاولى ١١٧٤/(٢٨ كانون الاول ١٧٦٠) .

(٢٩) سجل دمشق ، رقم ١٧٤، ص ٦٠، ختام شعبان ١١٧٥/(٢٥ اذار ١٧٦٢) ، ص ٦١ ، ٦ رمضان ١١٧٥ (٣١ اذار ١٧٦٢) .

(٣٠) انظر وصفا دقيقا لهذا الهجوم في كتابنا :
The Province of Damascus, Pp, 213-222.

Ibid., pp - 72 - 73

(٣١)

(٣٢) سجل دمشق رقم ١٧٤ ، ص ٦٠ ، ختام شعبان ١١٧٥/(٢٥ اذار ١٧٦٢) ، ص ٦١ ، ٦رمضان ١١٧٥/ (٣١ اذار١٧٦٢).

(٣٣) انظر حول هذه الطائفة في دمشق ، فيالقرنين التاسع عشر والعشرين ، قاموس الصناعات الشامية ، في جزأين ، الجزء الاول ، تاليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تاليف جمال‌الدين القاسمي وخليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر موتون وشركاه ، باريس - لاهاي ، ١٩٦٠ ، جـ ٢ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٣٤) انظر حول المحايري الذي يصنعها ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٣٥) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٨١ ، ١٦ شعبان ١٠٤٥ / (٢٥ تشرين الثاني ١٦٣٦) ، سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٢٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨ / (٦ تشرين الثاني ١٧٤٦) .

(٣٦) سجل حلب رقم ٢٢٢ ص ١٢٥ ، ٤ شوال ١٠٥٠/(١٧ كانون الثاني ١٦٤١) .

(٣٧) المصدر السابق .

(٣٨) سجل دمشق ، رقم ١٧٤ ، ص ٥٠ ، ١٩ شعبان ١١٧٥/ (١٥ اذار ١٧٦٢) .

(٣٩) انظر حول تعريفه : قاموس الصناعات الشامية ، جـ ٢ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤٠) سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨/ (٦ تشرين الثاني ١٧٤٥) .

(٤١) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٠٩ ، ١٧ صفر ١٠٤٦/ (٢١تموز ١٦٣٦) .

(٤٢) انظر ، مثلا ، سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ١٤٨ ، ٢٩ ربيع الاول ١٠٢٧/ (٢٦ آذار ١٦١٨).

(٤٣) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩٦ ، ١٣ شوال ١١١٩/(٧ كانون الثاني ١٧٠٨).

(٤٤) سجل حلب رقم ١٥ ، ص ٧٨١ ، ٦ اشعبان ١٠٤٥/ (٢٥ كانون الثاني ١٦٣٦) .

(٤٥) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٨٨ ، ٢٢رمضان ١٠٤٥/(٢٩شباط ١٦٣٦) .

(٤٦) سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨/ (٦ تشرين الثاني ١٧٤٥) .

(٤٧) سجل دمشق ، رقم ١٢٢ ، ص ١٥٠ ، ٦ صفر ١١٥٩/ (٢٨ شباط ١٧٤٦) .

(٤٨) انظر مثلا ، سجل دمشق رقم ١٢٤ ، ص ٢ ، ٥ صفر ١١٥٩ / (٢٧ شباط ١٧٤٦) .

(٤٩) قدر البديري (ص ٨١ - ٨٢) ان رطل الخبز الجيد في عام ١١٥٩ هـ ، بيع بسبع مصاري ، والرديء بخمسة مصاري، ورطل الارز بعشرة مصاري، ورطل اللحم بنصف قرش، ورطل العسل بقرش ونصف ، ورطل الباذنجان بثمانية مصاري ، واذا اعتبرنا ان الرطل الدمشقي انذاك قدر بـ٨٥٠ر١كغ (انظر : فالتر هنتس ، المكاييل والاوزان الاسلامية ، ترجمة د. كامل العسلي ، منشورات الجامعة الاردنية عمان ، ١٩٧٠ ، ص٣٣) وان القرش يعادل اربعين مصرية ، لتبين لنا مقدار القيمة الشرائية لكلفة السفر الى الحج انذاك ، وهيمائة قرش .

(٥٠) بيعت دار في عام ١١٥٩ هـ بدمشق بمحلة باب السريجة بزقاق العلواني تابع زقاق الوسطاني، تشتمل على ساحة سماوية ،وبركة ماء ، يجري اليها من نهو قنوات ، وايوان ومربع ، وقبة تعلوها طبقة ومطبخ ، ومشرقة ،بـ ١٧٥ قرشا (سجل‌دمشق ، رقم١١٥ ،ص٨٦،٨ ربيع اول١١٥٩ (٣١ اذار ١٧٤٦).

وبيعت دار اخرى ، ظاهر دمشق ، بمحلة الشاغور البراني ، بزقاق الجوزة تشتمل على ساحة سماوية ، ومربع ، ومرتفق بـ٧٠ قرشاً (سجل دمشق ، رقم ١١٨ ، ص ١٢٥ ، ٥ ربيع الاول ١١٦٠ (١٧ اذار ١٧٤٧). وكانت اجرة حمام الورد ، بسوق ساروجا ، ستة عشر قرشا في الشهر (سجل دمشق رقم ١١٨ ، ص ٥٦ ، ٢٠ ذي الحجة ١١٥٩) / ٣ كانون الثاني ١٧٤٧ .

(٥١) ذكر ان سمانا ، ينفق على عياله ، لم يستطع دفع مبلغ ٤٠٠ قرش من الديون بذمته ، واعلن اعساره في المحكمة (سجل دمشق ، رقم ١٤٢ ، ص٣٣ ، ١٠ ربيع الاول ٦/١١٦٤ شباط ١٧٥١) . وبلغ ما تقاضاه السيد حسن بن السيد علي البرهاني عن وظيفة الامامة والتعليم وقراءة جزء شريف بمسجد المرحوم محمد الجلبي القرماني، بالقرب من تحت القلعة بدمشق ، عشرة دراهم عثمانية في اليوم (سجل دمشق ، رقم ١١٥ ، ص١٥٢ ، ٢٦ شعبان ١٣/١١٥٩ ايلول ١٧٤٦) أي ما يعادل ثلاث مصريات وثلث في اليوم وغالبا ما قام العالم بعدد من هذه الوظائف في اليوم . وكانت نفقة الولد ، انذاك ، مصريتين في اليوم.

(٥٢) نجم الدين الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم اعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر ، (وهو ذيل الكواكب السائرة) ، مخطوط في الظاهرية رقم ٤١ ، الاوراق ، ١٩٩ب-٢٠٠أ وقد روى هذه الواقعة : محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ اجزاء ، القاهرة ١٨٦٩/١٢٨٤ جـ ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٥٣) هناك وصف لموكب الحج في دمشق في كتاب محمد بن عيسى بن كنان الصالحي ، المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية ، مخطوط في برلين ، برقم : 6088. We. 1166 وتوجد عنه نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق. ونشر صفحات منه: محمد أحمد دهمان، اعلام الورى، ص٢٩٨ .

(٥٤) انظر : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ١٢٥ ب ، ١٦٩ ب ، البديري ، ١٠ ، ٣١ .

(٥٥) المحبي ، جـ ١ ، ١٣ ، جـ ٣ ، ١٠٣ ، جـ ٤ ، ٦٢ ، المرادي ، سلك الدرر ، جـ ١ ، ٢٣ .

(٥٦) اسماء هذه المنازل مبنية على المصادر التالية : ابراهيم الخياري ، تحفة الادباء وسلوة الغرباء، مخطوط في مجموعة برلين برقم 6135, We. (I) 125 (وصف طريق الحج في ١٠٨٠ هـ) ، عبد الغني النابلسي ، كتاب الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، مخطوط في جامعة كيمبردج برقم Q q. 300 (وصف طريق الحج في ١١٠٥-١١٠٦هـ) ،مرتضى بن علوان، (وصف طريق الحج في عام ١١٢١هـ) مخطوط في مجموعة برلين برقم 6137. We. (II) 1860 عبد الله السويدي ، النفحة المسكية في الرحلة المكية ، مخطوط في المتحف البريطاني ، برقم Add. 23, 385 (وصف طريق الحج في ١١٥٧). عثمان(؟) (وصف طريق الحج في عام ١١٥٦هـ) ، مخطوط في مجموعة برلين 6147. Pm (II) 105. ووصف محمد اديب باللغة التركية ، طريق الحج في عام ١١٩٣ هـ ، بين استانبول ومكة ونشرت اجزاء من مؤلفه باللغة الفرنسية ، انظر :

M. Bianchi, **Itinéraire de Constantinople à la Mecque** (Extrait de l'ouvrage Turk intitulé Kitab Menassik El-Hadj), for Muhammad Adib b. Muhammad Darwish, Paris, 1825.

(٥٧) ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ص ١١ — ١٢ ، الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ٣ ، ١٥٣ .

(٥٨) المرادي ، سلك الدرر جـ ٣ ، ١٦١ ،مطمع الواجد ، ١٦٢ ، القاري ، تحقيق المنجد ، ٩٣ ، محمد اديب ، مناسك ، ص ٥١ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٥٩) الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ٣ ، ١٥٧ .

(٦٠) انظر كتابنا : The Province of Damascus, 32:

(٦١) ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ص ١١ – ١٢ .

(٦٢) الكلمة فارسية الاصل واشار بعض الاخباريين الدمشقيين الى الجوخدار باسم نجاب ، انظر مثلا ، ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢، الاوراق ، اب ،٨أ ، البديري ١٦،٣٦،١٢٤،١٥١،١٦٤، ١٧٣ ، ١٨٨ ، ١٩١ .

(٦٣) ابن كنان ، جـ ٢ ، الاوراق ١ ب ، ٨ أ ، البديري ، ١٦ ، ٣٦ ، ١٢٤ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٧٣، ١٨٨ ، ١٩١ .

(٦٤) البديري ، ١٩١ .

(٦٥) محمد أديب ، ٤٨ .

(٦٦) ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ٢، الاوراق ، ١٦٧ب، ١٧٤ب ، النابلسي، الحقيقة والمجاز، ٣٨٥ أ ، حسن الشهير بابن الصديق ، غرايب البدايع وعجايب الوقائع ، مخطوط في مجموعة برلين رقم 8163. We. (II) 202 ، الورقة ٤٠ أ .

(٦٧) السويدي ١١٤آ ، ١٢٩آ ، محمد أديب ، ٣٩ – ٨٦ ، وقدر Volney, 322 المدة باربعين يوما .

(٦٨) النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ٣٤٤ب ، ٣٧٣ ب ، ٣٨٥ أ .

(٦٩) محمد اديب ، ٧٧ .

(٧٠) عثمان ، ٢٨٤ ب .

(٧١) انظر ، مثلا ، البديري ، ٣٦،٣٧،١٦١.

(٧٢) انظر مثلا ، سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص٩٦ ، ١٢ شوال١١١٩/(٦ كانون الثاني١٧٠٨) ،ورقم ٤٥ ، ص ١٤٩ ، ٢٠ ربيع الاول ١١٤٠ / (٥ تشرين الثاني ١٧٢٧) .

٧٣) البديري ، ص ١٦١ .

(٧٤) سجل دمشق ، رقم ٣٣، ص ٨٢ ، ٣شعبان ١١١٩ (٣ تشرين الاول ١٧٠٧) .

(٧٥) سجل دمشق ، رقم ١٧١ ، ص ٣٧٩ ، ١٢ صفر ١١٧٦ (٢ ايلول ١٧٦٢) .

(٧٦) سجل دمشق ، رقم ١٣٦ ، ص ٣٧ ، ١٧ محرم ١١٦٣ (٢٧ كانون الاول ١٧٤٩) ، ورقم ١٤٢، ص ١٩٤،١٦ شعبان ١١٦٤ (١٠ تموز ١٧٥١) .

(٧٧) انظر : PRO. SP. 110/25, Pt, II : Aleppo, 19,10,1726; volney, P. 323.

(٧٨) يذكر ان مبتكر شرب القهوة في اليمن هو أبو بكر الشاذلي العيدروسي (المتوفى أوائل ٩٠٣هـ/ اواسط ١٤٩٧) الذي مر بشجرها هناك واقتات من ثمرها فوجد فيه تخفيفا للدماغ واجتلابا للسهر وتنشيطا للعبادة (الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ١، ١٣٣ – ١٣٤) . وقد ادخل شرب القهوة الى دمشق في صفر ٩٤٧/ حزيران تموز ١٥٤٠ (الغزي ، الكواكب السائرة جـ٢ ، ١٩٨) . ثم نودي بابطالها في ٧ ربيع الاول ٨/٩٥٣ أيار ١٥٤٦ (الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ٢ ، ٣٩) . وقد شاع شرب القهوة في بيوت القهوة (المقاهي) بدمشق، في الربع الاخير من القرن العاشر اي القرن السادس عشر (الغزي، الكواكب السائرة جـ٣ ، ٢٢، ٣٦،٢٠٥، المحبي ، جـ ١ ، ١٦٦، ٣٠٢، ٤٢٠ .

(٧٩) PRO. SP. 97/39: Istanbul, 23,12 1757;AE. B′ 1040. Seyde, 11.10.1783

(٨٠) كلمة Moka تشير الى مخافي اليمن .

(٨١) انظر : AE. CC. Damas I, 30 mars 1342

(٨٢) انظر بحثنا التالي الذي القيناه في المؤتمرالدولي الثاني للتاريخ الاقتصادي الاجتماعي لتركيا ، المنعقد في جامعة ستراسبورغ ، (١ – ٥ تموز ١٩٨٠).
« The impact of Europe on a traditional economy : the case of Damascus, 1840 - 1870 », a paper sumbitted to the IIe Congrès international d'Histoir Economique et Sociale de la Turquie , Economie et Sociétés dans l'empire Ottoman, fin du XVIIIe - début du XXe siècle » Strasbourg, Ier - 5 Juillet - 980.

(٨٣) نعمان القساطلي ، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ١٨٧٩ ، ص ١٢٤ .

(٨٤) ابن كنان، الحوادث اليومية ، جـ١ ، ١٠٢ ، المرادي ، مطمح الواجد ، ٤٣ أ . انظر ايضا البديري ، ص ١٧١ ، الذي ذكر السويقة الى جانب حي الخراب .

(٨٥) بنيت في عام ٨٠٢/١٣٩٩ – ١٤٠٠ ، وهي شمالي جامع الجراح في باب الصغير ، عرفت ايضا بزاوية الوطية نسبة الى علي الشهير بابن وطية الذي انشاها (ابن طولون ، اعلام الورى ، تحقيق الدهمان ، ص ١٠٢ ، المنجد ، ولاة دمشق ، ص١٠).

(٨٦) سجل دمشق رقم ١٢٤ ، ص ١٩٢ ، ١٦ رمضان ١١٥٩ (٢ تشرين الاول ١٧٤٦) .

(٨٧) سجل دمشق ، رقم ١١٠ ، ص ٢٠ ، ١٠ جمادي الاول ١١٥٤ (٢٤ تموز ١٧٤١) .

(٨٨) المحبي ، جـ ٢ ، ص ٣٤٦ .

(٨٩) المرادي ، سلك الدرر ، جـ٢ ، ٢.

(٩٠) انظر مثلا : المرادي ، سلك الدر ، جـ١، ٢٥٨ .

(٩١) النفحة المسكية ، ٩٤ أ ، ٩٤ب .

(٩٢) انظر مثلا : المرادي سلك الدر ، جـ ٣ ، ٩ .

(٩٣) انظر مثلا : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ٢١٥ ، جـ ٤ ، ٢٦٥ .

(٩٤) المحبي ، جـ ٢ ، ٧٦ ، ، المرادي ، سلك الدرر ، جـ٢ ، ٣٣، جـ ٣ ، ٢١٣ ، عبد الرزاق البيطار ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ اجزاء ، تحقيق محمد بهجت البيطار ، دمشق ، ١٩٦١ – ١٩٦٣ ، جـ١ ، ١٠٣ .

(٩٥) المرادي ، سلك الدرر ، جـ٣ ، ٩.

(٩٦) انظر مثلا : المحبي ، جـ ٢ ، ١١٨ .

(٩٧) انظر مثلا : الغزي ، لطف السمر ، ٢٠٩ ب .

(٩٨) المصدر السابق ١٧٩ أ ، المحبي ، جـ٤ ، ٢٨٧ .

(٩٩) المرادي ، سلك الدرر ، جـ ٤ ، ١١٤ ، ١٢٩ .

(١٠٠) انظر مثلا المصدر السابق ، جـ٢ ، ٢ ، جـ٣ ، ٢٦٠ .

مروان بن الحكم والخلافة

د. صالح الحمارنة

كليـــة الاداب ــ الجامعة الاردنية

اود في هذا البحث ان اعود الى بدايات مساعي مروان بن الحكم للوصول الـى الخلافة ، مبينا ان مروان قد سعى الى السلطة منذ وقت مبكر ، وليس صحيحا الرأي ان مروان لم يكن يفكر بالخلافة ، وانه شجع في ظروف خاصة انتهزها ليصبح خليفة المسلمين . وقد رأيت من المناسب أن اورد نصوصا قد تكون طويلة وكثيرة ، ولكن لها اهمية في توضيح الموضوع .

لقد كان مروان بن الحكم ــ كما يرد في المصادر الاولى ــ في عهد ابن عمه عثمان بن عفان رضي الله عنه جليس الخليفة وكاتم سره وكاتب الدولة الذي يكاد الخليفة ــ خاصة في السنوات الاخيرة من حكمه ــ لايخرج في شؤون الدولة عن امره في شيء حتى قيل ان من الاسباب التي ادت الى نقمة الناس على الخليفة تقريبه مروان وطاعته له(١)، ويرون ان كثيرا مما ينسب الى عثمان لم يأمر به ، وان ذلك عن رأي مروان دون عثمان . تذكر المصادر ان مروان كان قد اشترى خمس غنائم الحملة على افريقيه من عثمان اذ قدم عليه مبشرا فوهبها له .. وقالوا اشترى مروان خمس غنائم افريقية وقيمته اربعمائة الف دينار بمائة الف دينار من عبد الله بن ابي السرح ؛ فلما قدم المدينة ادى بعضه ووهب له عثمان الباقي(٢) وكذلك تذكر المصادر ان مروان اخذ غنائم خمس ارمينية(٣) . ومع ان هذه الروايات لا تخلو من مبالغة فانها تشعر بأن مروان قد اكتسب خبرة واسعة في تصريف شؤون الدولة في خلافة عثمان .

معلوم ان مروان عاش بعد وفاة ابيه الحكم بن ابي العاص في كنف ابن عمه الخليفة «وكان عثمان يكرمه ويعظمه» فلما حوصر الخليفة عثمان كان مروان يقاتل دونه اشد القتال .. وحين اجتمع المهاجرون على باب دار الخليفة ، «وقد ركب بعضهم

بعضا قام مروان وبأمر من الخليفة نفسه فكلمهم واغلظ لهم في القول ،ومما قاله : ـ **جئتم لنزع ملكنا من ايدينا** والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا الى منازلكم فانا والله ما نحن مغلوبون على ما في ايدينا »(٤) .

وحين وقعت المأساة وقتل الخليفة الشيخ كان مروان قد جرح جرحا عميقا وهو يذود عنه «وقد ضرب يومئذ كعبه مايظن الا انه قدمات مما به من الجراح .. ووقع على وجهه فأرادوا أن يبضعوا عليه فقيل تبضعون اللحم فترك »(٥). والذي يهمنا ان نؤكده هنا هو شعور مروان بن الحكم العميق ان الملك اصبح ملك بني امية وفي ايديهم . وذلك منذ ان تمكن اقرباء الخليفة الورع عثمان منه واخذوا يوجهون امور الدولة الوجهة التي فيها صالحهم وصالح من يمثلون من الامة .

وبعد وفاة الخليفة عثمان ووقوع الفتنة الكبرى في الاسلام احس مروان ان الاحداث قد تجاوزته ، اذ قام معاوية بن ابي سفيان ومن موقعه المميز في الشام يطالب بدم الخليفة المقتول فأصبح هو المتكلم بأسم بني امية خاصة والغاضبين لقتل عثمان عامة فلم يكن لمروان دور خاص ، ولكنه لم ينزو بل نراه فعالا نشطا في كل الاحداث التي تبعت ذلك ، فكان من المعارضين للامام علي ومن ابرز خصومه في معركة الجمل .

ان بروز مروان في معركة الجمل بالذات ورميه لطلحة بن عبيد بسهم كان سبب وفاته ينبىء بما في نفس الرجل من طموح للخلافة وتطلع للوصول الى الحكم . فهو حاقد على طلحة منذ زمن بعيد ، وحين رماه التفت الى أبان بن عثمان وقال له : «قد كفيناك بعض قتلة أبيك » . وشارك مروان في معركة صفين وفي التحكيم(٦) .

وحين تسلم معاوية بن ابي سفيان الخلافة ولى مروان بن الحكم البحرين ثم ولاه المدينة المنورة اكثر من مرة ، واسناد امارة المدينة لاموى امر تفرضه ظروف معاوية ولكن لخوف معاوية بن ابي سفيان من تقوية نفوذ مروان كان يلجأ الى ابداله بأموي اخر(٧) . ولكن ، اين مكانة مروان كأمير على المدينة ايام معاوية من مكانته ايام الخليفة عثمان ، حين كان كاتبا للدولة والرجل المتنفذ في شؤونها ، فلا عجب ان ينظر مروان الى ابن عمه الخليفة في دمشق بعين غير عين الرضا ، سيما حين اخذ معاوية بابراز ولده يزيد وتقريب زياد بن ابيه وادعائه انه اخوه عندها أحس مروان بعمق ان معاوية عازم على تقوية بيت ال حرب على حساب الاسرة الاموية كلها . وقد شاركه هذا الاحساس بقية بني امية من سكان المدينة خاصة .

وقد جاء في كتاب الموفقيات حديث شيق ولكنه طويل يكشف عن مخاوف

بني امية هذه وعن جزعهم الجزع كله حينما ادعى معاوية زيادا وأثر عمرو بن العاص على اهل بيته وقربهما دونهم . يقول الزبير بن بكار « فاجتمعوا (بنو امية) في ذلك فاتوا مروان بن الحكم في بيته ، وقد كتب له معاوية عهده على المدينة فقال القوم : يامروان ، انك شيخنا وكبيرنا وقد ترى ما ركبنامعاويةمن امر ليس لنا عليه صبر ولاقرار ولاينام على مثله الاحرار ادخاله فينا من ليس منا يريد ان يدخله على حرمنا ونسائنا . وقد اجتمع رأينا على أن تأتيه فتعاتبه فان رجع قبلنا وان ابى أعتزلنا. فقال مروان : قد والله كلمته في هذا الامر غير مرة فلم يجبني الى شيء مما احب بل يظهر لي التعتب والتغضب ويزعم اني في هذا الامر اوحد . فقال له سعيد بن العاص : يامروان ، بل والله تحامي على عهدك . فقال مروان : والله لصلاحكم في فساد عهدي أحب الي من فسادكم في صلاح عهدي فاتوه فانه رجل له أرب ونظر فكلموه بملء افواهكم » .

قال : فانطلق القوم فأستأذنوا على معاوية . فأذن لهم ، فسلموا فاحسن الرد وكان فيما قال : اهلا وسهلا ، قرب الله الديار وادنى المزار ، ازيارة فتحظى؟ أم حاجة فتقضى ؟ أم سخطة فترضى ؟ فقالوا : كلا يا أمير المؤمنين . قال : هاتوا فجلس القوم ومثل عبد الرحمن بن الحكم (أخو مروان الشاعر المشهور) بين يديه فقال ، واكثر القول من فصيح الكلام وبليغه ، ومما قاله : «يا أميرالمؤمنين ، جاءتك عصابة من رهطك واحرار من اسرتك ، كلهم عارف بفضلك راع لحقك ، تابع لامرك ، رافع لذكرك ،في امر ستره خير من نشره ، وتركه خير من ذكره لعظم البلية والخطيئة واللأواء والبلوى والآفات والعاهات ، وأعلم أنا لم نأتك تجنيا ولا تجرما ولا تعتبا ، بل جئناك في امر قد عجزت عن حمله الجنوب وضاقت به القلوب وكرهنا ان نطويه عنك فيثبت ذلك في قلوبنا ما لا يحصد لابانه ولا يبيد لزمانه، فان تأذن قبلنا وان تأب صمتنا مع انك ان رجعت الى مانحب حمدناوشكرنا وان تأب ذلك سمعنا واطعنا ، فقال معاوية: هات لله ابوك . قال : يا أمير المؤمنين ان أمية بن عبد شمس ولد عشرة ذكور، ولد حربا وأبا حرب وسفيان وأبا سفيان ، وعمرو وأبا عمرو والعاص وأبا العاص ، والعيص وأبا العيص ، لم يلد عبيدا عبد ثقيف ، ولا العاص بن وائل ، وقد جعلتهما شعارك دون دثارك بل سربالك دون ازارك ، بل نفسك بين جنبيك . ثم لم ترض لابن عبيد حتى جعلته ابن ابي سفيان عضيهة لابيك ، وازدراء ببنيك . مع ان في ذلك السخطة من ربك، والمخالفة لنبيك (صلعم) اذ قضى بالولد بالفراش وللعاهر الحجر . واسترسل هكذا . ثم تكلم عن عمرو بن العاص ومما قاله « فانك الزمت نفسك الحاجة اليه فألزم نفسه الغنى عنك وايم الله لنحن انصح جيوبا وأقل عيوبا ، وامس رحما واوجب حقا منه .. ثم قام سعيد ابن العاص وتكلم بنفس الروح واللهجة ومما قاله في زياد .. «وانظر ما الذي اقدمت عليه

من انك عمدت الى امرىء لارحم بينك وبينه ولاهوادة ، وانما عهدك بهبالامس وهو عامل علي بن ابي طالب يلعنك ويلعن اباك واهل بيتك على المنبر يتأول فينا القران والبهتان ، وقد كنت تختزي من ذلك اذا عظمته ان تجعله وزيرا . فلم ترض حتى نسبته الى ابي سفيان الى نسب.. وايم الله لكأني انظر الىولده من بعده قد تفخذوا نساء بني عبد شمس بنسب ابي سفيان ، فهذا ماوصلت به كرائمك من بعدك .واما عمرو بن العاص فقد اثرته علينا وادنيتهدوننا ونحن في حال وعمرو في اخرى ، اما نحن فنعامل الناس بالوفاء والحياءوعمرو يعامل الناس بالمكر والخداع ، ومن كان كذلك فلا وفاء له ، وقد تبين لامير المؤمنين غشه اياه .. ثم دخل مروان عند جلوس القوم، فقال معاوية : هيه يا مروان ، اعنرايك صدر هؤلاء حتىاسمعوني ما اكره ؟فردمروان على معاوية ردا يكشف جوهر القضية وهو الخلافبين بيتابي العاص وبيتالحرب. ومما قاله مروان.. « أعلم انا غير متعرضين لشيء من معاتبتك فان ترجع قبلنا وانتأب سخطنا مع انك والله ياامير المؤمنين **لو قدرت ان تتكثر بالذبح على ال ابي العاص لفعلت توحشا منك لعددهم وتكرها منك لجمعهم وتبرما منك بهم** . وايم الله ماذاك جزائهممنك ، لقداثروك واكرموك فما كافيت ولا جازيت ولا اسيت» . ثم جلسمروان وقام معاوية فدخل المنزل واطال المكث — ويبدو لي انه اجتمع مع عمرو بن العاص الذي كان حاضرا وتبادل معه الراي واتفقا على الرد على القوم وتقاسم الدور بينهما — ثم خرج معاوية قاطبا مابين عينيه يمسح عارضيه ، ثم جلس على سريره واستقبلالقوم وكان رده يتركز على امرين هامين بالنسبة لنا ، الاول قوله : « وايم الله .. ما لي نظرتم ، بل ادركتم الحسد القديم لبني حرب بن امية » . والامر الثاني : « انكم ذكرتم اني اصبت السلطات والملك بحقكم ونسبكم فواللهانكم لتعلمون يا آل ابيالعاصان عثمان ابن عفان — رحمة الله عليه — قتل وانتم حضور وانا غائب ، فوالله ماكان فيكممن مد باعا ولابسط ذراعا ، بل اسلمتموه للحتوف .. حتى كنت انا الطالب بالتراث ، ولقد منيتفي الطلب بدمه بحرب امرىء لاتخوقناته ولاتنصدع صفاته .. فلم ازل له ولاصحابه صابرا حتى قضى الله من ذلك ما أحب... فأدركت في الثار اذ لم تدركوا.. وصبرت اذ لم تصبروا فأينا احق بالشكر انا لكم اما انتم لي ؟

وأما عمرو بن العاص فهاهو حاضر فان شاء ان يجيب عن نفسه فليفعل ، ثم سكت ، فقام عمرو بن العاص فرد ردا ذاد به عن نفسه وابرز دوره . ثم وقف وطلب من امير المؤمنين : «انا اسألك يا أمير المؤمنين ان تعفوا للقوم ما قالوا ان هم آلو لاستتمام نعمتك عليهم واياديك عندهم ، فليسوا راجعين الى ما تكرهه ان شاء الله . فقال معاوية : قد فعلت يا أبا عبد الله ، ودخل وامر القوم فانصرفوا »(٨) .

هذا الموقف لبني امية جميعا يدل بوضوح انهم يرون ان الملك انما هو ملك اموي

ويجب ان يبقى كذلك ، وانهم لايريدون اشراك شخصيات بارزة من خارج البيت الاموي في السلطة ، ومع هذا كله هم لا يريدون لمعاوية أن يقوي بيت أبي سفيان على حساب البيت الاموي الكبير وان يبقي الزعامة فيه. لذا نرى ان التنافس بين البيوتات الاموية الكبرى شديد ما بين ال ابي العاص . ويمثلهم مروان بن الحكم . وبيت ال ابي سفيان ويمثلهم معاوية وال العاص ويمثلهم سعيد بن العاص . وكثيرا ماكان معاوية يحذر بني امية مغبة هذا الخلاف وهذا التنافس ويود ان يجمعهم تحت جناحه خوفا ان يبرح هذا الامر ــ الخلافة ــ عنهم ، « لأخبرنكم عني يا بني امية . لن يبرح هذا الامر فيكم ، ما عظمتم ملوككم فاذا تمناها كل امرىء منكم لنفسه وثب بنو عبد المطلب في اقطارها وقال الناس : ال رسول الله فكانت فيكم كحجر المنجنيق يذهب امامه ولا يرجع وراءه »(٩) .

لم يرتح معاوية الى وجود التفاهم بين بيتي ابي العاص والعاص الذين غالبيتهم كانوا يعيشون حتى ذاك الوقت في المدينة المنورة . لهذا لم يرق له هذا اللقاء بينهم فقد حاول ان يثير التناحر بين فروع الاسرة الاموية لكي يضعف بذلك قوتهم واجتماعهم وبالتالي يمنع وحدتهم ضده . فيذكر البلاذري ان معاوية كان يغرى بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم بن ابي العاص فكتب مرة الى سعيد بن العاص وهو انذاك عامله على المدينة، يأمره بهدم دار مروان ولكن سعيدا لم يفعل بما أمر به . فاعاد الامر عليه فلم يفعل . في حين لما ولي مروان بن الحكم المدينة كتب اليه معاوية بهدم دار سعيد فارسل مروان الفعلة وركب ليهدمها . فقال له سعيد : يا أبا عبد الملك : اتهدم داري ؟ قال : كتب امير المؤمنين الي في هدمها . فبعث سعيد فجاء بكتاب معاوية اليه في هدم دار مروان فقال مروان : يا أبا عثمان كتب اليك بهذه الكتب فلم تعلمني ؟ قال ما كنت لامرر عليك عيشك وانما اراد ان يغرى بيننا . فقال مروان : فداك ابي وأمي فانك اكرمنا ريشا وعقبا . وامسك عن هدم داره(١٠) . وقد جاءت هذه الرواية عند الطبري ان معاوية كان يغري بين مروان وسعيد بن العاص وانه طلب من سعيد زيادة على هدم دار مروان ان يقبض اموال مروان كلها فيجعلها صوافي ، وان يقبض فدك منه ــ وكان وهبها له ــ فلما عزل سعيد عن المدينة ووليها مروان بعده امره معاوية « ان يقبض اموال سعيد بن العاص بالحجاز » وحين هم مروان بتنفيذ امر الخليفة يأتيه سعيد بالكتب المرسلة اليه من معاوية ــ وكان قد حفظها كما يذكر الطبري عند جارية له ــ وينكشف الامر لمروان فيقول : « كان سعيد اوصل لنا منا له » . أما سعيد فقد كتب لمعاوية بن ابي سفيان معاتبا : العجب مما صنع امير المؤمنين بنا في قرابتنا ان يضغن بعضنا على بعض .. فأمير المؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره الاجنبيين وعفوه وادخاله القطيعة بيننا والشحناء وتوارث

الاولاد ذلك ، فوالله لو لم نكن من بني اب واحد الا بما جمعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم ، واجتماع كلمتنا لكان حقا علينا ان نرعى ذلك ، والذي ادركنا به خير » ، فكتب اليه معاوية يتنصل من ذلك ، وانه عائد الى احسن ما يعهده(١١) .

من هذه الروايات نتحسس صدق وصفاء سعيد بن العاص في حين يتبين لنا واقعية مروان . ونعجب أكثر لصفاء طوية سعيد من حديث جاء في البيان والتبيين كان دار بين سعيد بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان . قال الجاحظ : قدم سعيد بن العاص على معاوية فقال معاوية : كيف تركت ابا عبد الملك ؟ فقال : منفذا لامرك ضابطا لعملك فقال له معاوية : انما هو كصاحب الخبزة كفى انضاجها فأكلها . فقال سعيد : كلا انه بين قوم يتهادون فيما بينهم كلاما كوقع النبل . سهما لك وسهما عليك . قال : فما باعد بينه وبينك ؟ فقال : خفته على شرفي وخافني على مثله . قال فأي شيء كان له عندك في ذلك ؟ فقال : اسوءه حاضرا واسره غائبا . قال : يا ابا عثمان . تركتنا في هذه الحروب ، قال : نعم تحملت الثقل وكفيت الحزم ، وكنت قريبا لو دعيت لاجبت ولو امرت لاطعت . فقال معاوية : ياأهل الشام هؤلاء قومي وهذا كلامهم(١٢) . من هنا نرى ان معاوية بن ابي سفيان كان مدركا لوضع مروان بن الحكم المميز في المدينة المنورة فهو يتخوف من نفوذه وقوته . وان هذه القوة ستزداد الى الدرجة التي تهدد مصلحته ومصلحة ولده يزيد ، فهو يوليه حينا ويعزله اخر ، ويوقع بينه وبين قومه ويوغر بينهم الشحناء ، ومروان بدوره مدرك لهذا الذي يجري واع لما يخطط الخليفة في الشام ، فهو يستغل مكانته المميزة هذه وقرابته من الخليفة المغدور وبلائه في الفتح ، كل ذلك الى جانب شخصيته القوية ، حيث تذكر المصادر ان مروان كان لبقا فصيح اللسان سبابا ، يعالج الشعر ، وانه كان من خطباء قريش .. وقد لقب بخيط باطل لطول عنقه وقد بنى مروان في المدينة المنورة دارا واسعة اشتهر ذكرها كانت ملتقى الناس ووجوه القوم(١٣) . ويذكر ابن سعد في طبقاته ان مروان بن الحكم في ولايته على المدينة كان يجمع اصحاب رسول الله ويستشيرهم ويعمل بما يجمعون عليه(١٤) . وقد اتى مروان مسلم بن عقبة المري بعد قعة الحرة .. بعلي بن الحسين يطلب له الامان بعد ان استجار علي به وبولده عبد الملك(١٥) .

من هذه الاحداث وهذه الفعاليات تتكون لدينا صورة تكاد تكون واضحة عن مروان بن الحكم هذا الرجل القوي المتنفذ في بيته والذي يعمل بدقة وتؤدة ضمن خطة واضحة يسعى لتنفيذها بكل ما اوتي من قوة وبراعة ، فهو ابن عم أمير المؤمنين عثمان . وقد امر مرات ونزع مرات ، كل ذلك لا يسخط ولا يخالف ولا يعزل عن خيانة .

ومروان بدوره يكيل لمعاوية بن ابي سفيان بنفس الصاع الذي كان رجل بني حرب

يكين له فيها فهو يغرى ابناء عثمان ويحرضهم على معاوية ويقول لهم ان الرجل لم يأخذ الامر الا باسمكم واسم ابيكم . يذكر مصعب الزبيري في كتابه (نسب قريش) ان مروان بن الحكم قال لعمرو بن عثمان بن عفان وهو اكبر بني عثمان «ما اخذ هؤلاء ـ يعني بني حرب بن امية ـ الخلافة الا باسم ابيك ، فما يمنعك ان تنهض بحقك فنحن اكثر منهم رجالا » .. وعدد رجالهم ، ثم اضاف « ومنا فلان وهو فضل وفلان وهو فضل ، فعدد فضول رجال ابي العاص على رجال بني حرب »(١٧) .

وتكتمل الصورة حين نعلم ان احدى بنات معاوية بن ابي سفيان واسمها رملة كانت زوجا لعمرو بن عثمان وكان لها منه ولدان ، ومرة طلب معاوية من مروان حين رده اميرا على المدينة ان يرسل ابنته هذه كي تزوره ، ويظهر ان معاوية اراد عن طريق ابنته ان يتحسس ويستشف ما في نفوس القوم ، فحين جاءت ابنته لزيارته سألها : « يابنية كيف رضاك عن عمرو بن عثمان زوجك؟ قالت : والله ما يزال بنو العاص يتكثرون علينا بعددهم حتى لوددت ان ابني هذين منهم في البحر ، قال : يابنية ان هذا منك كبير ونحن كنا اشتى بمناوءة الرجل من ان تكوني رجلا »(١٨) .

ويبرز لنا ولد اخر من ابناء الخليفة عثمان لينافس بني حرب في الخلافة ، ـ هو سعيد بن عثمان الذي يصفه صاحب كتاب (الامامة) ، «بشيطان قريش ولسانها»(١٩) فبعد ان عهد معاوية لابنه يزيد بالخلافة كما هو معروف يغضب لذلك سعيد بن عثمان اشد الغضب ويأخذ ببث الدعاية لنفسه في المدينة المنورة حتى ان البلاذري يروي لنا ان صبيان اهل المدينة وعبيدهم ونسائهم اخذوا يهزجون .

والله لا ينالها يزيد حتى ينال رأسه الحديد
ان الامير بعده سعيد

ـ اي بعد معاوية ـ وحين قدم سعيد بن عثمان على معاوية قال له معاوية : يا ابن اخي ما شيء بلغني يقوله اهل المدينة ؟ قال : وما تنكر من ذلك يا معاوية ، والله ان ابي لخير من أبي يزيد وان امي لخير من امه * واني لخير منه ، ولقد استعملناك فما عزلناك ووصلناك فما قطعناك ، وصار امرنا في يدك فحلأتنا منه اجمع . فقال معاوية : قد صدقت في قولك ان اباك خير مني ، وان امك خير من امه ، لان امك من قريش وامه امرأة من كلب . واما قولك انك خير منه فوالله ما يسرني ان بيني وبين العراق حبلا نظم

---

* أم سعيد هي فاطمة أم عبد الله بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزومي . البلاذري (انساب ج ٥ ص ٦١٥ ـ ٦١٦) .

فيه امثالك . ثم قال له الحق بعمك زياد فقد امرته ان يوليك خراسان(٢٠) . ويقال ان يزيد بن معاوية نفسه حث والده على اكرام سعيد لاسكاته ، وفعلا ولي سعيد خراسان وفتح سمرقند انذاك وقد اصيبت احدى عينيه اثناء الفتح .. ولكن معاوية خاف ان تقوى شوكته فيطلب الخلافة فعزله ، ورجع الى المدينة حيث مات فيها قتيلا . على يد غلمان له(٢١) .

لم يكتف مروان بتشجيع اولاد عثمان وحثهم للتحرك ضد معاوية وضد بيعته لولده يزيد ، بل اننا نتحسس بعمق ان الدعاية المروانية اخذت تروج لاحاديث تنسب للرسول عليه السلام ،احاديث على الارجح انها موضوعة وربما متأخرة، مفادها ان الخلافة سوف تؤول الى اولاد الحكم بن ابي العاص . ومن هذه الاحاديث ما جاء في كتاب (الامتاع والمؤانسة) للتوحيدي ، قال : « حدثني الحكم بن هشام الثقفي قال : مات عبيد الله بن جحش عن ام حبيبة بنت ابي سفيان . وكانت بأرض الحبشة ، فخطبها النبي (صلعم) الى النجاشي فدعا بالقرشيين فقال : من أولاكم بأمر هذه المرأة ؟ فقال خالد بن سعيد بن العاص : أنا اولاهم بها ، قال : فزوج نبيكم ، قال : فزوجه ومهر عنه اربعمائة دينار ، فكانت اول امرأة مهرت اربعمائة دينار ثم حملت الى النبي (صلعم) ومعها الحكم بن ابي العاص فجعل النبي يكثر النظر اليه ، فقيل له : يارسول الله ، انك لتكثر النظر الى هذا الشاب ، قال : اليس ابن المخزومية ، قالوا ، بلى ، قال : اذا بلغ بنو هذا اربعين رجلا كان الامر فيهم(٢٢) . وروى عن الرسول انه قال في الحكم « كأني ببنيه يصعدون منبري وينزلون »(٢٣) .

وكان مروان اذا جرى بينه وبين معاوية كلام — مشادة — قال لمعاوية : « والله اني (لابو) عشرة واخو عشرة وعم عشرة وما بقي الا عشرة حتى يكون الامر في . فيقول معاوية بن أبي سفيان اخذها والله من عين صافية »(٢٤) .

ويذكر ابن عساكر رواية على لسان معاوية مفادها ان معاوية قد أجاب حين سئل لمن هذا الامر من بعدك يا امير المؤمنين ؟ فأجاب معاوية بعد ان استعرض اولاد الصحابة من أشراف قريش وحين يأتي الدور ايذكر مروان ابن الحكم يقول فيه: « اما القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله الشديد في حدود الله فمروان بن الحكم » ويذكر هذا المعنى الزبيري والبلاذري وغيرهما(٢٥) . ويزيد عليهم ابن كثير فيقول : « ان الحسن والحسين كانا يصليان خلف مروان(٢٦) » وليس في هذا غرابة اذ ان مروان كان امير المدينة .

نحن نعلم ان معاوية بن ابي سفيان قد سعى السعي كله لكي يعد ولده يزيد

ليتولى الخلافة من بعده ، انطلاقا من قناعته ان في هذا مصلحة بيته ومصلحة جميع المسلمين . وقد سلك كل طريق لتوصله الى هذه الغاية ....ونحن نعلم أيضا ان عددا من خلصاء معاوية ومعاونيه امثال المغيرة بن شعبة والضحاك بن قيس قد وقفوا الى جانب معاوية ينصرونه في هدفه هذا وقد ساعدوه كل المساعدة لتحقيقه. وكان طبيعيا ان يكون رد ابناء الصحابة الاولين وابناء الخلفاء السابقين . امثال الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابي بكر ، ان يكون الرفض وعدم الموافقة ، وموقفهم هذا معروف جيدا ، تحدثت فيه كتب التاريخ قديمها وحديثها ، ولكن موضوع حديثنا هو : ترى ما هو موقف مروان بن الحكم بالذات من هذه القضية وكيف كانت ردة الفعل عنده ؟

لاشك ان مروان بن الحكم كان بينه وبين نفسه يقر لمعاوية بالخلافة وبأنه كان الرجل الكفؤ الذي قام بالامر بعد مقتل الخليفة عثمان وان الظروف الموضوعية التي احاطت بمعاوية من امرته في بلاد الشام لمدة طويلة اعطت الرجل الارض الصلدة التي استطاع الوقوف عليها بقوة وان ينطلق منها ليتصدى لرجل من اعظم رجال الاسلام وابرز القرشيين نسبا وشجاعة ، وكما يقول معاوية نفسه « ولقد منيت في الطلب بدمه (دم عثمان) بحرب امرىء (هو الامام علي) لا تخور قناته ولا تتصدع صفاته . من ان فزعت لم يفزع وان اطمعت لم يطمع من لا يطمع في قراره ، ولا ينام في حذاره، بليت — والله — بليث ثابتة انيابه . قليل غلابه . مصمم غضوب . شثن مهيب(٢٧)» لذا فمروان يقر لمعاوية بالخلافة ويوليه نصحه ويضع نفسه في خدمة حكمه الذي يرى فيه مروان قبل كل شيء حكما امويا . كل هذا يبدو منطقيا وصحيحا ولكن ، أن ينقل معاوية الخلافة من بعده لولده يزيد فهذا ما لا يقره مروان ولا ينصاع اليه ابن الحكم ، وخير صورة لردة الفعل عنده على بيعة يزيد نجدها في كتاب (الامامة والسياسة) اذ يذكر صاحب الكتاب ان مروان خاطب معاوية قائلا : « جئتم بها هرقلية ، تبايعون لابنائكم(٢٨) » ويرد تفصيل هذا في الكتاب نفسه (الامامة والسياسة) فيقول المؤلف « بايع معاوية ليزيد بعد وفاة الحسن رضي الله عنه في الشام وكتب ببيعته الى الافاق وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم . فكتب اليه يأمره بجمع من قبله من قريش وغيرهم من اهل المدينة ثم ليبايع يزيد بن معاوية قال : فلما قرأ مروان كتاب معاوية ابى من ذلك وابته قريش ، فكتب الى معاوية : ان قومك قد ابوا اجابتك الى بيعتك لابنك فرأيك . فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف ان ذلك من قبله . فكتب يأمره ان يعتزل عمله ويخبره ان قد ولى المدينة سعيد بن العاص(٢٩) . هذه ردة الفعل عند الرجلين مروان يرفض ومعاوية يعزل مروان عن ولاية المدينة وهذا الامر متوقع جدا ، فقد جاء في كتاب (الامامة

والسياسة) المنسوب لابن قتيبة شرح واف لردة الفعل هذه عند مروان بعد عزله هذه المرة ، فيقول : « لما بلغ مروان كتاب معاوية بعزله ، اقبل مغاضبا في اهل بيته وناس كثير من قومه حتى نزل باخواله من بني كنانة . فشكا اليهم واخبرهم بالذي كان من رأي معاوية . في عزله واستخلافه من غير مشورة مبادرة له . فقالوا : نحن نبلك في قربك ، وسيفك في يدك ، فمن رميته بنا اصبناه ، ومن ضربته بنا قطعناه . الرأي رأيك ونحن طوع يمينك . ثم اقبل مروان في وفد منهم كثير ومن كان معه من قومه واهل بيته حتى نزل دمشق . فخرج فيهم حتى اتى سدة معاوية وقد اذن للناس . فلما نظر الحاجب الى مروان ، والى كثرة من معه من قومه واهل بيته منعه من الدخول فوثبوا اليه فضربوا وجهه حتى خلى عن الباب . ثم دخل مروان ودخلوا معه حتى اذا كان من معاوية بحيث تناله يده ، قال بعد التسليم عليه بالخلافة ، « اقم الامر يا ابن ابي سفيان واهدىء من **تأميرك الصبيان** ، واعلم ان لك في قومك نظرا وان لهم على مناوءتك وزرا » فغضب معاوية من كلامه غضبا شديدا ثم كظم غيظه بحلمه . واخذ بيد مروان ثم قال : ان الله قد جعل لكل شيء اصلا وجعل لكل خير اهلا ثم جعلك في الكرم مني محتدا ، والعزيز مني والدا ... فانت ابن ينابيع الكرم فمرحبا بك واهلا ابن عم .. وقد اصبحنا في امور مستحيرة ذات وجوه مستديرة . وبك والله يا ابن العم نرجوا استقامة اودها ... فانت نظير امير المؤمنين بعده . وفي كل شدة عضده . **واليك عهد عهده** ، فقد وليتك قومك واعظمنا في الخراج سهمك وانا مجيز وفدك ، وعلى امير المؤمنين عناك والنزول عند رضاك . « فكان أول من رزق الف دينار في كل هلال . وفرض له في أهل بيته مئة مئة »(٣٠) .

ويلخص لنا المقدسي في كتاب البدء والتاريخ موقف مروان هذا بسطور قليلة اذ يقول « بعد اخذ البيعة ليزيد ، كتب (معاوية) الى مروان بن الحكم بأخذ بيعة أهل المدينة ليزيد ـ عليه اللعنة ـ ، **فغضب مروان اذ لم يجعل اليه الامر** ، فسار الى الشام فكلمه ، **وجعله ولي عهد يزيد بعده** ورده الى المدينة(٣١) . يظهر ان مروان قد قبل الامر الواقع وقبل بهذه الترضية ، اذ ادرك بحنكته السياسية ان المصاعب التي سوف يواجهها يزيد كثيرة ومعقدة وصعبة ، واحس ان اي تحرك من جانبه وجانب الامويين في المدينة سوف يربكه وان نتائجه لن تكون في صالح البيت الاموي عموما ولا في صالحه خصوصا . بل يبدو أن الامر ربما سيخرج من ايديهم ، لذا نرى مروان مرة ثانية يقف موقف الناصح لبيت آل حرب . صحيح ان علاقة مروان بن الحكم مع والي يزيد على المدينة المنورة الوليد بن عتبة السفياني كانت قد تميزت بالجفاء وعدم الود ، وكان مروان لا يأتي الا « معذرا متكارها » حتى ان الوليد شتمه

في مجلسه ، وذلك مرده الظاهر هو اختلاف وجهات النظر بين الرجلين خاصة بالنسبة لمعاملة الحسين بن علي ، اذ تميزت علاقة الوليد بالحسين بالتسامح ، ولكن يبدو لنا ان التنافس والتنافر بين الرجلين هو بالحقيقة انعكاس التنافس بين البيتين الامويين اللذين يمثلاهما(٣٢) .

وعند انتفاضة اهل المدينة ضد يزيد واخراج بني امية قسرا منها واخذ الوعد منهم الا يعودوا اليها مع جيش الشام القادم اليهم ، نجد مروان لا يلتفت الى العهد الذي قطع لاهل المدينة بل يقف مع يزيد ومع قائده مسلم بن عقبة يساعده ويرشده ، ويرجع مع جيش الشام ويصيح قائلا : « انا والله ماض مع مسلم الى المدينة فمدرك ثأري من عدوي وممن اخرجني من بيتي وفرق بيني وبين اهلي(٣٣) » وقد شكر مسلم بن عقبة لمروان موقفه هذا برسالة بعث بها ليزيد بن معاوية جاء فيها « فرجع معنا ... مروان بن الحكم فكان لنا عونا على عدونا ، وكان اكرم الله امير المؤمنين من محمود مقام مروان وجميل مشهده وشديد بأسه وعظيم نكايته لعدو امير المؤمنين ما لا اخال ذلك ضائعا عند امام المسلمين »(٣٤) . يتميز سلوك مروان بن الحكم بعد معركة الحرة بانه كان شفيعا لكثير من وجوه اهل المدينة لدى مسلم بن عقبة ، الذي اطلق عليه البعض لقب مسرف بسبب قسوته على اهل المدينة ، ولكن هذا لم يمنع اخراج مروان ثانية من المدينة ، والمصادر هنا تختلف والاخبار تضطرب ، في سبب خروج مروان من المدينة وزمانه ، فبعضها يقول ان يزيد بن ابي سفيان طلبه الى الشام وبعضها يذهب في ان ابن الزبير طلب الى عامله على المدينة عبد الله بن حنظلة الغسيل ان يخرجه مع بقية بني امية الى الشام . المهم ان مروان ابن الحكم يخرج الى الشام ويرى كثير من المؤرخين القدامى وتبعهم في ذلك المحدثون ان اخراج مروان هذا الى الشام كان السبب البعيد في وصوله الى الخلافة . اذ لو بقي في الحجاز لما عرفه الشوام ولما بايعوه . « انما بعثت عليك ـ ابن الزبير ـ افاعي لا يبل سليمها أمثل مروان وبني امية يشخصون الى الشام .. »(٣٥).

توفي يزيد بن معاوية في قرية حوارين من اعمال حمص سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م وذلك يوم الاثنين لاربع عشر ليلة خلت من ربيع الاول ونقل ودفن في دمشق حيث صلى عليه ابنه معاوية . وكان يزيد قد لجأ الى المبايعة المبكرة لاكبر ابنائه معاوية ابن يزيد(٣٦) .

لا شك ان موت يزيد قد خلق موقفا صعبا جدا للخلافة الاموية اذ قد ظفر ابن الزبير بمبايعة اهل الحجاز والعراق واليمن ومصر وولى عليها عمالا من قبله ،مع ان

نفوذه لم يكن يتعدى مكة طيلة حياة يزيد ، لذلك نرى ان ابن الزبير قد دعا لنفسه بالخلافة واتخذ لقب امير المؤمنين وكان قبل ذلك يدعو الى الشورى(٣٧) ، وزاد الامر صعوبة ان معاوية بن يزيد الذي تولى الخلافة بعد ابيه توفي هو الاخر بعد حكم قصير جدا ، وقيل انه تنازل عن الخلافة قبل موته(٣٨) .

وهنا يجدر بنا ان نقف وقفة طويلة ندرس فيها شخصية معاوية بن يزيد وما احاط بموته المبكر من احداث ، ولنتأمل في امر تنازله المشكوك فيه عن الخلافة ، ومن ثم نسأل انفسنا اين يقف مروان من كل هذا ؟ بكل بساطة نرى ان المروانيين الذين اخرجوا السفيانيين عن الخلافة ظلما وعدوانا هم الذين روجوا لدعايات اذاعوها بين الناس لتبرير وصولهم الى الحكم والى الخلافة .

ان اهم النقاط التي تصر عليها الدعاية المروانية وتذكرها مختلف الروايات في المصادرالتي وصلتنا هي :

اولا : ان معاوية الثاني كان رجلا ضعيفا « قد نظرت في أمركم فضعفت عنه »(٣٩) . يقف مروان بن الحكم نفسه على قبر معاوية ويقول : « اتدرون من دفنتم ؟ قالوا : نعم معاوية بن يزيد ، قال : بل دفنتم أبا ليلى ، يستضعفه » .

ثانيا : انه تنازل عن الخلافة بسبب هذا الضعف « فانتم أولى بأمركم فاختاروا له من احببتم » ، و « مات يزيد بن معاوية وبويع لابنه معاوية وهو أبو ليلى ، فنادى الصلاة جامعة ثم تبرأ من الخلافة وجلس في بيته » . هكذا بكل بساطة يضع البلاذري القضية(٤٠) .

ويقول المسعودي : « مات ابن يزيد ويكنى ابا عبد الرحمن وانما كني ابا ليلى تقريعا له لعجزه عن القيام بالامر ، وكانت العرب تفعل ذلك بالعاجز من الرجال»(٤١) .

ثالثا : ان معاوية الثاني لم يكتف بالتنازل عن الخلافة بل انه اصر أن لا يوصي لاحد بعده ، وان بني سفيان قد نالهم نصيبهم منها ، « فلما أدركته الوفاة قيل له اوص واستخلف قال : والله ما ذقت حلاوتها واصلى بمرارتها .. ان يكن خيرا فقد استكثر منه آل سفيان — لم يقل أمية — وان لم يكن غير ذلك فوالله ما أحب ان أزودهم الدنيا وأذهب بوزرها الى الآخرة(٤٢) » .

ويذكر الذهبي « قالوا له الا تستخلف فامتنع ، فلما احتضر معاوية قيل له لو بايعت لاخيك خالد بن يزيد فانه اخيك لابيك وامك فقال : سبحان الله كفيتها حياتي وأتقلدها بعد موتي(٤٣) » .

هذا مضمون الروايات التي وردت بأكثر المصادر ـ وقد تعرضنا لمجمل منها فيما سبق من الكلام ـ والتي تناقلها كثير من العلماء والمؤرخين المحدثين ، والتي كما قلنا تبرر ازالة المروانيين للفرع السفياني عن الخلافة واخذها بالسيف والعدد والجبروت :.

وللرد على الدعاية المروانية ومرتكزاتها السابقة تقول : **ان معاوية بن يزيد لم يكن بالرجل الضعيف** وليس صحيحا انه لايستطيع القيام بواجبات الخلافة والمسؤوليات المترتبة عليه ، والحقيقة عكس ذلك . ان ترشيح معاوية الثاني لولاية العهد وان يخلف والده جاء بعد امعان النظر والدرس من قبل والده وبعد أن استشار الخليفة يزيد في هذا الامر الكبير كثيرا من خلصائه . . .

ثم أن يزيد بعد اختياره معاوية خلفا له اخذ يهيء ولده لهذا الامر ويعده له اعدادا سليما ، وقد اذاع أمر ولايته للعهد في الافاق وبين المسلمين قبيل وفاته ، ويذكر ابن سعد في طبقاته « كان (يزيد) عقد لابنه معاوية للعهد بعده ، فبايع له الناس واتته بيعة الافاق ، الا ماكان من ابن الزبير » ، « لما استخلف معاوية بن يزيد وجمع عمال ابيه وبويع له بدمشق »(٤٤) .

قال الشاعر علي بن الغدير الغنوي ، يحث يزيدا على مبايعة ولده معاوية :

يزيد يا ابن ابي سفيان هل لكم
الى سناء ومجد غير منصرم
اعزم عزيمة امر غبه رشد
قبل الوفاة وقطع قالة الكم
ان الخلافة ان **تثبت لثالثكم**
تثبت اواخيها فيكم فلا ترم(٤٥)

فلم تزل في نفس يزيد حتى بايع لابنه معاوية ، « **فكان أصلح فتيان بني أمية** ، وكان يزيد لما عقد لابنه معاوية ، الزمه الفقهاء والرواة وصرف اليه وفود العرب(٤٦) » ويؤكد البلاذري أن يزيد ولى معاوية عهده في صحته(٤٧) . ونفهم من كتاب « الامامة والسياسة » أن يزيد بن معاوية كان يجتمع مع ولده معاوية ويشاوره في أمور الدولة الكبيرة فيذكر لنا صاحب كتاب « الامامة » عن جلسة اجتمع فيها معاوية مع أبيه يزيد بعد وقوع معركة الحرّه ، وينقل تعليقات لمعاوية على الاحداث المؤثرة فيقول : « انما قتلنا بهم ـ قتلى المدينة ـ انفسنا » فيرد يزيد : « هو ذاك قتلت بهم نفسي وشفيتها(٤٨) » وتمضي المصادر في تعداد صفات معاوية بن يزيد الحميدة والتي في

مجملها لايمكن بأية حال تفسيرها بانه رجل ضعيف وشاب خامل واه ، يتنازل عن حقه الذي ورثه عن أبيه وجده في الخلافة وفي قيادة المسلمين . « وكان (معاوية) شابا مليحا ابيض فيه خير وصلاح »(٤٩) . وجاء في النقائض « ما رأينا شابا أصح وجها ولا افصح لسانا ولا احد قامة من معاوية بن يزيد بن معاوية »(٥٠) . وهكذا يعتلي عرش الخلافة شاب هو من اصلح فتيان بني امية ، لسنا فصيحا قد لزم الفقهاء والرواة ويتم في بلاطه كل مراسم الخلافة ومظاهرها ، فقد كتب له زمل بن عمـرو العذري وسليمان بن سعيد الخشني وسرجون بن منصور النصراني وكان نقش خاتمه « بالله ثقة معاوية ، وقاضيه ابو ادريس الخولاني وحاجبه صفوان مولاه »(٥١) .

وتذكر بعض المصادر اكثر من ذلك ، تذكر ميزة خاصة في معاوية الثاني عـن غيره فتقول : « ان معاوية بن يزيد كان له مذهب جميل »(٥٢) ويفصح لنا ابن العبري عن مذهب معاوية هذا فيقول : « لما مات يزيد صار الامر الى ولده معاوية ، وكـان قدريا » ويذكر ابن العبري في نفس الرواية اسم معلمه لهذا المذهب فيقول : « لان عمر المقصوص كان علمه ذلك فدان به وتحققه »(٥٣) . ومما يدل على فاعلية معاوية بن يزيد وقوة شخصيته انه جاء الخلافة وفي ذهنه برنامج واسع للاصلاح ، فما ان تولى الامر حتى أسقط ثلث الخراج عن جميع امصار مملكته(٥٤) . اذن نحن امـام شاب قوي سوي جاء الخلافة وفي ذهنه برنامج بود تطبيقه ويصدر عن مذهب جميل في حكمه ، ولكن قصر مدة خلافته لاتسمح لنا بالحكم عليه حكما موضوعيا واضحا ، ولاشك أن الخليفة معاوية بن يزيد قد واجه صعوبات جمة ودسائس كثيرة منـذ اللحظة التي تسلم فيها امور الخلافة ، وكان هو نفسه بالتالي ضحية لها !.

ان أقصى مدة لخلافة معاوية الثاني تذكرها المصادر اربعة اشهر والغالبيـة العظمى منها تقول بثلاثة اشهر ، توفي بعدها معاوية بن يزيد(٥٥) . ولكن السؤال هو كيف كان موته ؟ تختلف الروايات هنا اختلافا شديدا ، فالطبري يذكر « بعـد تنازله ـ الذي نشك فيه ـ لزم بيته وتغيب حتى مات » وفي مكان آخر يقول : « دس اليه فسقى سما »(٥٦) . ويذكر ابن الاثير : يقال انه سقي سما(٥٧) . وجاء في « البداية والنهاية » انه عزم ان يبايع لابن الزبير (كذا) وانه سقى سما . . ويقال انه طعن(٥٨). وفي أنساب الاشراف جاء انه بعد أن تنازل في خطبته . . اغلق بابه وتمارض فلـم ينظر في شيء حتى مات ، وصلى حسان بن بحدل بالناس وهم منكرون لامرهم »(٥٩).

ويجمل المسعودي الروايات السابقة فيذكر في مروج الذهب « وقد تنوزع في سبب وفاته فمنهم من راى انه سقي شربة ومنهم من راى انه مات حتف انفه ومنهم

من راى انه طعن وقبض وهو ابن اثنين وعشرين سنة* ، ودفن بدمشق بالباب الصغير . ويستمر المسعودي ويذكر امورا هامة جدا فيقول : « وصلى عليه الوليد ابن عتبة بن ابي سفيان ، **ليكون الامر له من بعده** ،** فلما كبر الثانية طعن فسقط ميتا قبل تمام الصلاة ، فقدم عثمان بن عتبة بن ابي سفيان فقالوا : نبايعك ، قال : على الا احارب ولا اباشر قتالا ، فأبوا ذلك عليه ، فصار الى مكة ودخل في جملة ابن الزبير – وهو خاله – ويختم المسعودي وزال الامر عن آل حرب(٦٠) .

لاشك ان موت معاوية بن يزيد المبكر جاء فجأة وعلى حين غرة ، فان كان سببه المباشر الطاعون ، فالطاعون تذكره المصادر ولكن على الارجح انه وقع في وقت لاحق في العراق والشام ، وبعد موت معاوية بن يزيد . فقد جاء في حوادث سنة ٦٥ هـ عند الطبري « انه وقع في البصرة الطاعون الذي يقال له الطاعون الجارف ، فهلك به خلق كثير »(٦١) وفي كتاب « العنوان » جاء انه في أيام عبد الملك سنة ٦٥ هـ ، « لحق الناس في هذه السنة جوع شديد ووباء »(٦٢) وذكره الاعشى ايضا في هذه السنة(٦٣) .

اما اذا صحت الروايات الكثيرة والتي تذهب الى القول أن معاوية الثاني قد سم ، فنحن عندها امام سؤالين : –

الاول : من صاحب المصلحة في سم معاوية بن يزيد ؟

والثاني : اذا كان قد سم فلماذا كان التنازل عن الخلافة ؟

بل نستطيع عكس هذا السؤال فنقول : اذا كان قد تنازل عن الخلافة فلماذا اذن قد سم(٦٣م) قد يذهب بنا الشك الى ان معاوية قد تألب عليه قومه ولربما أرادوا التخلص منه ، حتى انهم طمروا معلمه عمر المقصوص ودفنوه حيا(٦٤) ، وان صح

---

* تذكر المصادر اختلافا متباينا في عمر معاوية الثاني وتعمد بعضها الى تصغيره : ابن قتيبة يذكر انه حينما استخلف معاوية الثاني كان عمره سبعة عشرة سنة (معارف ص ١٧٩) وجاء في الكامل ان عمره احدى وعشرون سنة (الكامل ج٤ ص ١٣٠) ، اليعقوبي بتاريخه يذكر ان عمره ثلاث وعشرون سنة مثل المسعودي (يعقوبي ٢ ص ٢٥٣) وفي احدى الروايات عند الطبري انه توفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة (طبري ٥ ص ٣٠٣) .

** يذكر المدائني « وقد أراد الناس الوليد بن عتبة بن ابي سفيان ان يتولى عليهم فابى وهلك في تلك الليلة » . (ابن كثير البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٠) .

القول ان معاوية الثاني قد اسقط ثلث الخراج وانه كان صاحب مذهب جديد يخالف ماصار عليه بنو أمية عموما مخالفة شديدة وانهم خافوا أن يضر الخليفة الجديد بمصالحهم ويذهب بمكتسباتهم حتى أن هناك قول يبدو ضعيفا مفاده « ان معاوية بن يزيد قد عزم أن يبايع لابن الزبير »(٦٥) ، كل هذا بجانب طموح مروان بن الحكم العتيق والفعال للوصول الى الحكم ، هذا الطموح الذي لايناسبه ابدا ان يتسلم الخلافة خليفة ثالث على التوالي من آل ابي سفيان ، فاذ ما تم الامر لهذا الشاب معاوية ، عندها تثبت الخلافة فيهم . يذكر البلاذري ان مروان بن الحكم دخل على معاوية بن يزيد فقال له : « لقد أعطيت من نفسك ما يعطي الذليل المهين ثم رفع صوته فقال: من أراد أن ينظر في خالفة آل حرب بن امية فلينظر الى هذا ، فقال له معاوية : يا ابن الزرقاء اخرج عني لا قبل الله لك عذرا »(٦٦) .

لذا نرى أن معاوية الثاني لم يتنازل عن الخلافة وان موته جاء في ظروف غامضة قد تصح معها رواية سمه . اذ ان شخصية معاوية بن يزيد القوية وتطلعاته السياسية اصبحت لا تروق أصحاب الشأن في البيت الاموي وفي الشام(٦٧) ، وبموت معاوية أصبح الطريق ممهدا لمروان بن الحكم الذي بات هو المرشح الاول ــ ولا نقول الوحيد في هذه المرحلة ــ لبني امية واهل الشام فكيف سارت الامور واتجهت الاحداث آنئذ ؟

بعد موت معاوية بن يزيد ارتبك الامر عند اهل الشام ارتباكا كبيرا وكادت تتم البيعة لابن الزبير الذي سبق أن بايعته جل الامصار الاسلامية حتى أن المدن الشامية خاصة ذات الزعامة القيسية اخذت بدورها الواحدة تلو الاخرى في البيعة له ، ولم يبق الا جند الاردن وفلسطين حيث كان كان اميرها حسان بن بحدل الذي يهوى هوى بني امية ويدعو الى ولد اخته الى خالد بن يزيد .

وما الناس الا بحدلي عن الهوى   والا زبيري عصى فتزيدا*

وقد رأى ابن بحدل أن من الحكمة ان ينتقل من فلسطين الى جند الاردن ليكون قريبا من دمشق ومن الاحداث فخلف مكانه على جند فلسطين روح بن زنباع الجذامي، الذي ما لبث أن وثب عليه ابن عمومته ناتل بن قيس الجذامي ــ الذي يقال انه كان

---

* يروى ان هذا الشعر لعبد الرحمن بن الحكم أخي مروان (البلاذري ، انساب الاشراف ، ٤ : ٣٥٦ ، أبو تمام نقائض ص ١٦) .

عند ابن الزبير بمكة وطلب منه ابن الزبير أن يكفيه قومه ـ فاستولى ناتل على بيت المال في جند فلسطين واخرج روح وبايع لابن الزبير(٦٨) .

في هذا الوضع الجديد الصعب تجتمع بني أمية مع كبار زعماء الشام ـ خاصة اليمانية منهم ـ الذين خافوا أن ينتقل مركز الحكم من الشام الى الحجاز ثانية ، ومن بني أمية الى بني اسد ـ أي لان الزبير ـ ، « فلما رأى ذلك رجال بني أمية وناس من اشراف أهل الشام ووجوههم ... قال بعضهم لبعض : ان الملك كان بيننا أهل الشام فانتقل عنا الى الحجاز . لانرضى بذلك ، هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر في هذا الامر »(٦٩) .

هنا تبرز ظاهرة جديدة لها دلالتها العميقة الا وهي تكوين ((**مجلس الملأ**)) في دمشق (٧٠) .... وحسب معرفتي هذه المرة الاولى التي يتكون فيها مثل هذا المجلس في الاسلام ، هذا المجلس الذي ضم في صفوفه زعماء بني أمية وزعماء اليمانية ، وكانت مهمته فيما نرى ملء الفراغ بعد موت الخليفة معاوية الثاني والعمل على انتخاب من يخلفه . وكان من أكبر رجال هذا المجلس حسان بن بحدل الكلبي ، ومالك بن هبيرة السكوني ، والحصين بن نمير السكوني وروح بن زنباع الجذامي ، وعبيد الله بن زياد ، وعمرو بن سعيد الاموي وعبد الله بن عضاضة الاشعري وأبو كبشه جيويل بن يسار السكسكي ، وسعيد بن حمزة الهمذاني وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري وغيرهم(٧١) .

ولا شك أن هم هؤلاء الرجال عموما كان ابقاء الخلافة في الشام وتلقائيا ابقائها في بني امية ، رغم أن الروايات تذكر أن الضحاك بين قيس وكذلك حسان بن مالك بن بحدل رشحا نفسيهما للخلافة(٧٢) .

قلنا ان هم مجلس الملأ كان ابقاء الخلافة في الشام وانتخاب خليفة جديد بعد موت معاوية بن يزيد المفاجيء والغامض ، وكان ابن بحدل ومالك بن هبيرة يمثلان التيار الذي يريد البيعة لخالد بن يزيد ، أخي الخليفة المتوفي وحفيد الخليفة معاوية مؤسس الدولة الاموية وناقل مركز الخلافة الى دمشق ، والتيار الثاني يريد البيعة لمروان بن الحكم شيخ قريش وجذم بني امية وابن عم الخليفة المغدور عثمان بن عفان .

من الاعياص أو من آل حرب
أغر كغرة الفرس الجواد(٧٣)

ولكن كان هناك الضحاك بن قيس وغيره من القيسية الذين يهوون هوى ابن الزبير والذين كانوا حنقين على ماكان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية .... وما كان لحسان بن مالك الكلبي خال يزيد من مركز قوي في الدولة فكان كالمالك للامر وكان العماد الاكبر لمعاوية الثاني حتى أن أخاه سعيد الكلبي كان أميرا على قنسرين مدينة القيسية ، فرأت قيس أن اسناد الامارة عليهم وفي مدينتهم الى رجل من كلب أمر الايطاق(٧٤) .

هنا يلعب مروان بن الحكم دورا فذا داخل مجلس الملأ وخارجه لتتم البيعة له وقد ساعده في هذا الامر رجال عظام ودهاة كبار امثال عبيد الله بن زياد وروح بن زنباع والحصين بن نمير . فحجة ابن بحدل في ترشيح ابن اخته واضحة ، أنه يفضل ذلك ليبقى الامر بيده « فمروان ابو عشرة وابن عشرة » ونفس الراي كان عند مالك ابن هبيرة شيخ اليمانية ، فلنسمع حديثا له مع الحصين بن نمير في تفضيل ترشيح خالد على مروان الذي يميل اليه الحصين « ... ويلك انك انسان تايه (تائه) قد ذهب عقلك ان آل مروان أهل بيت من قيس .. قد قاسوا قوت الحجاز وشدته والله لئن ملكوا ليحسدنك نقاء ثوبيك وجلاء صوتك وظل شجرة تستظل تحتها .. هلم فلنبايع هذا الغلام (يعني خالدا) الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن اختنا فقد عرفت منزلتنا كانت من أبيه ... فانه يحملنا على رقاب العرب غدا »(٧٥) .

اما الذين يرشحون مروان بدلا من خالد بن يزيد الفتى الحدث السن ، فحجتهم هي أن مروان شيخ بني أمية يستطيع الوقوف امام ابن الزبير « ونحن نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي(٧٦) » أجل ان بعض المصادر تذكر ان مروان نفسه رأى أن ينطلق الى ابن الزبير لمبايعته ... ويأخذ بهذا الراي مؤرخون محدثون(٧٧) . ولكن هذا القول ماهو الا من قبيل ذر الرماد في العيون . فمروان طامع في الخلافة منذ زمن بعيد ، وهو في هذه المرحلة بالذات أخذ يسعى السعي الحثيث الذكي ، لا داخل مجلس الملأ فحسب بل خارجه أيضا ، فهو يتقرب من أهل الشام الذين لم يكونوا على صلة قوية سابقة به . واستطاع ان يجذب الى جانبه شخصيات بارزة فذة ربطت بينهم المصالح المشتركة ، وقد مناهم مروان بالاماني ووعدهم بالكثير — كما سيأتي — فتذكر المصادر أن مروان وليس غيره كتب الى الحصين بن نمير وهو في محاربة ابن الزبير : « لايهولنك ماحدث وامض لشأنك » وما حدث هو موت يزيد بن معاوية(٧٨) . ولما قدم الحصين بن نمير ومن معه الى الشام اخبر مروان ماكان بينه وبين ابن الزبير ، ثم خاطب الحصين مروان قائلا : « نراكم — بني امية — في اختلاط فاقيموا أميركم » وحدثه للبيعة لنفسه(٧٩) . واشترط الحصين على مروان أن ينزل البلقاء من كان

بالشام من كندة وان يجعلها لهم مأكلة(٨٠) . فأعطاه ذلك ، وجاء في كتاب التهذيب ان كلاما كان يجري بين مروان بن الحكم وروح بن زنباع عندما طلب مروان الخلافة(٨١).

جاء في كتاب « النقائض » ان مروان أخذ يتصنع فلزم سارية في المسجد يصلي اليها ولا يجلس مع القوم ، ثم أخذ يتدارس الوضع « فيلقي الكلام الى الرجل ويضرب الامثال ويخبر بحلم آل أبي سفيان وعقولهم وجودهم ويقول : « وبنوا أبيهم منهم .. ويذكر الحاد ابن الزبير واستحلاله الحرم مع جمعه الاموال وبخله وقلة بذله(٨٢) .

وعن دور مروان وهو جالس الى سارية في المسجد نقرأ في النقائض ما يرويه روح بن زنباع مساعده الكبير في تلك الفترة الحاسمة فيقول : « فمررت بمروان وهو يصلي الى تلك السارية فسبح بي ، فملت اليه فسلم علي ثم اقبل علي فقال : يا أبا زرعة انك من هذا الامر بصدد واني لا اعلمك من امري الا ماقد علمت ، انا ابن عم امير المؤمنين وخليفته في الدار والذي أوصى به بعده ، فلا تدع من ذكرنا ما انت أهله ومهما نسيت من شيء فلا تنسين أن تذكر سني ونظري وتجربتي وقرابتي لامير المؤمنين عثمان مع الشدة في الحدود والعفاف في الاسلام وبذل ذات اليد مع قصب ابن الزبير وجمعه ومنعه . قال روح : امرت بمعروف وأوصيت كافيا . قال روح : فجئت مجلس الملأ فقلت : ما يمنعكم من هذا الشيخ من قريش واشرت الى مروان ، وهو ابن عم امير المؤمنين عثمان وقد أمر عشر مرات ونزع عشر مرات ، كل ذلك لا يسخط ولا يخالف ولا يعزل عن خيانة . قالوا : ابن الزبير اصلب منه وابن عمر افقه منه ، قال روح : أما ابن عمر فرجل قد شغلته عبادته واما ابن الزبير فمن أكثر منه غلظة وتهجما وبخلا وبني أمية اسمح أخلاقا واعطى لهذا المال(٨٣) . وتأتي خطبة روح بن زنباع عند الطبري على هذه الصورة « أيها الناس انكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدمه في الاسلام وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف وليس بصاحب امة محمد الضعيف ، واما مايذكر الناس من عبد الله بن الزبير ويدعون اليه من أمره فهو والله كما يذكرون بأنه لابن الزبير حواري رسول الله وابن اسماء ابنة ابي بكر الصديق ذات النطاقين وهو بعد كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفتين يزيد وابنه معاوية بن يزيد وسفك الدماء وشق عصا المسلمين وليس صاحب أمر امة محمد صلى الله عليه وسلم ، المنافق ، واما مروان بن الحكم فوالله ماكان في الاسلام صدع قط الا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع ، وهو الذي قاتل عن امير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذي قاتل علي بن ابي طالب يوم الجمل »(٨٤) .

كانت هذه الخطب وتلك الحجج تقال في مجلس الملأ ولكن يبدو لنا أنه بجانب

مجلس الملأ الموسع كانت تعقد جلسات مصغرة تضم انصار البيعة لمروان ، الذين اصبحوا معروفين لدينا والذين يعملون لاثبات الخلافة لبني امية ، وفي الشام ، ولنقلها الى مروان بن الحكم وابعاد خالد بن يزيد أو غيره . فيذكر ابن عبد ربه أن هذه الجماعة « بعد ان قلبوا الراي في خالد وغيره واذا خالد حدث ، خرجوا من عنده فأتوا مروان بن الحكم فاذا عنده مصباح واذا هم يسمعون صوته بالقران فاستأذنوا فدخلوا عليه فقالوا : يا ابا عبد الملك ارفع راسك لهذا الامر فقال لهم : استخيروا الله واسألوه ان يختار لامة محمد صلى الله عليه وسلم خيرها واعدلها » ويكشف لنا صاحب العقد الفريد عن واحدة من الاساليب التي اتبعوها في الوصول الى هدفهم فيقول : « ان القوم جاؤوا مروان بن الحكم فقال روح بن زنباع : « ان معي اربعمائة من جذام فأنا آمرهم ان يتقدموا في المسجد غداً ، ومر انت ابنك عبد العزيز ان يخطب الناس ويدعوهم اليك ، فاذا فعل ذلك تنادوا من جانب المسجد .. صدقت .. صدقت .. فيظن الناس أن امرهم واحد . فلما اجتمع الناس ، قام عبد العزيز بن مروان فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : ما احد أولى لهذا الامر من مروان كبير قريش وسيدها ، والذي نفسي بيده لقد شابت ذراعاه من الكبر . وقال الجذاميون : صدقت .. صدقت .. فقال خالد : الذي أدرك بعمق ما يجري من حوله « امر دبر بليل(٨٥) » .

وحتى يتم حسم الموقف نهائيا اتخذ قرار بالذهاب الى ابن بحدل للتفاهم معه ، وكان الهدف الاول هو القضاء على التردد في موقف الضحاك بن قيس ثم حمل ابن بحدل على البيعة لمروان ، ولايخفى أن في ذهاب الجماعة بأنفسهم الى ابن بحدل امر فيه تبجيل للرجل واقرار بمكانته ، فابن الكثير يذكر « ان حسان بن مالك لما قدم عليه مروان أرض الجابية أعجبه اتيانه اليه(٨٦) » . فقال حسان : مخاطبا مروان ــ أتيتني بنفسك اذا ابيت أن آتيك ، والله لاجالدن عنك في قبائل اليمن او اسلمها اليك(٨٧) » .

ولتحقيق هذا الغرض تم ما يعرف بمؤتمر « **الجابية** » الذي سبقه تحضيرات كثيرة وتمهيدات واسعة ، وكان من المقرر أن يحضر الضحاك بن قيس هذا المؤتمر ولكن تحت ضغط القيسية يضطر الرجل الى التخلف عن الحضور « فصرف الضحاك الرايات الى مرج راهط واظهر بيعة ابن الزبير(٨٨) » وفي الجابية يتم اختيار مروان بن الحكم على أن لايبايع مروان الا لخالد بن يزيد وله امرة حمص ولعمرو بن سعيد وله امرة دمشق ، وكانت بيعة مروان بالجابية يوم الاثنين للنصف من ذي القعدة سنة ٦٤ هـ(٨٩) . وتتم البيعة له بعد أخذ ورد شديدين ، وبعد أن استرضى حسان بن مالك الذي خاطب الجماعة قائلا : « رأيي لرأيكم انما كرهت أن تعدل الخلافة الى ابن

الزبير وتخرج من أهل هذا البيت(٩٠) » . وهكذا صارت البحدلية مروانية . ثم يضع حسان بدوره شروطه لمروان « يشترط حسان بن مالك ـ وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام ـ على مروان ما كان لهم من شروط على معاوية وابنه يزيد وابنه **معاوية بن يزيد** منها : أن يفرض لهم لالفي رجل الفين الفين ـ وان مات قام ابنه وابن عمه مكانه ـ على أن يكون لهم الامر والنهي ، وصدر المجلس وكل ما كان من حل وعقد ، فعن رأي منهم ومشورة . فرضي مروان ذلك ، فانقاد اليه » ، عندها يقف حسان بالقوم خطيبا ومبايعا لمروان بن الحكم الذي « التفت اليه بنو امية فقالوا : الحمد لله الذي لم يخرجها منا »(٩١) .

وهكذا يقف اكبر مناصر لخالد بن يزيد ولبيت ابي سفيان الى جانب البيعة لمروان . ويقول ابن سعد : « فدعا حسان بن مالك خالدا بن يزيد فقال : « يا ابن اختي هواي فيك وقد أباك الناس للحداثة ومروان احب اليهم منك ومن ابن الزبير ، قال : بل عجزت ، قال : كلا(٩٢) » .

ثم جاء دور معارض كبير آخر هو مالك بن هبيرة اليشكري الذي بات أمر استمالته لجانب مروان أكثر سهولة بعد موافقة حسان بن بحدل ، فابن هبيرة يواجه مروان صراحة ويقول له : « ... ليست في أعناقنا بيعة ، وليس نقاتل الا عن عرض الدنيا ، فان تكن لنا على ماكان لنا معاوية ويزيد نصرناك ، وان تكن الاخرى فوالله ما قريش عندنا الا سواء . فاجابه مروان الى ما سأل(٩٣) » .

ينفرد صاحب كتاب « العنوان » بقصة طريفة لايمكن أن تحمل محمل الجد مفادها : ان مروان بن الحكم اقترح على المجتمعين القرعة ... بأن قال : اعمدوا الى ثلثة اسهم فأثبتوا فيها أسماء ثلثة رجال منكم وتدفع السهام الى رجل لتحريكها ... فأثبتوا أسماءهم على ثلثة اسهم ودفعت الى الحسن (حسان) ابن مالك ، فأخذها بيده وحركها تحريكا شديدا ثم أخذ منها سهما فالقاه في وسط الجماعة فتؤمل ، فاذا عليه اسم مروان بن الحكم فسلموا اليك الملك(٩٤) » .

بعد ان اجتمعت كلمة القوم على مروان في الجابية صار مروان الى مرج راهط ـ

وراهط رجل من قضاعة سمي المرج باسمه(٩٥) ـ وكان مع مروان رجال بني كلب والسكاسك وغسان وغيرهم(٩٦)* .

وقد التقى هذا الجمع بالضحاك بن قيس الذي جاءه مدد من النعمان بن بشير أمير حمص ومن زفر بن الحارث الكلابي زعيم القيسية في قنسرين ، ومن ناتل بن قيس في فلسطين وتقابل الجيشان ودارت المعركة والقتال بين الطرفين اياما وفي اثناء هذه المعركة جاء الخبر من دمشق أن رجلا من غسان ، كان مختبئا بدمشق ولم يشهد الجابية واسمه يزيد بن ابي النمس ثار وغلب عليها واخرج عامل الضحاك منها واستولى على بيت المال واعلن بيعته لمروان ، وامد مروان بالاموال والسلاح والرجال ، « فكان أول فتح على بني أمية »(٩٧) ويبدو منطقيا ان ثورة الغساني هذه كانت مدبرة ومخطط لها اذ كان الرجل على علاقة سابقة بجماعة مروان (٩٨).

وانتهى القتال بين الضحاك ومن معه من القيسية ومروان ومن معه من كلب واليمنية بنصر مروان وكلب ، وجيء له برأس الضحاك ، فقال وهو مغتم : « الآن حين كبرت سني ودق عظمي ، وصرت الى مثل ظمء الحمار اقبلت بالكتائب اضرب بعضها ببعض(٩٩) » .

كانت معركة مرج راهط سببا في رد ملك بني أمية « وقد زال عنهم الى بني أسد بن عبد العزي ـ ابن الزبير ـ ولذلك رأى قوم أن مروان أول من اخذ الخلافة بالسيف» يقول المسعودي : « وهذه الواقعة من الوقائع المشهورة والايام المذكورة واليمانية تفتخر بها على النزارية ، وقد أكثرت شعراؤها الافتخار بذلك .

قال عمرو بن مخلاة الكلبي :

رددنا لمروان الخلافة بعدما ... جرى للزبيريين كل بريد

فالا يكن منا الخليفة نفسه ... فما نالها الا ونحن شهود(١٠٠)

---

* اذا ما دققنا النظر في المصادر والروايات التي بين ايدينا ، وجدنا ان جل القبائل اليمنية في بلاد الشام كانت بجانب مروان والامويين : الجذاميون (ابن عبد ربه ٤ : ٣٩٦) ، ثم قضاعة وجل الناس (أبو تمام نقائض ص ٥) القين وتنوخ (من شعر لمروان جاء في الطبري ٥ : ص ٥٣٧) الاشعريون وعذره واشراف اهل الشام (بلاذرى ٥ : ١٢٨ طبعة المثنى) وكانت تغلب بجانب مروان ايضا وقد افتخر الاخطل بذلك :

وقد كان يوما راهط من ضلالكم ... فناء لاقوام وخطبا من الخطب

(النقائض ، ٩٨)

من هذه الابيات نرى أن بني كلب كان يعزيهم عن اخفاقهم في الوصول الى الحكم ان مروان لم يظفر بالخلافة الا على سواعدهم(١٠١) .

بعدها ينتقل مروان بانصاره الى دمشق ويأخذ البيعة العامة ، ويبدأ حكمه بالعمل للقضاء على ابن الزبير . فهل بعد هذا يصح القول ان مروان وصل الى الخلافة بفضل اخراجه من المدينة ... ؟ دون فضل اختص به ، وانه لم يكن يطمع في الخلافة(١٠٢) . يبدو لنا ان هذا الرأي ضعيف ، فان مروان لم ينجح في أن يصبح خليفة للمسلمين فحسب بل نجح في جعل الخلافة في بيته ، فرغم قصر مدة حكمه استطاع الرجل أن ينقل ولاية العهد اولديه من بعده ـ عبد الملك وعبد العزيز ـ وان يبعد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد عما وعدا به يوم الجابية ، ولم يعارض حتى ابن بحدل نفسه في هذا النكث بالعهد ، بل تبرع حسان قائلا لمروان : «أنا اكفيك امرهما». ثم جمع حسان الناس وقام خطيبا فقال : « يبلغ أمير المؤمنين ويبلغنا ان رجالا يتمنون الاماني ويدعون الاباطيل ويحدثون انفسهم بما لم يجعله الله لهم ، وما اولئك بالراشدين ولا المسودين فقوموا أيها الناس فبايعوا لعبد الملك ابن امير المؤمنين ولعبد العزيز من بعده . فقام الناس فبايعوا مسارعين ، غير مثقلين من عند آخرهم حتى لم يبق منهم أحد(١٠٣) » وقد علق الناس على هذا « هو أعلم بابن اخته وما دعا الى بيعة عبد الملك الا لما يعرف من ابن اخته(١٠٤) » .

مات الخليفة مروان بن الحكم في ١٧ رمضان سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م بعد ان ضمن ان الخلافة قد انتقلت الى ولده القدير عبد الملك الذي استطاع بدوره ان يقضي على خصومه وان يوحد العرب ويعيد الهدوء والا ترار الى أمصار الامبراطورية العربية ، هذا الاستقرار الذي ظهرت نتائجه في ا اته الكبرى واهمها تعريب الدواوين وصك النقود بالعربية .. وفيما بعد بموجة من الفتوحات الواسعة والاعمال العمرانية التي شهدتها خلافة ولده الوليد بن عبد الملك بن مروان .

* * *

المصادر والمراجع :

(١) ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠ هـ/٨٤٥م) كتاب الطبقات ج ٥ص ٢٤ - ٢٥ ، مكتبة المثنى - بغداد .

(٢) العسكري ، ابو هلال الحسن (ت ٣٩٥ هـ/١٠٠٤ م) الاوائل ج ١ ص ٢٦٩ ، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب - دمشق .

ابن قتيبة ، عبيد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) كتاب المعارف ص ١٩٥ تحقيق ثروت عكاشة . دار المعارف بمصر .

(٣) العسكري ، الاوائل ج ١ ص ٢٩٦ .

(٤) ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٣ م) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٧ ، مطبعة السعادة - مصر بلا تاريخ .

ابن خلدون ، عبد الرحن بن محمد (ت ٨٤٠ هـ / ١٤٠٦ م) العبر ج ٢ ص ١٠٤٦ ، القسم الاول ، المجلد الثاني ، بيروت ، دار الكتاب .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٢٥ - ٢٦ .

(٦) خياط ، شباب (ت٢٤٠ هـ / ٨٥٤م) ، كتاب التاريخ ص ١٨٥ ، تحقيق اكرم ضياء العمري - بيروت ١٩٧٧ .

ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٢٩ .

(٧) البلاذري ، احمد بن يحيى ، (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) انساب الاشراف ج ٥ص١٢٦ ، مكتبة المثنى - بغداد .

(٨) الزبير بن بكار ، (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م) الاخبار الموفقيات ص ١٧٥-١٨٦ ، تحقيق سامي العاني - بغداد ١٩٧٢ .

(٩) العسكري ، الاوائل ج ١ ص ٣٤٦ .

(١٠) البلاذري ، أنساب الاشراف ج ٤ ص ٣٣ ، تحقيق احسان عباس - بيروت ١٩٧٩ .

(١١) الطبري ، (ت ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م) ، تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٢٩٣ - ٢٩٤، تحقيق أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية .

(١٢) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٣ - ٨٤ ، تحقيق عبد السلام هارون - بيروت .

(١٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ص ٣٥٣ .

ابن الابار ، أبو بكر القضاعي ، (ت ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) ، الحلية السراء ج ١ ص ٢٧ - ٢٨ ، تحقيق حسين مؤنس القاهرة - ١٩٦٣ .

البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٥١٥ تحقيق احسان عباس .

الذهبي ، محمد بن أحمد الحافظ ، (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) العبر في خبر من عبر ، ج ١ ص ٧١ ، ٨٢ ، تحقيق صلاح الدين المنجد – الكويت ١٩٦٠ .

مجهول ، (ينسب لابن قتيبة)، الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٧ ، القاهرة – ١٩٥١ .
ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٤٥ .

(١٤) ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٣٠ .

ابن عساكر ، علي بن الحسن ، (ت٥٧١ هـ/١١٦٧ م) تاريخ دمشق ، مخطوط في مكتبة الظاهرية بدمشق ، رقم ٥٣١ وعلم وادب ، ٢٥ ورقة ١٧٩ .

(١٥) البلاذري ، أنساب ج ٤ ص ٣٢٩ ، تحقيق احسان عباس .

(١٦) أبو تمام ، حبيب ابن اوس ، (ت ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م) نقائض جرير والاخطل ص ١٢ ، ١٣ ، دار المشرق – بيروت ١٩٢٢ ، تحقيق الاب انطون صالحاني .

(١٧) الزبيري ، ابو عبد الله المصعب ، (ت٢٣٦ هـ / ٨٥١م) ، كتاب نسب قريش ص ١٠٩ ، ١١٠ ، تحقيق ليفي بروفنسال – الطبعة الثانية ، دار المعارف – القاهرة .
عدد ٥–٦ ص ٢٠ – ٢١ ، عمان ١٩٧٩ .

الدوري ، عبد العزيز ، كتاب الانساب وتاريخ الجزيرة – مجلة مجمع اللغة العربية الاردني عدد ٥ – ٦ ص ٢٠ – ٢١ عمان ١٩٧٩ .

(١٨) البلاذري ، انساب الاشراف ج ٤ ص ٦٥ – ٦٦ ، تحقيق احسان عباس .

الزبيري ، نسب قريش ص ١١٠ .

(١٩) مجهول ، (مؤلف من القرن الثالث الهجري) ، الامامة والسياسة ج ١ ص ١٩٨ – ١٩٩ ، تحقيق سعيد صالح خليل ، اطروحة ماجستير الجامعة الاردنية عمان ١٩٧٨ .

(٢٠) البلاذري ، انساب الاشراف ج ٤ ص ٦١٥ – ٦١٦ ، تحقيق احسان عباس .

(٢١) البلاذري ، ن . م ج ٤ ص ٦١٥ – ٦١٦ .

(٢٢) التوحيدي ، ابوحيان ، (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٧٤ ، اشراف : احمد امين واحمد الزين ، دار الحياة – بيروت .

(٢٣) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٥ ، مطبعة المثنى – بغداد .

(٢٤) التوحيدي ، الامتاع ج ٢ ص ٧٤ .

(٢٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ج ١٧ ورقة ١٧٠ – ١٨١ مخطوط .

– الزبيري ، نسب قريش ص ١٠٩ – ١١٠ .

– البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٦ ، مطبعة المثنى – بغداد .

(٢٦) ابن كثير ، البداية ج ٨ ص ٢٥٨ .

(٢٧) الزبير بن بكار ، الموفقيات ص ١٨٣ .

(٢٨) مجهول ، الامامة والسياسة تحقيق سعيدصالح ج ١ ص ٢٧٧ .

الدوري ، عبد العزيز ، النظم الاسلامية ج ١ ص ٣٨ ، مطبعة النيل ، بغداد ١٩٥٠ .

(٢٩) مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٣ ، طبعة القاهرة ١٩٥٧ .

(٣٠) مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٧٧ وما بعدها ، تحقيق سعيد صالح .

(٣١) المقدسي ، مطهر بن طاهر ، البدء والتاريخ ج ٦ ص ٦ ، تحقيق ك. هوار باريز .

(٣٢) البلاذري ، انساب ، ج ٤ ص ٣٠٢ ، تحقيق عباس .

(٣٣) مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، تحقيق سعيد صالح .

(٣٤) الامامة والسياسة ج ١ ص ٢١٧ - ٢١٨ ، طبعة القاهرة ، سعيد صالح ج ١ ص ٢٢٨ .

(٣٥) عاقل ، نبيه ، خلافة بني امية ، ص ١٣٣ - ١٩٧٢ - دمشق .

- ماجد ، عبد المنعم ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، عصر الخلفاء الامويين ، القاهرة سنة ١٩٦٠ ، ص ٩١ - ٩٢ .

- البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٠٢ ، تحقيق عباس .

- مجهول ، الامامة والسياسة ، ج ١ ص ٢١٥ .

(٣٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ص ٣١٦ . طبعة بيروت ١٩٦٥ .

- البلاذري ، انساب الاشراف ، تح. عباس ٤ : ٣٤٤ ، ٣٥٤ .

- طبري ، تاريخ ، ج ٥ ص ٤٩٩ .

(٣٧) ابن العبري ، هبرايوس المالطي ابو الفرج ، (ت ٦٨١ / ١٢٩٨) ، تاريخ مختصر الدول ص ١٩١ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت - ١٩٥٨ م .

- البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٢ ، تحقيق احسان عباس .

- ابن قتيبة ، المعارف ١٨١ ، تحقيق عكاشة .

- ماجد عبد المنعم ، التاريخ السياسي للدولة العربية ص ٩١ - ٩٢ ، عصر الخلفاء الامويين ، القاهرة - ١٩٦٠ .

(٣٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٢١ ، بيروت - ١٩٥٧ .

(٣٩) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠ - ٥٢١ .

(٤٠) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٦ ، تحقيق احسان عباس .

- البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٢١ .

(٤١) المسعودي ، علي بن الحسين ، (ت ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م) التنبيه والاشراف ص ٣٠٦ ، مكتبة الخياط - بيروت (عن الطبعة الاوروبية).

(٤٢) ابو تمام ، نقائض ص ٥ – ٦ .

– المقدسي ، البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٧ .

(٤٣) الذهبي الحافظ ، العبر في خبر من عبر ، ج ١ ص ١٩ .
– ١٩٦٠ .

– البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٩، تحقيق احسان عباس .

(٤٤) ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٢٧

– الطبري ، تاريخ ج٥ص٥٠٣

(٤٥) ابو تمام ، نقائض ص ٤

(٤٦) ابو تمام ، ن.م ص ٥–٦

(٤٧) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٦ ، تحقيق احسان عباس

(٤٨) مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٢٨–٢٢٩ ، تحقيق سعيد صالح

(٤٩) الذهبي ، العبر في خبر من عبر ج ١ ص ٦٩

(٥٠) ابو تمام ، نقائض ص ٥–٦

(٥١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٣٠٧ ، مكتبة الخياط

(٥٢) اليعقوبي ، أحمد (ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٣٤ دار صادر –بيروت ١٩٦٠.

(٥٣) ابن العبري ، مختصر ص ١١١ ، بيروت ١٩٥٨

(٥٤) فلهاوزن ، يوليوس تاريخ الدولة العربيــة ص ١١٦ ترجمة محمد عبــد الهادي ابو ريده القاهرة ١٩٦٨ (عن مصدر بيزنطي)

(٥٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٦ ، يعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٣ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٠٣ وما بعدها

(٥٦) الطبري ، تاريخ ، ج٥ص٤٦٨،٤٧٨.

(٥٧) ابن الاثير ، عز الدين علي، (ت ١٢٣٤م) الكامل ج ٤ ص ١٣٠ (بيروت ١٩٦٠)

(٥٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٧ – ٢٣٨

(٥٩) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٦ ، تحقيق عباس

(٦٠) المسعودي ،: مروج الذهب ج٢ ص٥٧ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٦٧ .

(٦١) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٦١٢

(٦٢ المنبجي ، اغابيوس بن قسطنطين ، كتاب العنوان ص ٣٥٥ مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٧

(٦٣) القلقشندي ، احمد بن عبد الله (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٥٦ ، القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٧

(٦٣م) يذكر الحصيني ، وهو من كتاب مطلع القرن العشرين ، ان زوجة معاوية الثاني قتلته . ولكن الحصيني لا يذكر لقوله هذا مصدرا ، مما يحملنا على الشك فيه ، سيما وانه يغالط فيذكر ان مروان بن الحكم قبل البيعة مكرها استرسالا مع ميل بني امية (منتخبات ، ص ٨٩ ، ٩١) .

ـ الحصيني ، محمد أديب ، منتخبات التواريخ لدمشق ، تقديم كمال الصليبي ، ج ١ ـ ٣ ، بيروت ١٩٧٩ .

(٦٤) ابن العبري ، مختصر ص ١١١

(٦٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩ ، مطبعة الصادر ـ القاهرة (بلا تاريخ) .

(٦٦) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٨ تحقيق عباس

(٦٧) عاقل ، نبيه ، خلافة بني امية ص ١٢١ ، دمشــق ١٩٧٢ .

(٦٨) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ، مطبعة المثنى ـ بغداد

(٦٩) ابن عبد ربه ، احمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠ م) العقـد الفريد ج ٣ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ مطبعةالازهر ـ الطبعة الثانية القاهرة ١٩٢٨

(٧٠) ابو تمام ، نقائض ص ١٢ـ١٣

(٧١) ابو تمام ، نقائض ص ١ ، ٧ ، البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٨ـ١٢٩ ، مكتبة المثنى ـ بغداد

(٧٢) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤١ ، ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٢٨

(٧٣) ابو تمام ، نقائض ص ١٤

(٧٤) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠ ، ٥٣٢

(٧٥) ابو تمام نقائض ص ١٦ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٦

(٧٦) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٢

(٧٧) ابو تمام ، نقائض ص ٦ تحقيق ج. فراتاج ، اشعار الحماسة ،ص ٢١٨ ، بون ١٨٢٨ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠ ، ٥٤٠ ، ابن سعد ،طبقات ج ٥ ص ٢٧ ، ابن كثير ، البداية ج ٨ ص ٢٣٩ ـ ٢٤١ ، عاقل ، تاريخ بني امية ، ص١٢٨.

(٧٨) يعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٣

(٧٩) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٢٤٤ بيروت ١٩٦٥

(٨٠) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٤٤

(٨١) العسقلاني ، ابن حجر ، (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م) تهذيب ج١٠ ص١٢ حيدر اباد ، الدكن١٣٢٧هـ

(٨٢) ابو تمام ، نقائض ص ١٢ ، ١٣ .

(٨٣) ابو تمام ، نقائض ١٣

(٨٤) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٦ـ٥٣٧

(٨٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٤-١٤٥

مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٤٦-٢٤٧ ، سعيد صالح

(٨٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٩

(٨٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ورقة ١٧٦- ١٧٧ (مخطوط) .

(٨٨) ابو تمام ، نقائض ص ١٥، الطبري تاريخ ج ٥ ص ٥٣٦-٥٣٧ ، ابن كثير ، البداية ج ٨ ص ٢٤٠ ،مطبعةالسعادة

(٨٩) ابن سعد ، طبقات ج ٥ ص ٢٨ ، ٢٩

- الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٧

(٩٠) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، مطبعة المثنى - بغداد

(٩١) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٦٦-٦٧القاهرة ١٩٣٨

- البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٨-١٢٩ ، مطبعة المثنى - بغداد

(٩٢) ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٢٨-٢٩ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٧

(٩٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦٦ - ٦٧ .

(٩٤) المنبجي ، العنوان ص ٣٥٤

(٩٥) ابو تمام ، نقائض ص ١٧

- اشعار الحماسة ص ٣١٧ ، تحقيق فرنتاج، بون ١٨٢٨م

(٩٦) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٧

(٩٧) الطبري ، ن.م.ج٥ص ٥٣٢ - ٥٣٧ .

(٩٨) الطبري ، ن.م ج ٥ ص ٥٣٧

(٩٩) الطبري ، ن.م ج ٥ ص ٥٢٨

(١٠٠) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص٣٠٩ ، البلاذري ،انساب،ج٥ص١٣٥ مطبعة المثنى - بغداد

(١٠١) النص ، احسان ، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاسلامي ص ٢٧٦ ، بيروت ١٩٦٤

(١٠٢) الطبري، تاريخ ج٥ص ٥٣٠-٥٣٥ ، فلهاوزن ، تاريخ الدولة ص ١٧٨ ، ابو ريده ،مترجم ((تاريخ الدولة)) لفلهاوزن هامش ١٧٨

(١٠٣) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٤٤٢ ، تحقيق احسان عباس

(١٠٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، مخطوط ورقة ١٨٧

في أصول الكتابة العربية

محمد محفّل

كلية الاداب ـ جامعة دمشق

نحاول في دراستنا هذه القاء اضواء جديدة على اصول الكتابة العربية ، لا سيما علاقة القلم العربي القديم بالنبطي المتاخر ، الذي راح يتطور ، اعتباراً من منتصف القرن الثاني (ميلادي) ، مبتعدا بذلك تدريجيا عن أرومته الاولى (الكتابة الآرامية) ليقترب من كتابات القلم المسند وفروعه (لا سيما الثمودي والصفوي) .

ونلفت انتباه القارىء الى اننا لجأنا الى تقسيم دراستنا الى اربعة اقسام :

١ ـ نص البحث

٢ ـ مجموعة جداول نقوش (آ ـ ب ـ ج)

٣ ـ سبعة ملاحق نقوش مع دراسة تحليلية للملاحق الثلاثة الاولى

٤ ـ الحواشي

★ ★ ★

تعتبر الكتابة العربية حصيلة تطور مديد ومستمر ، انطلاقا من الكتابة المسمارية المقطعية الرافدية (حوالي ٣٥٠٠ ق.م) والهيروغليفية الصورية المصرية ، التي ظهرت مع المسمارية في منتصف الألف الرابع (ق.م .) ومرورا بالكتابة المسمارية الأبجدية (اجرت = راس الشمرة (*) حوالي ١٥٠٠ (ق.م) فانتهاء بالابجدية الكنعانية

القي ملخص هذا البحث في المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

(*) اسم الموقع الاثري يذكر في النصوص « أجرت » وليس أوغاريت ، كما هو شائع .

المتطورة ، التي أطلق عليها الاغريق اسم « الفينيقية » حوالي القرن الحادي عشر (ق.م.) (*) .

وعندما تمكن الكنعانيون « الفينيقيون » من تجريد الصور الهيروغليفية المصرية والمقاطع المسمارية الرافدية ، وابدعوا رموزا ، كل منها يمثل « وحدة صوتية = فونم » تكون الانسانية قد قطعت بذلك مرحلة بالغة التعقيد وبلغت شأوا عظيما ، كانت له نتائج ما زال يشار اليها بالبنان ، تلك النتائج التي عادت بالنفع والخير العميم على مختلف بني البشر ، في مختلف أصقاعهم وامصارهم .

نحن لا نرغب في مناقشة مختلف النظريات والآراء المتعلقة بنشوء اول قلم ابجدي وأيهما كان له التأثير الأكبر في هذا النطاق : وادى النيل أم بلاد الرافدين . فهذا ليس مجال بحثنا ، علما بأن بعضهم أعطى الكتابات الكريتية دورا في نشوء الابجدية الكنعانية. لقد اكتفينا بايراد جدول لايضاح «النظرية السينائية» التي تعكس بشكل او بآخر (**) مكانة الكتابة المصرية الصورية لاسيما في نهاية عصر الملكية الوسطى (٢٠٥٢ — ١٧٧٠ ق.م.) عندما استعمل المصريون أربعين صورة من صور كتابتهم كرموز لقيم صوتية او كوحدات هجائية . **ولكن الكتابة هي سبيل الى المعرفة ، ويبدو ان الطبقة الحاكمة المحافظة في مصر القديمة لم تشجع على الخطوة التالية في جعل هذه الرموز حروف هجاء دون اللجوء الى صور أخرى في كتابة الكلمات** ، فظلت الكتابة المصرية « الهيروغليفية » مزيجا معقدا من صور ورموز وحروف هجاء ، وبذلك ظلت امتيازا لفئة من الكتبة المختارين الذين يدرسون في البلاط الملكي قبل ان ينخرطوا في سلك الجهاز الاداري لمختلف دواوين الدولة .

اما الكنعانيون ، فلقد خطوا الخطوة الحاسمة ، انطلاقا من مبدأ « الاكروفونيا » (***) ، فاتخذوا الرموز الصورية وأعطوها قيما صوتية تلائم الأصوات اللغوية في لسانهم ، فاتخذوا مثلا الرمز الذي يشير الى البيت وسموه

(*) من أقدم النقوش المعروفة حتى يومنا هذا نقش ملك جبيل « أحيرام » والرأي السائد اليوم ان تاريخه يرجع الى نهاية القرن الحادي عشر (ق.م) .

(**) انظر الجدول في آخر البحث مع الملاحق (ملحق رقم ٦) .

(***) كلمة يونانية مركبة وتعني الصوت اللغوي في أول الكلمة . فصورة «كف» لا تمثل كفا بل الصوت اللغوي الاول في الكلمة وهو حرف « ك » وصورة « راس » مثلا لا تمثل الرأس بل حرف « ر » وهكذا ومن المعلوم انه لكل حرف أبجدي مدلول يشير الى رمز صوري .

« بت » ، واصبحت صورة البيت لا تمثل ولا تلفظ بيت ، بل الصوت اللغــوي (فونم) الأول في الكلمة وهو حرف « ب » وصورة العين لا تمثلها بل الوحدة الصوتية « ع » و « اليود » لا تمثل اليد رمزا ولفظا بل الحرف الاول « ياء » وهكذا دواليك . . وتتابعت هكذا حروف الابجديةالكنعانية « الفينيقية » وعددها ٢٢ حرفا جميعهــا حروف صحيحة بترتيب : أبجد ـ هوز ـ حطي ـ كلمن ـ سعفص ـ قرشت .

وكان كنعانيو (اجرت = رأس الشمرة) قد سبقوا ابناء عشيرتهم الجنوبيين وجردوا المقاطع المسمارية الرافدية بطريقة قريبة من أبجدية جبيل ، ولكن سقوط العاصمة الشمالية للعالم الكنعاني ، في نهاية القرن الثالث عشر ، أوقف عمليــة التطور هذه .

ونود أن نشير هنا اننا عندما نقول « الاقوام السامية »(*) أو « اللغات الســامية» وكذلك عندما نقول « الفينيقيين » **فان هذا لا يعني مطلقا اننا نسلم بهذه التسميات الخاطئة علميا . فكلمة** « فينيقي » لم تذكر في أي نص كنعاني ، كما ان اسفار التوارة التي كتبت في أرض كنعان الجنوبية لم تذكر البتة كلمة « فينيقي » ، والتسميــة كما نعلم يونانية ، وظهرت للمرة الأولى في رائعة « الاوديسيا » المنسوبة للشاعــر الملحمي هومروس قبــل أن يشيع استعمالها لــدى الكتاب الكلاسيكيين الاغريق واللاتيـــن .

وعن أبناء عمومتهم الكنعانيين نقل الآراميون أبجديتهم وكتبوا بأحرفها نصوصهم الأولى ، وكتابة ولغة تلك النصوص (من القرن العاشر الى القرن السابع ق.م.) تشبه والى درجة كبيرة محتويات النصوص الكنعانية المعاصرة لها . ولا شك في ان الآراميين الذين نقلوا عن جيرانهم الكنعانيين اللبنانيين قلمهم ، اخذوا يطورون اعتبارا

(*) اسم « الساميين » مصطلح اطلقه للمرة الاولى عام ١٧٨١ العالم النمساوي « شلوتسر » معتمدا على ما جاء في (الاصحاح العاشر الفقرة الاولى) من « سفر التكوين » : « وهؤلاء مواليد بني نوح سام وحام ويافث ومن ولد لهم بعد الطوفان » . وشاعت هذه التسمية مذ ذاك عند المستشرقين وسرت الينــا اقتباسا وتقليدا ، علما ان هذه التسمية لا تستند الى اسس علمية ، اضافة الى كونها صادرة عن أصل توراتي . وبعضهم يطلق عليهم اسم « الاقوام العربية » (انظر جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٢ ص٢٨٧ ـ ٢٨٨) . وبعض علمائنا العرب يترددون في اطلاق اسم « العرب » على مختلف أقوام الشرق الادنى القديم الذين نطقوا بلغات أو بلهجات تمت بصلات الى بعضها البعض . وعلى الباحثين العرب أن يقترحوا ويتفقوا على تسمية تكون أكثر مطابقة للواقع التاريخي واللغوي وعلم الانساب .

من (القرن السادس ق.م.) كتابة خاصة بهم ، قبل أن يتفرع منها منذ (القرن الثالث ق.م.) كتابات آرامية محلية في مناطق شتى من الشرق الادنى القديم .

ان كان آراميو سورية قد استعملوا الأبجدية الكنعانية الجنوبية(*) في البدء، فان آراميي بلاد الرافدين قد استعاروا الكتابة المسمارية قبل أن يسود استعمال كتابة آرامية موحدة في مختلف الدويلات الآرامية .

ومن المنطقي ان تتأثر اللغة الآرامية بلغات مختلف الأقوام المحيطة بالآراميين وكما ان آراميي سورية قد تأثروا باللغة الكنعانية ، فان آراميي بلاد ما بين النهرين قد تأثروا باللغتين الآشورية ـ الاكدية والبابليه ـ الاكدية . وقولنا هذا لا يعني البتة ، كما يزعم بعضهم ، ان اللغة الآرامية لم تتطور في القرنين التاسع والثامن (ق.م.) . وتؤكد مختلف النصوص المكتشفة في سورية الوسطى والشمالية تجانس وتماسك لغتها ، ونقرا في نص احدى المسلات ان اللغة المستعملة هي سائدة في « جميع آرام » ، أي في مختلف الدويلات الآرامية .(١) .

اشتهر الآراميون بتجارتهم النشيطة داخليا وخارجيا . وكما ان اقرباءهم الكنعانيين قد ذاع صيتهم في مجال التجارة البحرية ونقلوا السلع المستوردة ومنتجاتهم الى مختلف أرجاء البحر الأبيض المتوسط ، فان الآراميين اشتهروا بتجارتهم البرية واصبحوا المتحكمين بالقوافل التجارية بين الشاطىء الكنعاني وبلاد الرافدين والأناضول وفارس . وكما انتقلت لغة الكنعانيين وكتابتهم مع تجارتهم غربا ، فكذلك انتشرت لغة الآراميين وكتابتهم شرقا مع القوافل التجارية الآرامية في أصقاع عديدة من الشرق الأدنى القديم وساهمت في تكوين بعض كتابات فارس والهند وآسية الوسطى . وأما تأثير الآراميين السياسي الذي لم يستمر سوى أربعة قرون تقريبا في بلاد الشام وفي شمال بلاد الرافدين (من القرن العاشر وحتى القرن السادس ق م) فانه يبدو ضئيلا اذا ما قيس بتاريخ مختلف الأقوام والدول التي عاصرتهم أو سبقتهم، **ولكن دورهم الثقافي ، لاسيما في نطاقي اللغة والكتابة كان كبيرا وأساسيا في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، في العصرين الفارسي الأخميني والهلنستي** ، ففي العصر الفارسي الأخميني أصبحت الآرامية لغة دبلوماسية دولية وكانت لغة الادارة والحكم بجانب الفارسية في مختلف أرجاء الامبراطورية الفارسية الأخمينية وتلك هي « الآرامية الامبراطورية » Reïchsaramaisch

---

(*) حول القلم الكنعاني الجنوبي المتطور « الفينيقي » انظر (مجموعة الجداول (أ) رقم ٢ و (ب) رقم ٢) .

عندما انهارت الامبراطورية الفارسية الاخمينية تحت ضربات الاسكندر المقدوني (٣٣٣ ــ ٣٣١ ق.م.) فقدت الآرامية السند الذي جعل منها لغة رسمية متجانسة ، ذات لهجة واحدة في مختلف ولايات الامبراطورية وبدأت تفقد تفاوتها نسبيا ، وتراجعت قليلا امام اللغة اليونانية ، لا سيما في نطاقي الحكم والادارة ، **وبذلك اخذت تظهر عدة لهجات وكتابات آرامية محلية مشتقة من الآرامية الأم** . ويمكننا اعتبارا من (القرن الاول ق.م.) تصنيف مختلف اللهجات والكتابات الآرامية في سورية وبلاد الرافدين كالآتي ، وذلك بتوزيعها على مجموعتين اساسيتين : الشرقية والغربية :

(آ) المجموعة الشرقية وتشتمل على : السريانية (٢) ، لهجة تلمود بابل المنداعية ، لهجة مدينة حران .

١ ــ السريانية(*): وهي اللهجة الآرامية لمدينة أورهي(**) الواقعة بين ماردين وعنتاب . ووقوع هذه الحاضرة بين فارس والامبراطورية البيزنطية وسورية واتصالها بطريق الهند ، طريق الحرير والتوابل ، كل ذلك أعطاها اهمية كبرى . وعندما نقول ان السريانية هي لهجة أورهي الآرامية ، فليس ذلك الا من باب المجاز ، حيث كانت لهجتها أهم اللهجات الآرامية الشرقية واكثرها انتشارا . والسريان أسم أطلقه اليونان على آراميي المنطقة الشمالية لسورية ولبلاد الرافدين ، لا سيما بعد اعتناق أولئك المسيحية كدين لهم ونبذوا الوثنية وأخذت هذه التسمية فيما بعد تدل على جميع الآراميين المسيحيين القاطنين شمالي بلاد الرافدين وفي بلاد الشام ، لا سيما المناطق الشمالية والوسطى منها ، وكانت تحكم المدينة اعتبارا من النصف الثاني للقرن الثاني (ق.م.) اسرة عربية يحمل معظم ملوكها اسم ((أبجر)) . وازداد دور ((أورهي)) الديني واللغوي بانتشار المسيحية وانتشرت معها السريانية شرقا وغربا .

حدث في القرن الخامس الخلاف الشهير بين اليعاقبة والنساطرة بشأن شخص السيد المسيح : ونادى اليعاقبة الذين كانوا يخضعون للبيزنطيين بطبيعة المسيح الواحدة ، اما النساطرة الذين بثوا منهبهم

(*) حول الكتابة السريانية اليعقوبية انظر مجموعة الجداول (ب) رقم ١١ .

( ) وهي الرها عند العرب واديسا عند اليونان وأورفا اليوم ، وتقع جنوبي تركية شرقي نهر الفرات .**

في العراق وفارس والهند ، الخ .. فقد اعتنقوا مبدأ الطبيعتين : الالهية والبشريـــة .

وما حدث من انقسام بين السريان الى يعاقبة ونساطرة واستقرار كل جماعة منهم في أصقاع معينة قد ترك آثاره في اللهجتين وفي الكتابتين ويبدو ذلك جليا في المفردات وفي نطق بعض الحروف وكذلك في ضبط مفردات الجمل الخ ..

وستلعب الكتابة السريانية دورا ملحوظا في تطور القلم العربي . لا سيما في وضع الحركـات .

٢ ـ **لهجة تلمود(*) بابل :** وهي لهجة آرامية شرقية دوّن بها أحبار اليهود بالخط المربع تلمودهم البابلي اعتبارا من القرن الرابع (ميلادي) وحتى القرن السادس .

٣ ـ **اللهجة المنداعية :** وهي لهجة جماعات من أتباع ماني ، كانوا قليلي العدد وسكنوا في جنوب بلاد الرافدين . تتراءى في كتاباتهم الدينية تعاليم زرادشتية وبوذية ومسيحية . والمنداعيون (أي أهل المعرفة) هم الصابئة الذين صادفهم المسلمون بعد فتح العراق .

٤ ـ **اللهجة الحرانية :** نسبة الى حران شمالي بلاد الرافدين . سكنها منذ عهد الاسكندر المقدوني جماعة من الاغريق حيث انتشر فيما بينهم مذهب ديني متأثر بالعقائد البابلية واليونانية . اطلق المسيحيون على المدينة اسم Hellenpolis (مدينة الهلين) حيث رفض اهلها اعتناق المسيحية وظلوا على أمرهم حتى ظهور الاسلام وتسامح معهم الخليفة المأمون واصبحت حران في العهد العباسي مركز اشعاع علمي وفلســفي .

ب ـ **المجموعة الغربية :** وتضم : اليهودية ـ الآرامية ، الفلسطينية ـ المسيحية ، النبطية والتدمرية .

(*) تعني كلمة « تلمود » تعليم وهو عبارة عن مجموعة الشرائع اليهودية التي نقلها أحبار اليهود شرحا وتفسيرا للتوراة واستنباطا من أصولها . وترك لنا أخبار اليهود تلمودين : البابلي ، والاورشليمي . من اجل تفاصيل اوفى ، انظر كتابنا : المدخل الى اللغة الارامية ص ٢٢ ـ ٢٤ .

١ ــ **اليهودية ــ الآرامية** : ويطلق بعضهم على تلك اللهجة اســم « العبرية ــ الآرامية » ، لان لتلك اللهجة صلة وثيقة بالدين اليهودي بعد السبي . ويقول بعضهم « التلمودية » لان ما خلفته هي كتابات « تلمود اورشليم »(*) وهي بالخط المربع (**) .

٢ ــ **الارامية المسيحية ــ الفلسطينية** : وهي لهجة مسيحيي فلسطين وفي مكتبة الفاتكان في روما يوجد مختصر لانجيل مكتوب بتلك اللهجــة .

٣ ــ **النبطية** : وهي لهجة الانباط وكانوا في الاصل من القبائــل العربية التي تقيم في « تيماء » و « مدائن صالح » شمالي غربي الجزيرة العربية . وظهر اسمهم للمرة الاولى في قائمــة آشورية من القــرن السابــع (ق.م) .

كانت المنطقة التي انتشروا فيها من أهم مناطق الشرق الادنــى القديم ، تلك المناطق التي كانت تتحكم بالطرق التجارية التي كانت تسلكها القوافل وهي تنقل منتجات الهند وشرقي افريقية واليمن عبر البحر الاحمر والحجاز فسورية من جهة والخليج العربي والعراق فبادية الشام من جهة اخــرى .

وبتعاظم سطوة الانباط مدوا نفوذهم شمالا واحتلوا المنطقة التي كان يسكنها الآدوميون ، بجبل سعير . ومن أشهر المواقع الآدومية مدينة « سلاع = البتراء » وتعني الصخرة في الآرامية واليونانية ولقد شاع لدى الانباط كما هو معلوم ، طراز جديد لفــن الريازة اشتــمل على مستودعات ومعابد وقبور وغيرهــا مــن الاوابــد والصروح منقورة في الصخر ، مازالت رسومها جلية واضحة في « مدائن صالح » و «البتراء» .

كان الانباط على صلات وثيقة مع بعض مناطق الجزيرة العربية ، بل كانوا أصلا من العرب الصرحاء ، رغم تأثرهم بالآرامية ، لغة وكتابة .

ازدهرت مملكة الانباط بمركزيها البتراء وبصرى من القرن الثالث

(*) عندما يذكر التلمود بدون اية اشارة فيقصدون بذلك التلمود البابلي ، فهو اكثر تكاملا مــن التلمــود الاورشليمي .

(**) بالنسبة للخط المربع انظر مجموعة الجداول (ا) رقم ٤ و (ب) رقم ٣ وفي نفس المجموعة القلم النبطي رقم ٥ والتدمري رقم ٤ .

(ق . م) وحتى مطلع القرن الثاني (ميلادي) قبل أن يحتل الرومان مناطقهم الشامية في عهد الامبراطور « تريانوس » .

لم يندثر الانباط كشعب بعد سقوط البتراء ، بل ان فريقا منهم واصل سيرته الاولى بشكل او بآخر في أرجاء « مدائن صالح وتيماء » وأقام علاقات جديدة مع مراكز التجارة في الحجاز واليمن وكذلك مع تدمر ومصر .

أما بالنسبة لموضوعنا ، فلقد تطور القلم النبطي من القرن الثالث (ميلادي) وحتى نهاية القرن الخامس ولعب دورا ملحوظا في ميلاد الكتابة العربية ، لا سيما الخط النسخي ، ولنا عودة الى تلك النقطة .

٤ **ـ التدمرية** : وتمثلها نقوش مدينة تدمر وكذلك بعض النقوش في مختلف انحاء بلاد الشام وفارس وبلاد الرافدين وفي مواقع اخرى تواجد فيها التجار والجنود التدمريون . وتاريخ أقدم نقش تدمري يعود لعام (٨ ق.م)(*) أما تاريخ اخر نقش تدمري معروف فهو ٢٧٢ (ميلادي)، أي بعد سقوط تدمر نهائيا بيد قوات الامبراطور «اورليانوس» حيث أعتبرت الكتابة التدمرية مظهرا من مظاهر استقلال حاضرة الصحراء ، فمنعوا كتابتها .

ولقد تأثرت مختلف مظاهر الحياة التدمرية بعدة تيارات كما يبدو جليا واضحا من حضارتها المركبة . أما النفوذ العربي فيبدو واضحا في المجال اللغوي نتيجة لوجود عدد كبير من العرب في تدمر وفي عدادهم حكام المدينة ، اضافة للقبائل العربية المتواجدة في مختلف اطراف بادية الشام .

وقبل ان ننهي شرحنا عن مختلف اللهجات والكتابات الآرامية ، نود ان نلقي نظرة خاطفة على بعض اللهجات الآرامية الحديثة .

فما زال قسم من السكان القاطنين بين بحيرة (وان) الواقعة جنوب شرقي تركية وبحيرة (اورميا) في اذربيجان الايرانية ينطقون بلهجات آرامية ويعتنق سواد سكان تلك المناطق المذهب النسطوري . ويحتفظ كذلك السريان اليعاقبة الذين يقيمون في (طور عابدين) ، بين

(*) يوجد نقش تدمري اقدم من ذلك ويعود تاريخه الى (٣٢ ق.م) وعثر عليه في تل الصالحية (دورا اوربوس) .

نصيبين وديار بكر بلهجة آرامية . وكذلك لغة الكلدانيين المقيمين شمالي الموصل ، فهي ضرب من الآرامية .

لتلك اللهجات الثلاث صلة بالسريانية القديمة . ويطلق عليها البعض اسم « الآرامية الشرقية الحديثة » . وفي الواقع ، بعدت هذه اللهجات عن اللغة الآرامية القديمة ، اذ دخلتها مفردات عربية وفارسية وأرمنية وتركية وكردية .

اما في سورية ، فما زالت لهجة آرامية هي اللغة المحكية لسكان ثلاث قرى موزعة شمالي دمشق في منطقة القلمون وهي معلولا وبخعا وجب عدين . ولدى سماع نطق سكان تلك المناطق ، نلاحظ أن المفردات العربية قد دخلتها بغزارة ، ولكن الملاحظ أيضا أن تركيب الجملة والنطق هما أقرب الى الآرامية من العربية .

الكتابة العربية بين الاقلام الآرامية والخط المسند(٣)

من المعلوم انه قد ازدهرت ، منذ نهاية الالف الثاني (ق.م) حضارة عربية قديمة في جنوب الجزيرة العربية ، ولقد طور اقوامها كتابات قريبة من بعضها البعض ، ويطلق على قلم تلك الكتابات اسم « الخط المسند » **وهو أقدم الخطوط المعروفة في شبه الجزيرة العربية . ويسميه البعض بالخط « الحميري »** ، حيث ان الحميريين هم اخر من كتب به علما انه قد سبقهم في ابداعه وتطويره أقوام عربية أخرى من سبئيين ومعينيين وقتبانيين .

ونقرأ كتابات « المسند = الحميري » من اليمين الى اليسار كما هو مألوف في الكنعانية والآرامية والعربية ، كما أننا نقرأه من اليسار الى اليمين على طريقة الكتابات اليونانية واللاتينية والكتابات المتفرعة عن هذه وتلك .

ومنذ نهاية القرن الماضي وحتى يومنا هذا يتزايد عدد النقوش المكتشفة في أواسط شبه الجزيرة العربية وشمالها وفي شرقي الاردن وحوران ، مكتشفات أزاحت النقاب عن ثلاث مجموعات متشابهة من النقوش المنقورة في الصخر ، كتاباتها شديدة الصلة بقلم النقوش العربية اليمنية القديمة . **ولكن مما يلفت الانتباه قرابة لهجات تلك النقوش بما عهدناه في عربية معلقات الشعر الجاهلي والقرآن الكريم** ويمكن تصنيف مجموع النقوش(٤) هذه كالتالي :

أ ــ **النقوش الثمودية :** وقد تم اكتشافها في أماكن مختلفة من وسط شبه الجزيرة وشمالها . ووزعت هذه النقوش على عدة طوائف تتراوح في تاريخها بين القرن الرابع (ق.م) والقرن الخامس (ميلادي) .

ب ــ **النقوش اللحيانية :** وعثر عليها غالبا في منطقة العلا شمالي الحجاز . وتقسم هذه النقوش بدورها الى مجموعتين : القديمة منها والمتأخرة . ويتراوح تاريخ هـذه وتلك بين القرنين الخامس والثالث (ق.م) .

جـ ــ **النقوش الصفوية :** نسبة الى تلول الصفا البركانية الواقعة شرقي اللجاة في منطقة حوران . ويمتد تاريخها من القرن الاول (ق.م) الى منتصف القرن الرابع (ميلادي) .

وكما نلاحظ ، تشمل النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية فترة من الزمن تقارب تسعة قرون ، ولغة تلك النقوش شديدة القرابة الى العربية الصريحة ، التي انتشرت مع الاسلام ، رغم وجود بعض وجوه خلاف من أهمها أداة التعريف . فهذه الطوائف الثلاث (ثمودية ، لحيانية ، صفوية) تستعمل « الهاء » أداة للتعريف(*) في حين ان العربية الفصحى لجأت الى « أل » ، بينما نجد الـ « ن »في اخر الكلمة للتعريف في الكتابات الجنوبية (معينية ، سبئية ، قتبانية ، حميرية) .

ان السؤال الذي لم يخطر على بال الكثيرين ونود طرحه هو التالي : هل ساهم القلم المسند ومشتقاته في ميلاد قلمنا العربي الصريح(**) ؟ لاسيما ان المشابهة قائمة في عديد من حروف المسند ومشتقاته من جهة والحروف الكوفية والنسخية من جهة أخرى فيما اذا اجري تعديل او تسوية في وضع الصور المتقاربة فيما بينها . وللايضاح نورد مجموعتين من الجداول المقارنة : (أ) و (ب) .

وقبل ان نجري مقارنة بين نقوش بعض الجداول في المجموعتين ، نود ان نلخص أهم الاراء حول أصول الكتابة العربية الشمالية .

(*) نجد هاء التعريف في الكنعاني وفي العبرية القديمة وهي احدى اللهجات الكنعانية اصلا : نقرا في (سفر اشعيا) الاصحاح (التاسع عشر ، الفقرة ١٧) : « في ذلك اليوم تكون خمس مدن في ارض مصر تتكلم بلغة وتحلف لرب الجنود يقال لاحداها مدينة الشمس » .

(**) حول القلم المسند ومشتقاته انظر (مجموعة الجداول (أ) رقم ٣،٥) ٦٠، ٧٦، (انظر مجموعات الجداول في اخر البحث قبل اللاحق) .

لا نود ان نسهب الكلام في روايات الاخباريين والكتاب العرب القدماء حول اصول الكتابة العربية الشمالية ، نظرا لان مختلف الآراء حـول هـذا الموضوع لا تشفي غليلنا وذلك لاضطرابها وتناقضها من جهة وللطابع الاسطوري الذي يغلب عليهـا من جهة احرى .

نلاحظ اولا ان سوادهم الاعظم يرى ان القلم العربي نشا في الحيرة ويطلق عليه اسم « الجزم » . جاء في « **القاموس المحيط** » للفيروز آبادي ، في مادة جزم : « والجزم في الخط تسوية الحروف والقلم لا حرف له وهذا الخط المؤلف من حروف المعجم لانه جزم أي قطع عن خط حمير ... » ويذكـر **ابن خلكان(٥)** : « ... انتقل الخط الحميري الى الحيرة في عهد المناذرة » . ويضيف ابن خلدون(٦) في روايته عن اصل الكتابة العربية الشمالية بأن « ... اهل الحجاز انما لقنوها من الحيرة ولقنها الحيرة من التبابعة وحمير من اليمن ... » .

وجاء في « **مصور الخط العربي** » حول اصول الخط العربي وتسميته بالجزم : « ... لان الخط الكوفي كان اولا يسمى « الجزم » قبل وجود الكوفة لانه جزم أي اقتطع وولد من المسند الحميري ومرامر هو الذي اقتطعه ولعله وضع صوره»(٧) .

وجاء في نفس الصفحة : « والخط الكوفي قديم الوضـع ، وضعـه سيدنا اسماعيـل .... »

« ومما يدعم هذه الاقوال في الجزم ، مطابقة عدد حروفه الكاملة لمـا جـاء في الحديث النبوي المروى عن ابي ذر الغفاري قول النبي : يا اباذر ، والذي بعثني بالحق نبيا : ما انزل الله تعالى على آدم الا تسعة وعشرين حرفا » .

اما الحرف التاسع والعشرون فنلاحظه في مجموعة الجداول رقم ب (١ ، ٦ ، ٧ ، ٨) وهو « لا » .

ونلاحظ ان روايات الاخباريين العرب تتضافر على ان الكتابة كانت شائعة بين عرب الحيرة قبيل الاسلام وان بعض الحجازيين عرفوا تلك الكتابة وتعلموها قبل ان يعلموها في ديارهم فيما بعد .

ولكن كما نعلم ، ليس بحوزتنا حتى يومنا هـذا من وثائق لغوية تاريخية ، عربيتها قريبة من عربية المعلقات والقرآن الكريم ، وقلمها يختلف عما وجدناه في المسند ومشتقاته ، سوى بعض الكتابات التي تعد على أصابع اليد تلك الوثائق التي

عثر عليها في المنطقةالنبطية او في تلك التي تمت بصلة الى الانباط أصلا ؛ وهي بلاد الشام .

واقدم هذه الوثائق هو نقش ((**ام الجمال**))(*) الاولى وقد وجد منقوزا بلغة نبطية وبقلم نبطي على شاهد قبر فهر بن شلى (سلي) مربي جذيمة ملك تنوخ(**) . ويرجع تاريخه الى حوالي (٢٥٠ م) وهو تاريخ بدء استعمال القلم **النبطي عند ملوك العرب** (٨) . (انظر مجموعة الجداول ب رقم ٥) . ويرى **جواد** علي ان لهذه الكتابة على قصرها أهمية كبرى وذلك لاشارتها للصلة التاريخية بين الاسر الحاكمة لعرب العراق وعرب الشام(٩) .

والوثيقة الثانية هي كتابة **النمارة**(***) وهي عبارة عن نقش على قبر الملك أمرىء القيس(****) ويرجع تاريخه الى سنة ٢٢٣ من سقوط البتراء(سلاع)**المصادفة لسنة ٣٢٩** (ميلادي)(*****) .والنقش يتألف من خمسة سطور نقشت على بناء مربع والنص مكتوب بالقلم النبطي وبلغة آرامية ولكن بتراكيب عربية . وتكمن اهميته بانه اقدم نص مكتوب بلهجة قوم لسانهم قريب من لغة اهل الحجاز . وقد اختلف

(*) قرية جنوبي بصرى على حدود جبل العرب ، فيها انقاض بيزنطية ونبطية وعربية .

(**) ــ هو جذيمة بن مالك احد اوائل ملوك الحيرة التنوخيين والملقب بالابرش وبالوضاح وينسبه الاخباريون العرب الى العاربة الاولى (راجع الطبري جـ ٢ ، ص ٦١٣) .

(***) ــ موقع في حوران في حرّى الصفا على اكمة في الوادي الممتد بين جبل العرب وسهل الرحبة عند التقائه بوادي السلط ، حيث اكتشف في مطلع القرن ، العالم الفرنسي (دوسو) نقش ((امرىء القيس بين عمرو ملك العرب كلهم ...)) مكتوب بالقلم النبطي المتاخر المتطور الى الخط العربي المبكر . (راجع مجموعة الجاول ب رقم ٥،٦،٨) .

انظر صورة مطابقة للاصل لنقش ((ام الجمال الاولى)) في الملحق (١) ولكتابة النمارة في الملحق (٢) ، وذلك في اخر البحث ، مع دراسة تحليلية .

(****) هو امرؤ القيس البدء او الاول من ملوك المناذرة على الحيرة . وجاء في الطبري انه كان من عمال الفرس)) على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر ببادية العراق والحجاز والجزيرة يومئذ (انظر الطبري جـ ٢ ، ص ٥٣ وما بعدها) .

(*****) سقطت منطقة الانباط بيد الرومان سنة١٠٦ (ميلادي)وباضافة هذا التاريخ الى عام الوفاة الواردة في النص وهو ٢٢٣ ، نحصل بالميلادي على عام وفاة امرىء القيس وهو ٣٢٩ (ميلادي) و (١٠٦ م) هو بدء تقويم بصرى النبطي .

« ولفنسون » و « دوسو » و ((لدزبارسكي)) في ترجمة هذا النص . ويمكن قراءة النص ، آخذين بعين الاعتبار اوجه الخلاف في الترجمة ، كما يلي :

آ ــ « هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي فاز بالتاج » .

ب ــ « وقهر الاسديين ونزارا وملوكهم ، وهزم مذحجا بقوته (*) وقاد » .

ج ــ « الظفر الى اسوار نجران مدينة شمر واخضع معدا واستعمل » .

د ــ « بنيه على القبائل وانا بهم عنه لدى الفرس والروم ، (**) فلم يبلغ ملك مبلغه » .

هـ ــ « في القوة مات سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول(***) وفق بنوه للسعادة » .

والنص الثالث هو نقش « زبد » وهي خربة تقع جنوب شرقي حلب ، بين قنسرين ونهر الفرات ويرجع تاريخه الى ٥١٢ (ميلادي) . والنص عبارة عن كتابات بثلاث لغات : يونانية ، سريانية وعربية قديمة ، سليلة النبطية المتأخرة . (انظر مجموعة الجداول (ب) رقم ٨،٧،٥) ونقشت تلك الكتابات على حجر مثبت في بناية كنيسة . ولكن هذه الكتابات لا تحتوي سوى على اسماء بعض المحسنين الذين اسهموا في بناء الكنيسة . وبعض تلك الاسماء عربية صريحة ، مثل : « مر القس = امرىء القيس ، سعدو = سعد . . . الخ . » .

واما النص الرابع فهو الشهير بـ«كتابة حران(****)» ويرجع تاريخه الى سنة ٥٦٨ (ميلادي) ووجد منقوشا على حجر فوق باب مزار . ويرى بعضهم انه يعود لاحد امراء كندة امر بوضعه بمناسبة تدشين مزار اقيم للقديس يوحنا المعمدان . وتمتاز هذه الوثيقة بكونها مكتوبة بلغة عربية قريبة جدا من عربية الحجاز ، لا سيما لهجة قريش والخط يقترب كثيرا من النسخي القديم . واعتبارا من هذا النص نلاحظ بدايات استقلال الكتابة العربية عن القلم النبطي . (انظر مجموعة الجداول «ب» رقم ٨،٧) .

(*) بعضهم يترجم عوضا عن « بقوته » « الى اليوم » .

(**) ترجم بعضهم « كلهم فرسانا للروم » عوضا عن « لدى الفرس والروم » .

(***) كسلول وهو شهر « كانون الاول » في التقويم الآرامي المتاخر ، لا سيما لدى الانباط واهل تدمر .

(****) حران في اللجاه شمالي جبل العرب .

ولدينا اخيرا نقش « ام الجمال الثانية » وهي الوثيقة الثانية التي عثر عليها في ذلك الموضع. لايحمل تاريخا والرأي السائد انه يعود لنهاية القرن السادس (ميلادي)، حيث ان اللغة تقترب اكثر فاكثر من العربية القرآنية ، مبتعدة في ذلك عن النبطية ، لغـــة وكتابـــة .

من دراستنا لهذه الوثائق الخمس ، نلاحظ انها وجدت في منطقة الانباط او في تلك التي تأثرت بثقافتهم بشكل أو بآخر . وهذا ما دعا الكثيرين الى القول ان الخط النبطي هو اصل الكتابة العربية الشمالية بينما يرى البعض الآخر انه كان للكتابة السريانية دور ملحوظ في تطور القلم العربي الشمالي .

وهكذا ما زال النقاش محصورا اليوم حـــول اثر كل من الكتابتين : النبطية والسريانية على نشوء وتطور القلم العربي الشمالـــي بشكليه : النسخـــي والكوفي (الحيري) . ومن المعلوم ان الكتابتين النبطية والسريانية صدرتا اصلا عـــن القلم الارامي ، كما اوضحنااعلاه . وكنا قد لخصنا راينا حول هذه « المشكلة » كما يلي : « **لا شك انه كان للقلم النبطي الاثر الاكبر في ميلاد الحروف العربية الشمالية ، ولقد** تم ذلك خاصة في المنطقة النبطية ، اي تلك المنطقة التي خضعت فيما بعد في قسمها الاعظم للغساسنة . ولقد بدأ الانتقال تدريجيا من القلم النبطي الى الكتابة العربية الشمالية اعتبارا من القرن الثالث (ميلادي) . اما القلم السرياني فلقد جاء أثره متاخرا ، أياعتبارامن القرن الخامس (ميلادي) وسيظهر هذا الاثر خاصة في كيفية **استعمال علامات الوقف (النقطة،الشدة،الهمزة،الخ...) وفي الحركات أيضا(١٠) »**.

بالنسبة لما جاء اعلاه ، نعتقد بحسب راينا ، ان ما قلناه منذ عدة سنوات ما زال صحيحا باجمال . **امـــا ملاحظاتنا الجديدة فتتعلق بالخط المسند وبالاقلام المتفرعة منه . اي اننا نعتقد ، نتيجة لدراسات مقارنة اكثر اتساعا ، متخطية الراي السائد الى وجهة نظر جديدة ، نعتقد انه ينبغي لنا ان نعيد النظر بما جاء في دراستنا السابقة ،** حيث قلنا : « على كـــل حال ، لا الكتابات اليمنية القديمة ولا الكتابات الشمالية (من لحيانية وثمودية وصفوية) قد لعبت دورا جوهريا في ميلاد قلمنا العربي هذا ، بل ان تطور الكتابات الارامية ، هو الذي افسح المجال لنشوء الخط النسخي والخط الكوفي ، نقول بعض الكتابات الارامية ، لان بعضهم يرى ان القلم السرياني قد كان لهنصيبفي ميلاد قلمنا العربي هذا (١١) » .

وقبل ان نبين وجهة نظرنا الجديدة ، نود اجراء دراسة مقارنة لاقلام ونقوش جداول المجموعات الثلاث (انظر الجداول في اخر البحث) :

١ ــ مختلف اقلام جداول المجموعتين (آوجـ) تتبع ترتيب : ابجد ــ هوز ــ حطي ــ كلمن ــ سعفص ــ قرشت . وهو ترتيب الابجدية الكنعانية المتطورة ،المعروفة بأبجديــة « جبيــل » .

٢ ــ لدينا ستة حروف في الارامي القديم وفي بعض الكتابات المتأخرة المشتقة منه تلفظ قاسية تارة ولينة تارة اخرى بمقتضى قواعد ملزمة وهي:(ب ــ ج ــ د ــ ك ــ ف ــ ت) ؛ فعندما تكون قاسية نلفظها كالاتي : « ب ــ ج «المصرية» دــكــب (آ P اللاتينية) ــ ت » واما لينة فتلفظ كما يلي : ف V الفرنسية والانكليزية ــ غـذـحـفـث » . وبذلك يكون عــدد حروف الابجدية الآرامية وبعض الاقلام المتفرعة منها «٢٢» حرفا وستة حروف روادف .

٣ ــ ذكرنا للمقارنة ترتيب مختلف جداول المجموعة «ب» كما عهدناه فيالابجدية العربية المتطورة ، بينما ترتيبها الاصلي هو ما جاء معنا سابقا وكمــا هو مذكور في جداول المجموعتين (آ و جـ) .

٤ ــ من الملاحظ عدم وجود حرفي الضاد (ض) والظاء (ظ) في الابجدية الكنعانية المتطورة وفي الابجدية الآرامية ، وكذلك في مختلف الكتابات المشتقة منها ، بينما نجد هذين الحرفين في كتابات الخط المسند وفي اغلب الاقلام المتولدة منــه (لحيانية ، ثمودية ، صفوية) .

وقالوا ان العربية هي لغة الضاد .

اما بالنسبة لحرف الظاء (ظ) ، فلقد جاء في **لسان العرب** لابن منظور في باب (الظاء ـ ظ) « ... ان الخليل قــال : الظاء حرف عربي خص بــه لسانالعرب لايشاركهم فيه احد من سائر الامم ... ولا يوجد في كلام النبط ، فاذا وقعت فيــه قلبوها طاء . » .

وقولنا هذا لايعني مطلقا ان مختلف اقوام بلاد الشام والرافدين وغيرهم في عالمنا العربي القديم ليسوا عربا اولا يمتون بصلة الى العرب ، بل مرادنا هو طرح سؤال

لم يخطر على بال الكثيرين وعنينا به : **هل كان للقلم المسند وفروعه دور في ميـلاد قلمنا العربي الشمالي الذي بسط اسبابه مع العرب المسلمين .**

٥ ـ نلاحظ التقارب التدريجي ثم تشابه اغلب حروف جداول المجموعة « ب » ذات الارقام (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) التي تبين تتابعا الاقلام التالية : « النبطي ـ النمارة ـ زبد وحران ، عربي قديم » وسيلعب هذا الاخير دورا ملحوظا في تطور الخـط النسخي اللين .

٦ ـ نشاهد تقارب بعض حروف الخط العربي القديم وبعض حروف الاقـلام السريانية الثلاثة : الاسطر الانجيلي وهو اقدمها ثم السرياني الشرقي « نسطوري »(*) فالسرياني الغربي « يعقوبي » . (انظر جداول المجموعتين « ب » و (جـ » لاسيما في الحروف التالية :

« ا » ـ مقارنة العربي القديم مع الجدول (١١) من المجموعة « ب » والجداول (٥ ، ٦ ، ٧) من المجموعة « جـ » .

« ج » ـ مقارنة العربي القديم مع الجدول (٩) من المجموعة « ب » والجداول (٤ ، ٥) من المجموعة « جـ » .

« د » ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٤ ، ٥) من المجموعة « جـ » .

« ص » ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٩ ، ١١) من المجموعة « ب » .

« ع » ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٩ ، ١١) من المجموعة « ب » .

« ف » ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٤ ، ٥ ، ٦) من المجموعة « جـ » .

« ق » ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٤ ، ٥ ، ٦) من المجموعة « جـ » .

« ل » ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٩ ،١١) من المجموعة «ب» والجداول (٤ ، ٥ ، ٦) من المجموعة « جـ » .

« م » ـ مقارنة العربي القديم مع الجدول (١١) من المجموعة « ب » .

(*) بعضهم يطلق على هذا الخط اسم « الكلداني » وكما نلاحظ من جداول المجموعة « جـ » فانه اقرب الى الاسطرنجيلي من الخط الغربي « يعقوبي » المعروف بالسرطو .

«ن» ـ مقارنة العربي القديم مع الجدول (١١) من المجموعة « ب » .

«و» ـ مقارنة العربي القديم مع الجدول (٤) من المجموعة « جـ » .

«ي» ـ مقارنة العربي القديم مع الجدول (١١) من المجموعة « ب » .

عندما نقول « عربي قديم » فنعني بذلك الجدول (٨) من المجموعة « ب »وجدول (٢) من المجموعة « جـ » . ما الذي يمكننا استنتاجه من المقارنة السابقة ؟! نقول انه مع وجود تشابه جزئي لبعض حروف العربي القديم والاقلام السريانية الثلاثة (أسطرنجيلي ، شرقي ، غربي) ، فان هذا التشابه يبدو ضئيلا محدودا لدى المقارنةمع ماشاهدناه من تقارب تدريجي ثم تشابه اغلب حروف جداول نقوش : النبطي ـــ النمارة ـــ زبد وحران ـــ عربي قديم ، كما جاء معنا في الملاحظة السابقة (رقم ٥). **وبتعبير آخر ، لم تلعب الكتابة السريانية بمختلف خطوطها دورا ذا شان في نشوء وتطور القلم العربي ، لاسيما النسخي منه ، بل كان للكتابات النبطية النصيب الاوفى في هذا النطاق** . وقد انتبه الى هذا الامر عديد من الباحثين الغربيين والعرب ، وذلك منذ عشرات السنين(١٢) .

٧ ـ يقول المرحوم (اغناطيوس يعقوب الثالث) « بطريرك انطاكية وسائر المشرق » :

« ... بل اثر النحو السرياني في النحو العربي بالذات : ذلك أن ابا الاسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٩ هـ استعان في وضع نحوه ببعض علماء اللغة السريانية في الكوفة ، ثم اقتبس النقاط التي تتميز بها الكلمات ، فالحركات التي كان قد استنبطها مار يعقوب الرهاوي الانف الذكر قبيل ذلك الزمان . هذا فضلا عن الخط العربي الكوفي الذي اقتبسه العرب في القرن الاول قبل الاسلام من الخط السرياني الاسطرنجيلي ، فاستعمل بعدئذ لكتابة القرآن الكريم شأن الاسطرنجيلي عند السريان بالنسبة الى الانجيل الشريف ... »(١٣)

لاندري هل نوافق كليا على ما جاء في السطور القليلة السابقة ؟! ... اي هل نذهب مذهب المدافعين عن نظرية : آرامي ← اسطرنجيلي ← حيري ← كوفي .

وبذلك نهمل دور الخط المسند والكتابات المتفرعة منه في تطور قلمنا العربي

بشكليه : الكوفي والنسخي . اننا لن نقطع بالامر قطعا قبل عرض وجهة نظرنا نتيجة لدراسة مقارنة لمختلف جداول النقوش (انظر المجموعات والملاحق في آخر البحث) . ويجب أن لايغيب عن ذهننا أمر آخر ، الا وهو التسلسل الزمني لمختلف النقوش والكتابات ، **ومن المنطقي أن يقتدي التابع بالسابق وليس بالعكس . ولذلك عندما نجد تشابها او تقاربا بين نقشين او حرفين ، علينا أن نطلب الاصل** . وتلكم بعض الملاحظات على مختلف الجداول والنقوش :

١ ـ في (الصفحة « أ » من الملحق (١)) يذكرنا حرف الـ « هاء » **بالارامي اليدوي والثمودي والصفوي** ، ولا علاقة لهذا الحرف بتة بالخط الاسطرنجيلي والكتابات المتفرعة عنه « السريانية » .

وكما هو معروف : **ورث السطرنجيلي والسرياني الكتابات السابقة** .

٢ ـ في (الصفحة « ب » من الملحق (١)) حرف الـ « ش » **يقترب من الارامي اليدوي والثمودي والصفوي** ، ولا علاقة لهذا الحرف بتة بالخط الاسطرنجيلي اي هذا الشكل صدر عن الارامي (يدوي وتدمري) أو عن الثمودي . ومن الجائز أن يكون الطرفان قد لعبا دورا في ذلك .

٣ ـ في (الصفحة « ب/جـ » من الملحق(١)) حرف الـ « و » في السرياني (شرقي وغربي) شبيه بما هو عليه **في المسند واللحياني والثمودي والصفوي** .

٤ ـ في (الصفحة «جـ» من اللحق (١)) نجد حرف الـ «ب» مماثلا لنظيره **في الارامي اليدوي وفي الثمودي والصفوي وهو مخالف لما هو عليه في الاسطرنجيلي والسرياني بفرعيه** .

٥ ـ في (الصفحة « جـ » من الملحق (١)) : حرف الـ « ر » **ناتج من المسند وفروعه** وشبهه محدود مع الاسطرنجيلي ولا علاقة لشكله بالسرياني بفرعيه (شرقي ، غربي) .

٦ ـ في (الصفحة « د » من الملحق (١)) حرف الـ « ل » **ياخذ عن الصفوي وعن هذا الشكل المتطور ياخذ السرياني الغربي** .

٧ ــ في (الصفحة « و » من الملحق(١)) : حرف الـ « خ » مأخوذ عن الصفوي مع تعديل طفيف .

٨ ــ في (الصفحة « ب » من الملحق(٢)) حرف الـ « ق » **يقترب من المسند واللحياني والثمودي والصفوي** وكذلك من الكنعاني المتطور ولا نرى هذا في القلم الارامي وفروعه أي أن **صانع النقش نقل عن المسند وفروعه** .

٩ ــ في (الصفحة « د » من الملحق(٢)) **نجد تشابها بين شكل حرف الـ « ك » ونظيريه : الآرامي المربع والصفوي** . وفيما بعد في الاسطرنجيلي والسرياني الشرقي والحيري الكوفي .

١٠ ــ في (الصفحة « هـ/و » من الملحق(٢)) نجد دراسة وافية لشكلي الـ « د » والـ « ذ » **ونجد أثر الثمودي والصفوي في نشوء الشكل** .

١١ ــ في (الصفحة « و » من الملحق(٢)) نجد شكلا لحرف الـ « لام » **لانفرقه مطلقا عما هو عليه في النقوش الثمودية والصفوية** . بينما لا اثر لهذا الشكل في الاسطرنجيلي والسرياني بفرعيه . **وجاءت الكتابات الثمودية والصفوية قبل نقش « النمارة »** .

ماهي النتائج المنطقية التي يمكن استخلاصها من مختلف الملاحظات التي اوردناها، نتيجة للدراسة المقارنة :

اولا ــ لاحظنا تقارب بعض حروف القلمين « التدمري المتأخر » و « النبطي القديم » .

وهذه الحروف هي : ت ــ ح ــ د ــ ر ــ ز ــ ش ــ ص ــ غ ــ ف ــ ك ــ ل ــ م .

والامر منطقي ، اذ تنتسب اشكال هذه الحروف الى ارومة واحدة الا وهي الكتابة الارامية الاولى . (انظر مجموعة ب ، جداول ٣ ، ٤ ، ٥) . وعندما نقول

« تدمري متأخر ، فنعني بذلك تلك النقوش التي تعود بتاريخها الى مطلع (القرن الثاني ميلادي وحتى سقوط تدمر عام ٢٧٢ ميلادي) حيث يتوقف أهل تدمر عن الكتابة بقلمهم ، كما ألمحنا سابقا .

اما بالنسبة للقلم النبطي ، فلقد رأينا أن دولتهم سقطت بيد الرومان عام (١٠٦ ميلادي) ، وبسقوط البتراء ، تراجع الانباط الى مراكزهم الاصلية وهي مناطق تبوك ، وتيماء ومدائن صالح . **وبذلك ضعفت علاقاتهم مع بلاد الشام حيث اللغة والكتابة الارامية ، وأخذوا يخضعون لتأثيرات جديدة من جيرانهم العرب في شمال الحجاز ، ونخص بذلك الثموديين** . ومن هنا دور الكتابة الثمودية في تطور القلم النبطي ، **الذي أخذ يبتعد تدريجيا عن أرومته الاولى « الارامية » ويقترب أكثر فأكثر من القلم المسند وفروعه (لحياني ، ثمودي ، صفوي)** مما يقودنا الى النتيجة الثانية .

ثانيا — من المعلوم أن الانباط قد اشتهروا بنشاطهم التجاري . وقلنا سابقا أن الانباط لم يندثروا كشعب بعد سقوط البتراء عام (١٠٦ ميلادي) بيد الامبراطورية الرومانية ، بل ان فريقا منهم واصل سيرته الاولى وأقام علاقات تجارية جديدة مع مختلف مراكز التجارة في الجزيرة العربية ، **ومنها اليمن ، وكذلك مع تدمر ومصر** .

ومن الممكن ان يكون الرومان قد ضيقوا على الانباط في الفترة الاولى ، بعد الاستيلاء على مناطقهم الشامية ، ثم أخذت الحياة مجراها الطبيعي من جديد ، فسمحوا لهم باقامة علاقات تجارية مع المناطق الجنوبية لبلاد الشام ، حيث الكتابات الصفوية ، **ومن هنا كان التأثير المتبادل بين القلمين : « النبطي المتاخر » و « الصفوي »** .

وبضعف علاقاتهم القديمة مع بلاد الشام ، بعد سقوط دولتهم عام (١٠٦ ميلادي) ، **راح الانباط يخضعون لمختلف مظاهر الحياة والثقافة القائمة في الجزيرة العربية ، ومنها الخط المسند ، في نهاية الدور الحميري الاول وخلال الدور الحميري الثاني** . (٢٥٠ — ٤٠٠ ميلادي) ، أي خلال « دولة التبابعة » ، وفي تلك الحقبة نلاحظ ابتعاد القلم النبطي تدريجيا عن اصله الارامي واقترابه من القلم الحميري « المسند » بفروعه وخطوطه المختلفة . ونقول جازمين انه كان للانباط قسط وافر في نشر القلم المسند ، بمختلف كتاباته في مختلف اطراف الجزيرة العربية ، لا سيما

الشمالية الغربية منها والشرقية . ففي الاطراف الشرقية ، كانت الحيرة والانبار من جهة العراق وفي البقاع الغربية وجدت الوثائق التي تعطينا فكرة عن تطور الخط النبطي ، وابتعاده تدريجيا عن الارومة الارامية ليقترب من مختلف خطوط المسند . بل اكثر من ذلك ، يمكننا القول أن الخط المسند وفروعه ، لاسيما الثمودي والصفوي ، **ان مختلف تلك الكتابات قد لعبت دورا ملحوظا في تطور الاسطرنجيلي والسرياني بفرعيه . وهذا يقودنا الى النتيجة الثالثة .**

ثالثا ــ نقول أن كتابات الخط المسند وفروعه (صفوي وثمودي) قد لعبت دورا معينا في تطور الاسطرنجيلي والسرياني بفرعيه . قد يتساءل البعض مدعيا أن هذا مغاير لكل ماهو متعارف عليه حتى يومنا هذا . **وجوابنا على ذلك ان الخط المسند بفروعه المختلفة ، قد وجد قبل القلم السرياني الشرقي والغربي بقرون عديدة .** وكما رأينا ، لعبت خطوط المسند والصفوي والثمودي دورا ملحوظا في تطور القلم النبطي ، ولذلك كان تأثير المسند بمختلف خطوطه على القلم السرياني **مباشرة أو بواسطة القلم النبطي** ، ولنذكر بعض الامثلة :

١ ــ تأثير المسند ... وفروعه على الاسطرنجيلي :

حرف ال « ب » الاسطرنجيلي نجده في الثمودي والصفوي .
حرف ال « أ » نجد أصله مع تعديل طفيف في الثمودي والصفوي .
حرف ال « و » نجد أصله مع تعديل طفيف في المسند وفروعه المختلفة .
حرف ال « ي » نجد أصله مع تعديل طفيف في المسند وفروعه المختلفة .
حرف ال « ك » نجد أصله مع تعديل طفيف في الصفوي .

٢ ــ مسند وفروعه ← على السرياني الشرقي :

حرف ال « ب » نجد قريبا من شكله في الصفوي .
حرف ال « و » نجد قريبا من شكله في المسند وفروعه .
حرف ال « ك » نجد قريبا من شكله في الصفوي .
حرف ال «م » نجد قريبا من شكله في الثمودي والصفوي .

٣ ــ مسند وفروعه ← على السرياني الغربي :

حرف ال « ب » تأثير مباشر وعن طريق القلم النبطي .

حرف الـ « و » مسند ← **نبطي** ← نمارة ← سرياني غربي .
حرف الـ « ح » نجد الشكل مقلوبا في الثمودي والصفوي .
حرف الـ « ل » نجد الشكل مع تسوية بسيطة في الثمودي .

وعندما نقارن « الحيري ـ الكوفي » بالاسطرنجيلي والعربي القديم المتطور عن النبطي المتأخر والنمارة و « زبد وحران » **نجد أن الكوفي أقرب الى العربي القديم من الاسطرنجيلي** . (انظر مثلا ملحق رقم ٧) .

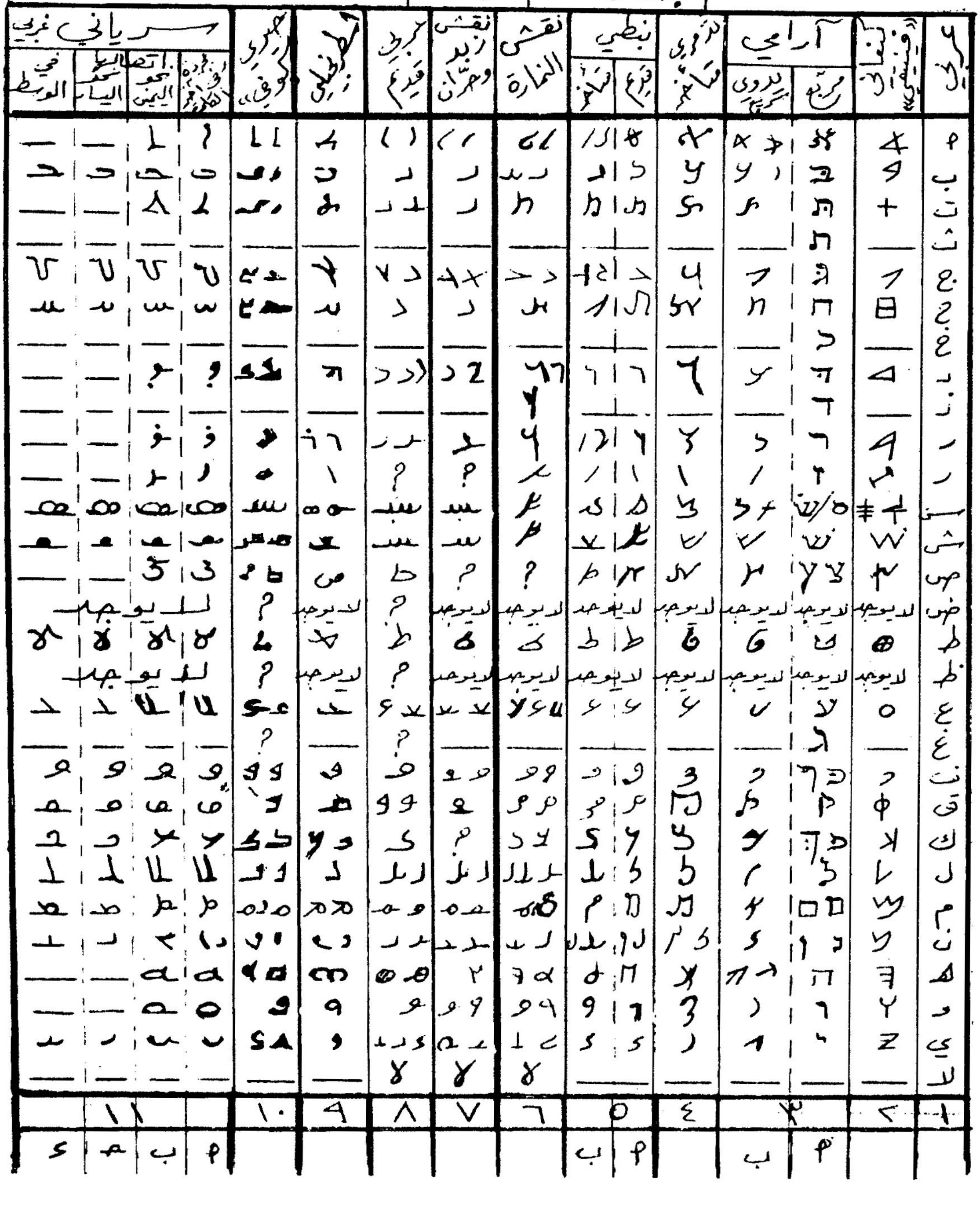
قلنا ان الانباط لعبوا دورا في نشر القلم المسند في مختلف اطراف الجزيرة العربية ، لاسيما الاطراف الشمالية : الغربية منها والشرقية وكذلك في المناطق العراقية والشامية المتاخمة للجزيرة العربية . ولكن هناك عاملا ثانيا كان له دور في هذا المضمار ، ونعني بذلك نسب اغلبية القبائل التي حلت بالمناطق الشمالية الغربية والشرقية من الجزيرة والمتاخمة للعراق وبلاد الشام ، وذلك اعتبارا من القرن الثاني (ميلادي) **وعنينا بذلك الغساسنة والمناذرة وبني كندة ... الـخ . فجميع هؤلاء يعودون** باصولهم الى اليمن ، حيث موطن القلم المسند الاول ، الذي **اخذ يتطور اعتبارا من القرن السابع (ق٠م)** . ولقد اقترن مجيء هؤلاء بتراجع الانباط الى موطنهم الاول . فكان التأثير المتبادل بين الطرفين . **ولا نعتقد أن كبار** القوم من مناذرة وغساسنة ومن بني كندة ، كانوا على جهل تام بالقلم المسند ، **قلم موطنهم الاصلي** ، ومن هنا يمكننا ان نفهم سر استعمال خطوط الوثائق التي هي مجال دراستنا . **فالنقوش المستعملة ليست بالآرامية الصرفة ، بل هي قلم نبطي متطور ، ابتعد بتطوره عن أرومته الاولى واقترب من قلم الملوك والامراء وكبار القوم، اي أخذ يهجر القلم الارامي لصالح المسند وفروعه ، وعن هذا التطور المعقد سينمو قلمنا العربي ، تدريجيا ، اعتبارا من القرن الثالث (ميلادي) وحتى فجر الفترة العربية الاسلامية** ، في فترة كانت الكتابة الرسمية للدولة الحاكمة في سورية (بيزنطية) القلم اليوناني ، مع أن الكتابة السريانية كانت كتابة السكان المحليين ، ولكن تطورها كان بطيئا حتى القرن السادس (ميلادي)، اذ أن البيزنطيين نظروا اليها نظرة حذر وريبة ، لما كان من خلاف بينهم وبين السكان المحليين وفي مقدمتهم الكنيسة السورية . وهذا هو السبب الذي جعل عدد الكتابات السريانية في بلاد الشام يعد على الاصابع ، في فترة كانت السريانية الشرقية تنمو وتزدهر في المنطقة الشرقية ، حيث تسامح مع أهلها الساسانيون ، الذين كانوا يزاحمون البيزنطيين في السيطرة على سورية .

جداول رقم ٩

الترتيب العربي الكامل للحروف بحسب تسلسل (أبجد - هوز - حطي - كلمن - سعفص - قرشت) وما يقابله في بعض الخطوط القديمة

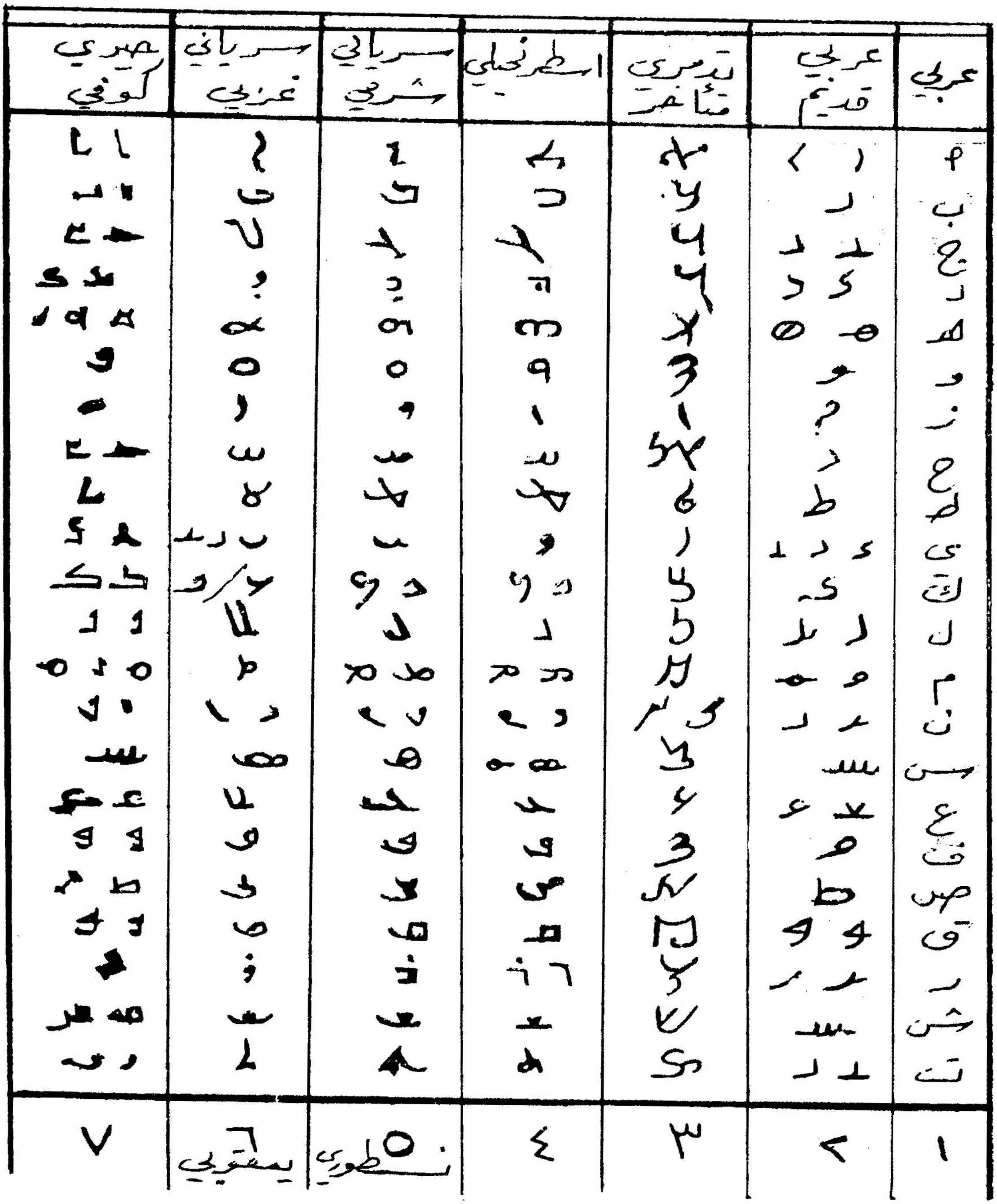


جداول رقم ب

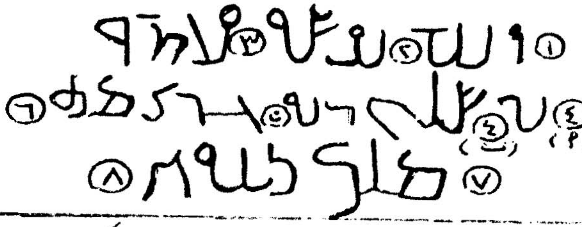


سرياني غربي
في الوسط
اتصال نحو اليسار
اتصال نحو اليمين
مجردة أو في أول الكلمة
حميري كوفي
عربي قديم
نقش زبد وحران
نقش النمارة
نبطي
تدمري متأخر
آرامي
مربع
لا يوجد
ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و ي لا
١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١
أ ب ج د

جداول رقم ج



عربي
عربي قديم
تدمري متأخر
اسطرنجلي
سرياني شرقي
سرياني غربي
عبري كوفي
ا ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت
١
٢
٣
٤
٥ نسطوري
٦ يعقوبي
٧



شكل ١ - نقش «أم الجمال الأولى» بكتابة نبطية (انظر الجدول رقم ٥ من المجموعة ب) ومفردات آرامية وعربية.
وهذا نصه مع الترجمة العربية:

« دنه   نفشو   فهرو
هذا   قبر   فهر
①   ②   ③

« بر شلي   ربو   جذيمة
بن سلى   مربي   جذيمة
④(أ)   ④(ب)   ⑤   ⑥

« ملك   تنوخ »
ملك   تنوخ
⑦   ⑧

دراسة تحليلية للنقش: «ه» «T» «ن» «ل» «د» «٦» ① = حرف (٦) نبطي متأخر (مجموعة ب، جدول ٥) - حرف (ل) نبطي متأخر - حرف (T) هو أقرب الى الآرامي اليهودي (ﻫ) (مجموعة ب جدول ٣) ويذكرنا مع تعديل بسيط بالثمودي والصفوي (مجموعة م جداول ٦ - ٧) وهو كالتالي ( ) وكذلك بالمسند ( ).

«ل» «ن» «و» «ف» «ش» «و» «و» ② = حرف (ل) نبطي قديم (مجموعة ب - جدول ٥) - و (ف) حرف نبطي قديم (مجموعة

ب، جدول ٥) . ونستطيع مشاهدة من شكل هذا الحرف في القلم السرياني بمختلف خطوطه (مجموعة ب، جداول ٤، ٥، ٦) وكذلك في الخط الحيري «الكوفي» (مجموعة ج، جدول ٧) - حرف (ك) نبطي قديم (مجموعة ب، جدول ٥) ، وأقرب نقش الى شكل هذا الحرف نجده في القلم الثمودي (مجموعة ا، جدول ٦) وهو كالتالي (ﻛ) - (٩) حرف (و) . نبطي متأخر (مجموعة ب، جدول ٥) وقد يكون متأثراً بسابقه . الآرامي المربع (٦) (*) ونرى شكل الحرف النبطي المتأخر في مختلف كتابات «النمارة، زبد وحران (**)، عربي قديم نسخي، اسطرنجيلي وحيري كوفي» . ومما يلفت الانتباه الى شكل حرف «الواو» في الكتابات السريانية بالشرقية

(*) حينما أهمل الآراميون القلم الكنعاني المتطور «فينيقي»، كما قال الاغريق (مجموعة ب، جدول ٢) ليطوروا كتابة خاصة بهم . كان الخط اليدوي (السريع) الذي ساد حتى نهاية القرن الثالث (ق.م.) . حيث أخذت كتابات ولهجات آرامية مختلفة، أشرنا اليها أعلاه . تظهر لتتطور وتشترط الخط المربع (مجموعة ب، جدول ٣ «ا، ب») .

(**) النقوش النبطية القديمة ترجع الى القرن الأول (ق.م.) والمتأخرة الى القرن الثالث (م) . ثم تطور هذا الخط ليعطي العربي القديم ومنه النسخي .

منظر من الغربية «○○» انه قريب من شكل لهذا الحرف في كتابة القلم المسند وفروعه . مع اجراء تسوية طفيفة «⊖⊕» (مجموعة م . جداول ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧) . ومن المستحيل أن تكون كتابات المسند وفروعه قد اقتبست الشكل من الكتابات السريانية . لأن الأولى سبقت الثانية بعدة قرون .

«ف» (ف) = «فـ» «ה» (هـ) ، «ד» (ر) = «ד» «٩» (و) =

(٣)

ف (ف) انظر أعلاه . (ـل) اما أن نعتبرها (ألف) وعندئذٍ نقرأ الاسم «فالحرو» عوضاً عن «فـحرو» أو نعتبرها خط فاصل بين حرفين ، وهذا أمر مألوف في الكتابات القديمة وعندئذٍ يكون الاسم «فـحرو» ، «ה» (هـ) نبطي قديم والحرف مائل قليلاً (مجموعة ب ، جدول ٥) ، وهذا الشكل هو أقرب ما يكون الى الآرامي المربع (مجموعة ب ، جدول ٣) - «ד» ، (ر) نبطي قديم متصل بحرف الراء قبله - «٩» (و) نبطي متأخر مع تسوية بسيطة بسبب النقر في الصخر .

«ب» (ب) «ר» (ر) = وتعني كلمة (بَرْ) في الآرامية القديمة وفي اللهجات المتفرعة منها من نبطية (٤)(٤) ومناعية وتدمرية وسريانية وكذلك في السبئية

الجنوبية . تعني هذه الكلمة «ابن»، «ل»، (ب) نبطي متأخر
(مجموعة ب ، جدول ٥)، وسيتراءى شكل هذا الحرف في
كتابات «النمارة . زبد وحرّان . عربي قديم . مصري (كوفي)، نسخي»
(مجموعة ب ، جداول ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠). ونجد شكلاً قريباً
لهذا الحرف في النقوش الصفوية (مجموعة أ ، جدول ٧)
بينما لا أثر له في القلم السرياني بمختلف خطوطه؛ «ما» (ر)
نبطي متأخر (مجموعة ب ، جدول ٥ ، ٦ ، ٧).

«ش» (ش) نبطي = «ش» (ش)، «ل» (ل)، «م» (ي) / (ب) ٤

قديم (مجموعة ب ، جدول ٥)، وأقرب شكل لهذا الحرف ما
نجده في كتابات «الآرامي اليدوي والتدمري المتأخر» (مجموعة
ب ، جداول ٣ ، ٤) ـ «ل» (ل) نبطي متأخر (مجموعة ب ،
جدول ٥) ، ونجد صوراً قريبة من هذا الشكل في كتابات
«النمارة . زبد وحرّان ، عربي قديم ، مصري كوفي ، عربي نسخي ،
مختلف الكتابات السريانية» (مجموعة ب ، جداول ١ ، ٧ ، ٨ ،
٩ ، ١٠ ، ١١) وكذلك في النقوش الثمودية والصفوية (مجموعة
أ ، جداول ٦ ، ٧) ـ «م» (ي) نقش النمارة (مجموعة
ب ، جدول ٦) وكذلك في كتابات «زبد وحرّان (جدول ٧)

ملحق (١) « ك »

«٦» (ر) ، «ل» (ب) «٩» (و) = «٦» (ر) نبطي قديم

(٥)

(جدول ٥ من المجموعة ب) - «ل» (ب) و «٩» (و) أنظر أعلاه.

ونقول في العربية «ربّ ربّاً القوم: ساسهم وكان فوقهم».

«٢» (ج) «٦» (د = ذ) ، «ک» (ي) ، «ﻣ» (م) «ﻫ» (هـ) =

(٦)

«ト» (ج) نبطي متأخر (مجموعة ب، جدول ٥) - «٦» (د = ذ)، عندما أشرنا الى حرف «ذ» في جدول الآرامي المربع جئنا بحرف «د = ٦» خالية من النقطة (الشدة الخفيفة) «٦ = ذ» وقلنا ان حرف «د» هو من الحروف الستة الروادف - «ک» (ي) نبطي قديم (مجموعة ب، جدول ٥) - «ﻣ» (م) نقش النمارة (مجموعة ب، جدول ٦) وسنجد شكل هذا الحرف في الاسطرنجيلي (ﻣ) وفي السرياني الشرقي (ﻣ ﻣ) مع بعض التعديل - «ﻫ» (ـه عوضاً عن ـة) نبطي قديم (مجموعة ب، جدول ٥)، ونجد (ـه) عوضاً عن (ـة) مربوطة في عديد من الاسماء الآرامية القديمة.

«ﻣ» (م) ، «ﻟ» (ل) ، «S» (ك) = حرف «ﻣ»

(٧)

(م) انظر آنفاً - حرف «ل» انظر سابقاً - «S» (ك)

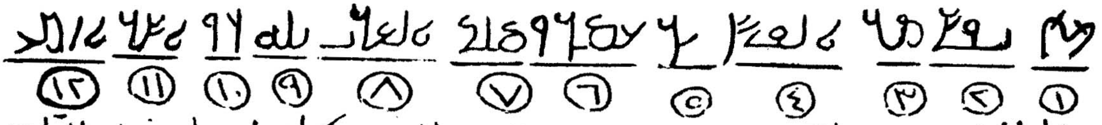
نبطي متأخر (مجموعة ب، جدول ٥)، ونجد شبيهاً لهذا الشكل في كتابات « النمارة، عربي قديم، اسطرنجيلي، سرياني شرقي، حبري كوفي » بينما هذا الشكل لا يتطابق مع كتابات السرياني الغربي. ويمكن ذلك يقترب، مع تعديل طفيف، من نقوش الخط الصفوي (مجموعة أ، جدول ٧).

« ك » (ت) « له » (ن) ؟ (و)، « ﺣ » (ح نبطية أم خ صفوية؟)

⑧ « ك » (ت) نبطي قديم مع اهمال جزء من شكل الحرف (مجموعة ب، جدول ٥). فعوضاً أن يكون « ك » أصبح « ک » - حرفاً « له » (ن) و « ٩ » (و)؛ انظر أعلاه - « ﺣ » (ح) هل نقرأ هذا الحرف (حاء) وتكون النتيجة « تنوح » عوضاً عن « تنوخ » أي هل نقرأه « حاء » آرامية - نبطية؟! ونتساءل عن سبب عدم لجوء كاتب النص أو بالأحرى صانعه الى حرف « الكاف » المهملة، أي بدون نقطة (شدة خفيفة) ونلفظها حينئذٍ « خاء » أم أن شكل هذا الحرف « ﺣ » ليس سوى أحد أشكال « الخاء » الصفوية « ﺣ » مع تسوية طفيفة (مجموعة أ، جدول ٥).

نحن لا نتردد فصانع النقش أراد أن يقول (تنوخ) وبذلك لجأ الى الـ « خ » الصفوية؛ نقول ذلك لأن بعضهم تردد بين « تنوح » و (تنوخ) » (انظر مثلاً: جواد علي، جـ ٧ ص ٢٧٣)

(*)



دنا نفش مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التاج

شكل ٢ - السطر الأول من نقش «النمارة» (انظر اشارتنا أعلاه الى الوثائق الخمس).

دراسة تحليلية للنقش: نلاحظ اتصال الحروف في الكلمة أكثر مما رأيناه في نقش «أم الجمال الأولى»، في الملحق (١) « م ». واليكم تحليل النقش. ولم نأخذ من الوثيقة سوى السطر الأول، وسننشر دراسة عن السطور الأربعة الباقية، في دراسة لاحقة.

الحروف الثلاثة نجدها في (م) « ٧ » (ن) « ل » (د) « ٦ » جدول كتابات «النمارة»①، (مجموعة ب، جدول ٦). ولجأنا أعلاه الى تجزئة كلمة (م = دنا = هنا) الى حروفها (د ن م). ولاحظنا في النقش السابق «أم الجمال الأولى» انه اسم الاشارة انتهى بحرف «الراء»، عوضاً عن الألف كما هو عليه في نقشنا هذا. وفي

(*) ترجمة النقش: (دنا = هذا) (نفش = نفس بمعنى قبر) (مر = امرئ) القيس (بر = ابن، بن) عمرو ملك العرب (كله = كلهم) (ذو = الذي) (اسر = نال، قبض على) التاج.

الحقيقة يجوز الشكلان. وجاء في باب اسم الاشارة في دراستنا «المدخل الى اللغة الآرامية»: «واسماء الاشارة التي تدل على القرب هي: דְּנָה (وأحياناً דְּנָא) للمفرد المذكر. والشكلان بمعنى «هذا» والشكل الأول ينتهي بـ«الهاء» والثاني بـ«الألف»».

«ل»، (ن)، «٩» (ف)، «ﺸ» (ش) (س) ② =؟ نقول في الآرامية «نَفْشْ»، وفي العربية «نفس». والملاحظ ان صانع النقش يلجأ الى هذا الشكل «ﺸ» ليعبّر عن حرفي «الشين» و«السين» علماً انه توجد في الكتابات الآرامية ومنها (التدمرية والنبطية والسريانية بمختلف خطوطها) صور حروف لتعبّر عن حرف «السين». ونعتقد انه صانع النص أراد أن يقول «نفس»، أي انه أهمل اللهجة الآرامية «نَفْشْ»، ودليلنا على ذلك حذف حرف «الواو» وهي علامة الرفع في النبطية. كما جاء معنا في نقش «أم الجمال الأولى»، أي اننا أخذنا «نامح» لهجة الحجاز وقريش.

«ر»، «٦» (م)، «ﻣ» ③ = نجد الحرفين في جدول «النمارة».

(س) «ﺸ»، (ي) «ـ»، (ق) «ﻍ»، (ل) «ـﻟ»، (م) «ﻬ» ④ = ٥ (م) ل (ل) - ﻍ (ق) انظر جدول النمارة، ونجد اشكالاً قريبة

ملحق (٢) «جـ»

في كتابات المسند والمتفرعة منه (مجموعة أ، جداول ٢، ٥، ٦، ٧).

بينما الشبه غير وارد في مختلف الخطوط السريانية وبالرغم ذلك نجد تشابهاً مع تعديل بسيط في «العربي القديم» وفي «الحيري الكوفي» «ـد» انظر جدول النمارة وكذلك العربي القديم والسرياني الغربي، «ـلا»، (ـس)، انظر أعلاه. كما نرى، تبدأ أداة التعريف «أل» بالظهور في الكتابات، وهذه الأداة خاصة بعربية قريش القرآنية بينما يستعمل اللحيانيون «الهاء» كأداة تعريف وهذا الأمر معروف في الكنعانية وفروعها ومنها «العبرية»، بينما تظهر «النون» في آخر الكلمة كأداة تعريف لدى اليمنيين القدماء.

«لـ» (ب) «لا» (ر) = «لـ» (ب)، «لا» (ر) «بن»، وتعني كلمة (بر) لما رأينا ابن (٥). انظر أعلاه وكذلك جدول (نقش النمارة من المجموعة ب).

«لا» (ع) «ڡ» (م) «لا» (ر) «٩» = «لا» (ع) يذكرنا هذا الشكل بالآرامي المربع (٦) (مجموعة ب، جدول ٣) ولا يحاكي إلا قليلاً حروف الكتابة السريانية بمختلف خطوطها (مجموعة جـ، جداول ٤، ٥، ٦)، بينما نجد تشابهاً في النقوش التالية: «تدمري، نبطي، نمارة، زبد وحران، عربي قديم، حميري لوقي» (انظر المجموعة ب)

ملحق (٢) « ى »

ونلاحظ التشابه في الكتابات التالية: « لنعاني، مطور، مسند، لحياني، ثمودي، صفوي » (مجموعة ٩، جداول ٢، ٣، ٥، ٦، ٧).

« ه » (م) « ٦ » (ر) « ٩ »: انظر شرحنا أعلاه.

« ه » (م) « ـلـ » « ل » « ى » (ك) انظر أعلاه (ملحق ١، صفحة هـ، فقرة ٧).
⑦

« ك » (٩) « ـلـ » (ل) « ع » (ع) « ٦ » (ر) « ـبـ » (ب) = انظر أعلاه (ملحق ٢، صفحة ب، ج، وفقرة ٤، ٦).
⑧

« ل » (ك) « ك » (ل) « α » « هـ » = نجد هذا الشكل لحرف « الكاف » في نقش صفوي (مجموعة ٩، جدول ٧)، « ك » انظر أعلاه، « α » (ثمارة)، ونقل هذا الشكل القلم السرياني الغربي (مجموعة هـ، جدول ٦) ونجد شبيهاً له في الخط الحيري « الكوفي » α. وتأتي « كلمه » عوضاً عن كلهم.
⑨

« ٦ » (د = ذ) « ٩ » (و) = « ٦ » (ذ) « ٩ » (و). من المعلوم ان حرف الـ « ذ » هو من الروادف في الآرامية، أي عندما نود لفظ هذا الحرف نأتي بحرف « د = ٦ » ونحذف النقطة (الشدة الخفيفة) فلفظه حينئذ « ذ = ٦ ». ومن الملاحظ عدم وجود شكل
⑩

ملحق (٢) « هـ »

خاص بحرف الـ« ذ » في مختلف الخطوط الآرامية والسبب هو أن هذا الشكل « ד » يلفظه تارة « ד = د » وأحياناً « ד = ذ ». انظر قواعد اللغة الحنيفة ولفظ الحروف الروادف الستة في كتابنا (المدخل الى اللغة الآرامية ، ص ٥٢). والملاحظ ان اسم الموصول « ذو » الذي استعمله صانع النقش هو « ذو الطائية » ومن المعلوم ان اسم الموصول هذا هو بلفظ واحد للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . وقبيلة « طي » تعود بأصولها كما نعلم ، الى اليمن . وهذا يقودنا الى التفتيش عن هذا الشكل « V » في نقوش المسند وفروعه . وفي الحقيقة « د » في المسند هي على هذا الشكل « ⊐ » أما الـ« ذ » فرسم « Ħ » ، أي انتقلوا من لفظ « د = ⊐ » الى الـ« ذ = Ħ » باضافة خط عمودي الى الشكل الأول . ونجد في الكتابات الثمودية نفس الأمر . فلدينا هذا الشكل للدلالة على الـ« د = V » ولنلفظ الـ« ذ » نضيف خطاً موازياً فنحصل على هذا الشكل « ذ = Ψ ». لا ندري ، هل أراد صانع النقش أن يقول « دو = ٩٦ » ، علماً اننا نسمع في لهجات عربية معاصرة « دا = هذا » ، « دي ، ده » هذه الخ . لا مجال

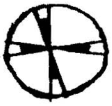
ملحق (٢) « و »

الى الشك ان صانع النقش متأثر بالقلم الثمودي وبالقلم الصفوي (انظر مجموعة أ ، جداول ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧). وأمر آخر ، نرى ان حرف «د» في التدمرية قريبة بشكل «٦» مع بعض التسوية مما نجده في «د» النمارة «هذا ربما» ولذلك ربما يشبه مع «د» الثمودية. وتدمر تقع في قلب بادية الشام سكانها بأغلبيتهم الساحقة من العرب.

«ع» (أ) «ط» (س) «٦» (ر) = انظر شرح هذه الحروف أعلاه. «أسر» (١١) بمعنى: قبض على ، أخذ ، نال.

«ع» (أ) «/» (ل) «ه» (ت) «ح» (ج) = انظر شرح هذه الحروف أعلاه (١٢) ولذلك فان أشكال حرف «ج» في جداول المجموعات الثلاث (أ ، ب ، ج). ونلفت الانتباه ان شكل «اللام» (/) هذا لا نجده سوى في الثمودي والصفوي.

ملحق (٣) « أ »

انا ① سرحيل ② بر ③ ظلمو ④ سد ⑤ ا ⑥  المرقوا ⑦

شكل ٣ - السطر الأول من « كتابة حران » . وتاريخ النقش هو سنة ٤٦٣ بحسب تقويم بصرى النبطي ، حيث أصبحت بصرى عوضاً عن البتراء عاصمة العالم النبطي بعد أن قضى الامبراطور الروماني « تريانوس » على يد حاكم سورية الروماني A.C. PALMA على مملكة الأنباط والحقها أراضيها بالامبراطورية الرومانية عام (١٠٦ ميلادي) باسم « الولاية العربية » PROVINCIA ARABIA فإذا أضفنا رقم (١٠٦) على (٤٦٣) نحصل على تاريخ النقش بالميلادي وهو (٥٦٩) . أي قبل بدء التاريخ الهجري بـ ٥٢ عام .
ووجد هذا النقش كما ذكرنا سابقاً على حجر فوق باب مزار أقيم للقديس يوحنا المعمدان في حران « اللجاة » شمالي جبل العرب . وهو مكتوب بالعربية واليونانية .

دراسة تحليلية للنقش : ادا ① = أنا - سرحـ حـ ل ② = شرحبيل

بر ③ = بر (بن) - ظلمو ④ = {ظالمو / ظالمو} ? سد ⑤ = بنيت

ملحق (٣) «ب»

د/ . ذا - / / ه ر ط و ((ل زبدو عمران ؟) أم (ر لحيانية صفوية ٦ [illegible]

إذا ترجمة النقش تكون كالتالي: «أنا شرحبيل بن ظالمو/طامو؟ ٧

بنيت ذا المرطور/المرطول؟» وبعضهم ترجم «المرطول» ونعتقد

أن الترجمة الأخيرة غير صائبة للأسباب سنذكرها عما قليل.

«شرحبيل»: قلنا سابقاً أن بعضهم يرى أن شرحبيل هذا هو أحد أمراء بني كندة. وفي الحقيقة، جاء في روايات الأخباريين العرب اسم «شُرَحْبيل بن الحارث» وهو أمير كندي تزعم بكر بن وائل وقتل في أحد أيام العرب، وهو «يوم الكُلاب». وعاش في عصر قريب من تاريخ النقش.

«ظالمو/طامو؟»: قرأنا الظاء «ظاء» معتمدين على ما جاء أعلاه من تعليق لابن منظور في «لسان العرب» على حرف الظاء. فهل نترجمها «ظالم» كما فعل بعضهم أم نقول «ظلم» كصفة ولقب.

وفي الحالة الأولى، نذكر «هند بنت ظالم» الشهيرة بهند الهنود وهي احدى زوجات الملك الكندي «حجر بن عمرو» المعروف بـ«آكل المرار». ونجد الاسم أيضاً في القرن السادس ميلادي كما جاء في روايات الأخباريين العرب وشعرهم وذلك في قصة

امرىء القيس بن حجر والسموأل حيث قيل ان امرأ القيس مات بأنقرة وهو عائد من القسطنطينية . ولما بلغ المنذر بن ماء السماء النبأ وجه «الحارث بن ظالم» الى تيماء حيث «الأبلق» حصن السموأل. ودارت الدائرة وقتل ابن السموأل، لما قيل. وجاء في القصيدة المنسوبة اليه:

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما خان أقوام وفيت .

وفي الحالة الثانية ، نقرأ «ظلم (و)» وفي هذه الحالة لا نرى صلة ما بين كلمة «ظلم» العربية وموضوع نقشنا هنا ، إذ تفيد كلمة «ظلم» «الثلج ، رقة الأسنان، وشدة بياضها، والظلم ضرب من الشجر واحدتها ظلمة» (انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ظلم)

والمعلوم ان (ليتمان LITTMANN) هو الذي قرأ (ظلمو ظالمو) = ظالم . ولكن لدينا اقتراح آخر لقراءة هذا النقش ، منطلقين منه أن (ط هي ط وليست ظ) وعندئذ نلفظ «طامو» وليس «ظامو» ، فمثلاً توجد هذه الكلمة في الآرامية بلهجاتها المختلفة ، علماً ان لغة نصنا هذا هي عربية مع بعض الكلمات الآرامية النبطية ووزن «فعلو» ليس بغريب على النبطية ولقد وجدناه ثلاث مرات في نقش «أم الجمال الأولى» : نَفْشُو ، قَبْرُو

رثو. (ملحق (١) «م»). وكذلك في نقش «النمارة» حيث قلنا «عمرو» (ملحق (٢) «م»). وفي نقش «زبد» نجد الأسماء التالية: «شَرْحُو، قَيْمُو، سَعْدُو، شَرْوُ». ونسمع حتى يومنا هذا أسماء كـ«رحمو، برهو، الخ...».

ماذا تفيد «طلمو = طَرْمُو» في الآرامية. نقرأ في (قاموس الكتاب المقدس، الصادر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧١، ص ٥٧٨) في مادة «طَلْمون»: بواب لاوي والبيت الذي أسسه (١ أخبار ٩ : ١٧). أعضاء من أسرته عادوا من السبي مع زربابل (عز(*) ٢ : ٤٢ و نح(**) ٧ : ٤٥) وكانوا بوابين في الهيكل الجديد (نح(**) ١١ : ١٩ و ١٢ : ٢٥)».

بالنسبة لما جاء في «قاموس الكتاب المقدس» من شرح كلمة «طَلْمون» لدينا ملاحظتان: أولاً اللفظ خاطئ، فعوضاً عن

(*) عز : سفر عزرا.
(**) نح : سفر نحميا.
كان هذان السفران سفراً واحداً في الأصل. لقد كتبا في القرن الرابع (ق.م.) بعد العودة من سبي بابل في أواخر أيام «الامبراطورية الفارسية الأخمينية»، حيث أصبحت الآرامية، كما ذكرنا سابقاً، اللغة الديبلوماسية للشرق الأدنى. وكتبت بعض أجزاء سفر عزرا بالآرامية الصرفة.

«طَلْمون» بناءً على أنه تسولوا «طَلْمُون» . ثانياً : ذُكرت الكلمة

مرة واحدة على وزن «طَلْمُن» بينما ذُكرت عدة مرات على وزن

«طَلْمُون» أي بدون كلمة تشبيه (١) الذي وجدت هذا ما جاء في معجم :

<u>A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, with an appendix containing the Biblical Aramaic, based on the Lexicon of William Gesenius</u>, Oxford, 1962, p. 379

«טַלְמוֹן, once טַלְמֹן n. pr. m., name of porters[(*)] ....»

وفي الصفحة السابقة أي 378 نقرأ في مادة טלם :

« √ of foll; perh. cf. Ar. ظَلَمَ; Aram. טְלַם, ܛܠܡ; Eth. ጠለመ: all oppress, injure; in this case טַלְמוֹן, טֶלֶם will be Aramaic names.[(**)] ....»

(*) <u>الترجمة</u> : طَلْمُن ، مرة واحدة طَلْمُون اسم مذكر . اسم البوابين.

(**) جذر √ الكلمة التالية ... الكلمات المقارنة مع العربية ظَلَمَ ؛

<u>آرامي</u> طِلَم <u>حبشي</u> ظلم بمعنى اضطهد ، ألحق الأذى ؛ وفي

هذه الحالة ظلم ، طلمون ... الكلمات أن تكون أسماء آرامية ....»

: لدينا في السريانية «ܡܚܣܢܐ = طامنا» بمعنى: فطن، حكيم

وفي هذه الحالة، هل تعني كلمة «ܟܗܢܘ» «بواب» أو معنى

قريباً منه.

رأينا أعلاه أن اللقب يشير إلى «بواب للدوي»، أي

مقدس، وكان هؤلاء «بوابين» في الهيكل الجديد، أي كانوا حراساً

مقدسين.

ونطرح الآن سؤالنا: هل اللقب في النقش يشير إلى

الحارث والد «مشرحيل»، عوضاً أن نقول الحارث، نفترض أن

صانع النقش أراد أن يقول الحارس بدلاً من الحارث، أي جعل

حرف (س) مكان الـ(ث). على كل حال، نحن نميل إلى قراءة الكلمة

«كَاهْنو»، أي اعتبرناها آرامية على وزن «فَعْلو».

~~المرطول~~ المرطول أم المرطور؟!

⑦ في الترجمة المنسوبة إلى «ليتمان LITTMANN»

والمنشورة في «مصوّر الخط العربي. لناجي زين الدين، دار القلم،

الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٠٥»، نرى كلمة «المرطول»

في سياق ترجمة النقش.

قلنا أن «المرطول» في الترجمة، غير صائبة، ويجب

ملحق (٣) « ز »

القول ان الكلمة ليست بآرامية. ثم ليست بعربية الأصل، ولو كان الأمر كذلك، لكان جذرها « رَطَلَ » بمعنى « راز الشيء ليعرف وزنه ». ونقول رَطَلَ الرجل أي عدا؛ ورَطَّلَ الشعر: لينه بالدهن وأرخاه ومشطه وأرسله ». ومرطول على وزن « مفعول ».

وفي الحقيقة: الكلمة « مرطورس » ذات أصل يوناني ولم نجد ذكراً لها « مرطول أو مرطورس » في مختلف المعاجم العربية.

وقلنا أيضاً بأن شطيرها ليست بآرامية. وفي الواقع، قلنا أعلاه ان الكلمة جاءت في نقش وُجِدَ على حجر مزار (أو كما نقول مشهد) أقيم تكريماً للقديس (يوحنا المعمدان)*.

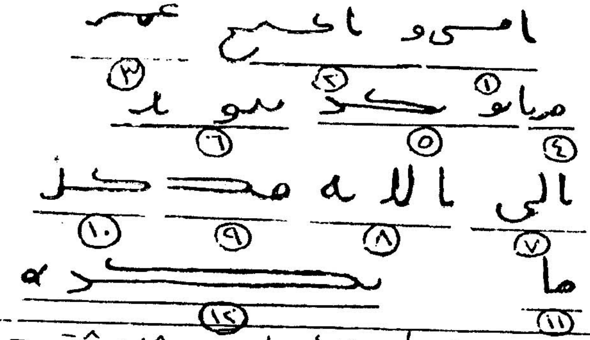
قلنا ان الكلمة هي « مرطورس » وذات أصل يوناني. ويفيد فعل (ت) μαρτυρέω فيما يفيد: « شهد » أي الشهادة بـ... أو على، « استشهد في سبيل الله ». أما كلمة μαρτύριον,ου (ونلفظها مارتوريون وفي العربية قد نقول (مارطوريون) لأنه لا وجود لحرف الـ « ط » في الكلام اليوناني) فانها تعني « شهادة »،

(*) هو الشهيد (يوحنا المعمدان) الذي قطع رأسه الملك هيرودس على طلب سالومة.

ملحق (٣) «ح»

برهان، مزار، مشهد أقيم تكريماً لشهيد). ونقول في اللاتينية وفي المعنى نفسه MARTYRIUM ونلفظها (مارتوريوم أومارطوريوم) لفقدان حرف «ط» في الأبجدية اللاتينية وفي الأبجديات المتفرعة منها كالايطالية والفرنسية والانكليزية والألمانية الخ... وقلنا في الفرنسية martyr وكذلك في الانكليزية بمعنى «شهيد» وكله عوضاً أن نلفظ الأوبسيلون «Y» اليونانيه (ü U) كالفرنسية، لفظناها في الفرنسية والانكليزية (ي I) الفرنسية أما اللفظ اليوناني واللاتيني لحرف (ὔψιλόν) فهو (ü و U) الفرنسية. وقد حافظت على هذا اللفظ اللغة الألمانية، فمثلاً عندما يكتبون اسم «سورية» فهو SYRIEN وينطقون «ZURIEN».

وفي هذه الحالة حرف (ل) في آخر الكلمة هو (ر) وليس «لاماً». ونجد شكل الـ «راء (ل)» هذه في النقوش اللحيانية والصفوية. (انظر مجموعة ٢، جدول ٥٠٧).



شكل ٤ - المقطع الأول من ثلاثة مقاطع منقورة في صخر جبل سلع بالقرب من المدينة المنورة من عهد الخلفاء الراشدين. وبعض حروف النقش قد عفا عليها الزمن، ونضيفها بين قوسين ونقرأ كالتالي:

⑧	⑦	⑥	⑤	④	③	②	①
الله	الى	يتو (عا) ذ	أبو بكر	و	عمر	و أصبح	أمسى

⑫	⑪	⑩	⑨
يكره	ما	كل	من

يمكن مقارنة الحروف مع مختلف جداول « المجموعة ب »

١- الطرىو.....

٢- عىد الله عىد الملك

٣- امر الموميں رحمه الله

شكل ٥ - من كتابة كوفية منقوشة في حجر طريق يعود لأيام عبد الملك بن مروان، وعثر على الحجر في فلسطين. ونقرأ كالتالي:

١- الطريق.... (بقية السطر غير واضحة).

٢- عبد الله عبد الملك

٣- أمير المؤمنين رحمه الله.

شكل ٦ -

١- وكىب هدا الكىب

٢- سوال مں سىه اربع و ؛

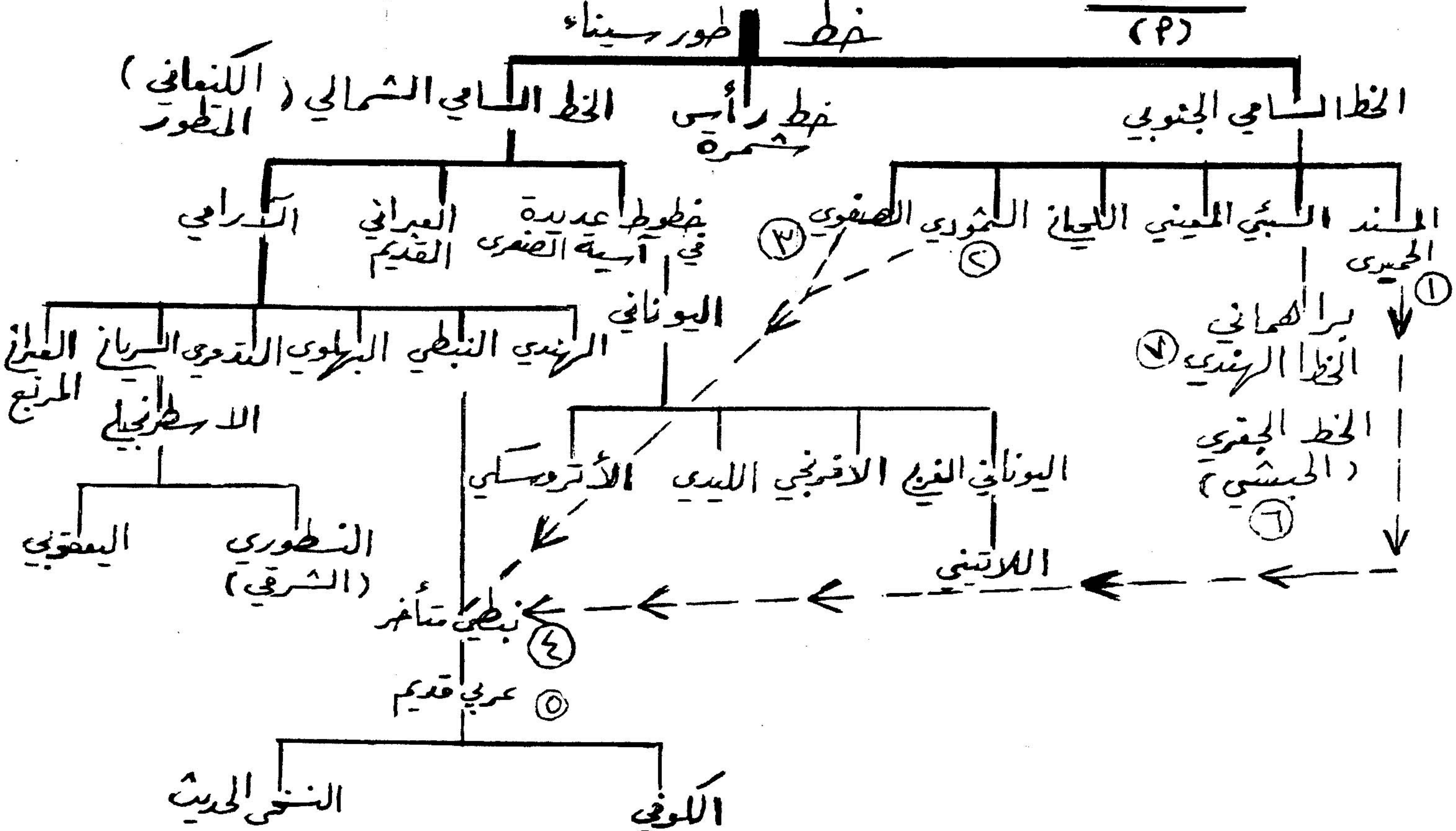
٣- سىں

الأسطر الثلاثة الأخيرة من كتابة كوفية على حجر قبر ثابت بن يزيد الأسعدي، عثر عليه في وادي الأبيض بلواء كربلاء، وتاريخ الكتابة سنة (٦٤ هـ)، وهي كالتالي:

١- وكتب هذا الكتب في
٢- شوال من سنة أربع و
ستين

ملحق (٦) سلسلة تفرع الكتابات السامية الشمالية و الجنوبية

(م)



مع ان النظرية السينائية» يرتقي عهدها الى مطلع هذا القرن فانها رائجة في الأوساط العلمية اكثر من غيرها. ومن الأوائل الذين اعتمدوها نذكر:

PETRIE, F., the Formation of the Alphabet, London 1912.

←

ملحق (٦)
(ب)

GARDINER, A.H. « The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet », in JOURNAL OF EGYPTIAN ARCHAEOLOGY, III, 1 ff., 1916.

SPRENGLING, M., The Alphabet: its Rise and Development from the Sinai Inscriptions, The Universal Jewish Enc., I, P. 198.

نعتقد أن شجرة خطوط « طور سيناء » ما زالت، بالإجمال، صحيحة حتى يومنا هذا، على أن نجري عليها بعض التعديل. فمن ناحية، نلاحظ أن العربي القديم يتفرع مباشرة من النبطي المتأخر، دون أن يكون للخطوط السريانية المختلفة أي دور في ذلك. ونحن نعلم أن بعضهم يعتمد رأياً مغايراً. أما نحن فلقد أوضحنا وجهة نظرنا، عندما قلنا انه لم يكن للسريانية بكتاباتها المختلفة، دور يذكر في نشوء القلم العربي، بل انه من المحتمل جداً، فيما بعد عن طريق علامات الوقف والحركات، ونحن نبحث في الأصول.

أما التعديل الذي يجب اجراؤه، بحسب رأينا، وبموجب النتائج التي حصلنا عليها، نتيجةً لدراستنا المقارنة لنقوش

ملحق (٦)
(ج)

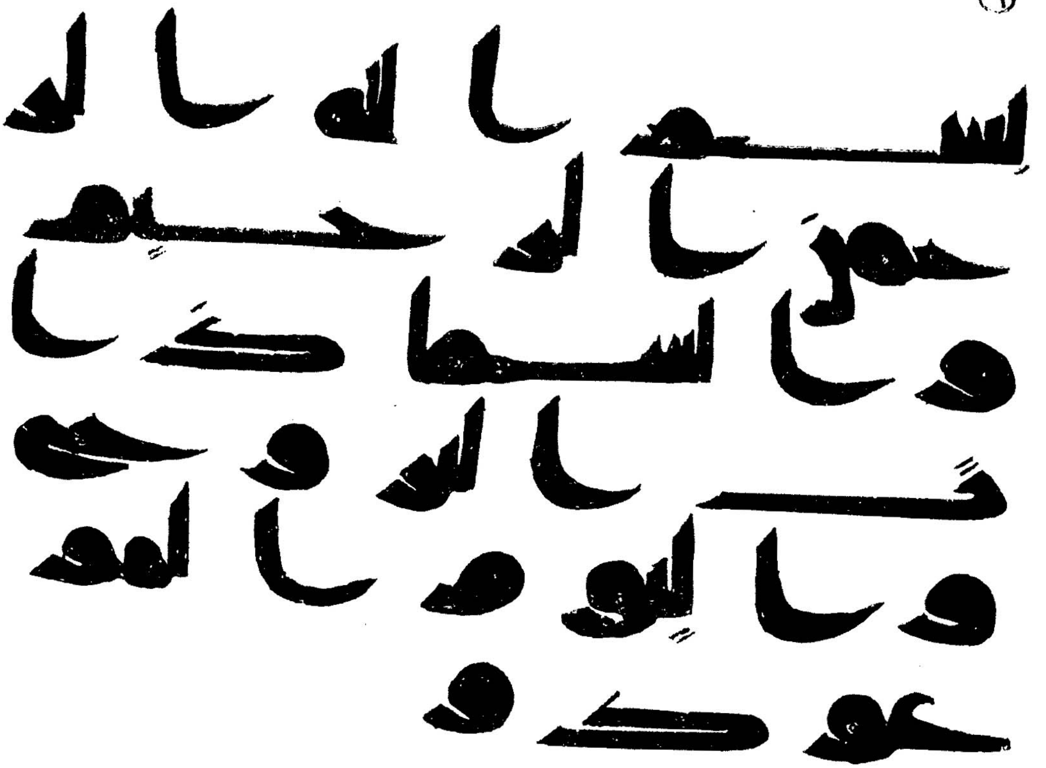
بعض الجداول ، فينحصر في دور المسند ① والثمودي ②
والصفوي ③ في تطور أشكال النبطي المتأخر ④ الذي اعطانا
العربي القديم ⑤ . وقد أضفنا الى المخطط الأصلي ، خطين
منفصلين ، للايضاح
وأمر آخر ، لا نعتقد ان الخط الجعزي
« الحبشي ⑥ » ناتج من الخط الهندي « البراهماني ⑦ » ، بل ان ذلك
قد تم مباشرة بين المسند الجنوبي والجعزي « الحبشي » .
ونلاحظ أيضاً انهم يقولون « سامية »
وهذا أمر غير صحيح ، كما أوضحنا أعلاه .

بسم الله الر حمن الرحيم والسما ذا ت البروج واليوم المو

السطر: ① ② ③ ④ ⑤

عود و

⑥



كتابة بخط كوفي على رق الغزال من المصحف الكريم المنسوب للخليفة علي ابن أبي طالب (من روائع خزانة الروضة الحيدرية في النجف).

ملحق ٧

(١) حول اللغة الارامية وكتاباتها ولهجاتها ، انظر كتابنا ، المدخل الى اللغة الارامية ، مكتبةاطلس دمشق ١٩٧٩ ، ص ١٦ وما بعدها .

(٢) حول اللغة السريانية بالعربية ، انظر : الدكتور احمد ارحيم هبو ، المدخل الى اللغة السريانيةوادابها، منشوراتمديرية الكتب والمطبوعاتالجامعية في حلب ١٩٧٥ — ١٩٧٦ .

(٣) اضافة للمصادر العربية القديمة المذكورةفي سياق البحث نذكر بعضالمراجع العربية والاجنبية الحديثة التي تبحث في تاريخالكتابات العربية وغيرهاومنها : اصل الخط العربي وتاريخ تطوره (من محاضرات لبتمان في الجامعة المصرية ، نشر مجلةكليةالاداب ، سنة ١٣٥٤ هـ) ، احمد يوسف ، الخط الكوفي ، طبع القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ ، صلاح الدين المنجد ، الكتاب العربي المخطوط ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٠. ، انيس فريحة ، الخط العربي ، نشاته مشكلته ، طبع بيروت ١٩٦١ م ، احمد فخري،احدث الاكتشافات الاثرية في اليمن ، مجموعة ابحاث المؤتمـرالثالث للاثار في البلاد العربية ، فاس ١٩٥٩ م . (مطبوعات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ،سنة ١٩٦٠.م) ، خليل يحيى نامي ، اصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، (مجلـةكلية الاداب ، الجامعة المصرية ، مجـ ٢ ، جـ ، مايو ١٩٣٥ ، ص ١٠٤-١٠٦) ، جواد علي ، المفصلفيتاريخ العرب قبل الاسلام طبع بيروت ١٩٦٨ ، جـ ٧، ص ٣٥ وما بعدها ،

ومن المراجع الاجنبية نذكر :

Hoftijzer J.C., **Dictionnaire des inscriptions sémitiques de l'Ouest,** Leiden 1963; Cross F.M.Jr., **« The evolution of the proto-Canaanite Alphabet », American School of Oriental Research Bulletin,** 134: 15-24 (April 1954); Driver G. R., **Semitic Writing from Pictograph to Alphabet** London 1954; Dhorme R.P.R., **Un nouvel alphabet sémitique, Revue Biblique** 4, 1930; **Rev. 1, 1931;** Abbott Nabiha, **the Rise of the North Arabic Script.** Chicago 1939.

(٤) نذكر من الكتب العربية والمترجمة الى العربية التي تبحث في الموضوع : محمد عطيـة الابراشي الاداب السامية القاهرة ١٩٤٦ ، عبد العزيز سالم،تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، دار النهضةالعربية بيروت ١٩٧٠. تيودورنولدكه ، اللغات السامية ،دارالنهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٣ ، يغفينيبليايف، العرب والاسلام والخلافة العربيةفيالقرونالوسطى، الطبعة العربية، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٣ ترجمة د . انيس فريحة ، مراجعة وتقديم د . محمود زايد

ومن المراجع الاجنبة نذكر :

Winnett, F. V., **A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions,** Toronto 1937; Lammens, H., **L'Arabie occidentale avant l'hégire,** Beyrouth, Imprimerie catholique, 1928; van den Branden, A., **Inscriptions thamoudéennes,** Louvain, 1950 (Bibliothèque du Muséon, 25); Littmann, E., **Thamud und Safâ,**

Leipzig, 1940 (Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, XXV, 1) ; Caskel, W., **Lihyan und Lihyanisch,** Köln-Opladen, 1954. (Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen, IV).

(٥) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، ط .مصر ١٩٤٨ ، ج ١، ص ٣٤٦.

(٦) المقدمة ،ط.القاهرة ١٩٥٧ (تحقيق علي عبد الواحد وافي .

(٧) ناجي زين الدين ، مصور الخط العربي ،دار القلم ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٨٠. ، ص٢٩٨

(8) Harding, G. L., **An Index and Concordance of pre-Islamic Arabian names and inscriptions,** Toronto 1971, **passim;** Kammerer, A. **Pétra et la Nabatène , l'Arabie Pétrée et les Arabes du Nord dans leurs rapports avec la Palestine jusqu'a l'Islam,** 2 vol., Paris 1930.

٩) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ٧ ، ص ٢٧٢ .

(١٠) المدخل الى اللغة الارامية ، ص ٢٩ .

(١١) نفس المرجع ، ص ٢٧ .

(١٢) انظر على سبيل المثال لا الحصر : خليـــل يحيى نامي ،، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، ومن الباحثين الغربيين : اصل الخط العربي وتاريخ تطوره (من محاضرات ليتمان في الجامعة المصرية) .

(١٣) الحقائق الجلية في الابحاث التاريخية ، الادبية والفلسفية ، نشر تباعا في المجلة البطريركية بدمشق ، ١٩٧٢ ، ص ٢١ .

كتابة تاريخ العرب

من أهداف المشروع :

ان اعادة كتابة تاريخ العرب تنبع من حاجة قومية قائمة وملحة لتحرير الارادة القومية المبدعة في انطلاقها لصنع التاريخ الجديد . ولذلك ليس المطلوب مجرد اضافة كتاب الى الكتب الموجودة ، بل المطلوب من كتابة التاريخ العربي من جديد أن يبرز خصائصه الكبرى ..

من مبادىء العمل :

تجري كتابة (تاريخ العرب) ضمن منظورات ثلاثة هي :

المنطلق الوحدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد باسلوب البحث العلمي .

الصورة التاريخية والحضارية
للقطر العربي السوري
في العصور الشرقية القديمة

قاسم طوير

المديرية العامة للآثار والمتاحف ـ دمشق

يعتبر التنقيب الاثري في تلال العصور الشرقية القديمة المنتشرة في منطقة الجمهورية العربية السورية حديث العهد بالنسبة للعراق ومصر . ففي حين ان النشاط الاثري قد بدأ في مصر مع حملة نابليون في القرن الثامن عشر ، واخذ يخطو في العراق منذ القرن التاسع عشر ، نجد أن أول عملية تنقيب أثرية في تل من العصور الشرقية القديمة في قطرنا قد باشرت بها بعثة المانية في عام ١٩١٠ .

وبالرغم من أن قطرنا هو واحد من أعرق مناطق الشرق أثريا بما كان وما يزال يتمتع به من موقع جغرافي يتحكم بطرق المواصلات بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، الا أن تاريخه كان حتى عهد قريب يكتب من وجهات نظر النصوص المسمارية الرافدية والنصوص المصرية القديمة والنصوص الحثية . وقاد هذا الامر الى اعتبار بلاد الشام تابعا للممالك المجاورة في الرافدين ومصروالاناضول. وربما كانت هذه النظرة أحد الاسباب التي صرفت في الماضي اهتمام علماء الاثار عن تركيز نشاطهم في قطرنا ، كما انه لا يستبعد أن تكون التنقيبات الاثرية التي جرت بين الحربين العالميتين في بعض من تلال محافظة الجزيرة قد استهدفت بالدرجة الاولى استكمال بعض حلقات التاريخ الرافدي .

في الثلاثينات من هذا القرن حظيت المناطق الداخلية والساحلية باهتمام الاثريين الاجانب الا أن التنقيبات التي جرت في خان شيخون وتل رفعت وتل المشرفة وتل النبي مند قد اقتصرت على مساحات صغيرة وأعماق محدودة ، بالرغم من أن مكتشفات بعض منها قد عرفتنا على مملكة قطنه الامورية في تل

المشرفة وعلى مملكة قادش الشهيرة في تل النبي مند قرب حمص . بيد أن أهم نشاط أثري واسع النطاق وطويل الاجل كان في تل مدينة حماه وتل مطشانة في سهل العمق (الالاخ القديمة) وتل الحريري (ماري) على الفرات وتل راس الشمرة (اوغاريت) على الساحل .

توقف النشاط الاثري في قطرنا عقب اندلاع الحرب العالمية الثانية ، لكنه استؤنف في الخمسينات بعودة البعثتين الاثريتين الافرنسيتين الى مواصلة التنقيب في كل من تل الحريري ورأس الشمرة . وكان لاكتشافات السجلات الملكية والمدنية (الرقم المسمارية) في تل الحريري والعثور على الابجدية الكتابية في رأس الشمرة أثر كبير على أوساط الاثريين في العالم . ولقد قاد هذا الامر الى توافد عدد من البعثات الاثرية الجديدة الى القطر خلال الستينات . ووصل النشاط الاثري في قطرنا الى ذروته في أعقاب النداء الدولي الذي أصدرتهالجمهورية العربية السورية في عام ١٩٦٩ لحث المؤسسات الاثرية العالمية للمساهمة في انقاذ التلال والاوابد الاثرية التي ستغمرها مياه سد الفرات . وبكل فخر يسجل قطرنا في الوقت الحاضر رقما قياسيا في عدد البعثات الوطنية والاجنبية العاملة في مختلف بقاعه .

وهكذا بدات الصورة التاريخية والحضارية للقطر العربي السوري وماتزال ترتسم تدريجيا وكأنها لوحة فسيفسائية ترصف بمكعبات صغيرة ، فكل عملية تنقيب في موقع جديد وكل اكتشاف فريد في المواقع التي يجري التنقيب فيها يضيف مكعبا أو عدة مكعبات الى لوحة الفسيفساء تلك . وقبل الدخول في تفاصيل الشواهد المادية علىتاريخ وحضارة قطرنا خلال العصور الشرقية القديمة نود التنويه الى أن عددا من التلال التي جرى التنقيب فيها قد زودنا بشواهد مادية حضارية ترقى الي الالف الاول والثاني والثالث قبل الميلاد ولكنها لم تزودنا الا بنصوص كتابية تغطي الالفين الاول والثاني . وبقي الظلام يكتنف تاريخ القطر السياسي والاجتماعي وأوجه كثيرة من تاريخه الحضاري في الالف الثالث حتى عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ عندما سعدت البعثة الايطالية العاملة في تل مرديخ القريب من بلدة سراقب بالعثور على أعداد كبيرة من الرقم المسمارية التي تسطر أحداث القطر خلال النصف الثاني من الالف الثالث .

يعتبر الالف الرابع بالنسبة للقطر العربي السوري أشد غموضا من الالف السابق لان الكتابة لم تكن بعد معروفة في تلك الفترة ، وكانت بوادر الكتابة في نهاية الالف الرابع تقتصر على رموز حسابية تطورت في جنوب الرافدين . بيد أن حضارة متطورة قد نشأت في مدينة اوروك ـ الوركاء ـ دلت نتائج التنقيب والمسح الاثريين على انتشارها في معظم بقاع الرافدين بما فيها منطقة الجزيرة في القطر العربي السوري لكن التنقيبات الاثرية الجارية في قطرنا لم تكشف دلائل هامة على هذا العصر الى الغرب من نهر الفرات حتى بضع سنين خلت ، وذلك

عندما كشفت بعثة أثرية المانية واخرى بلجيكية وثالثة هولندية عن مدينتين ازدهرتا على الشاطيء الشامي من نهر الفرات في أواخر الالف الرابع .

والان دعونا نستعرض مواقع التنقيب الاثري التي ننهل منها جل معرفتنا بالنسبة لكل عصر من العصور الشرقية القديمة .

نهاية الالف الرابع أو عصر أوروك

يتمثل هذا العصر في موقعين رئيسيين على الشاطيء الايمن من نهر الفرات هما حبوبة الجنوبية وجبل عارودة .

١ ـ **حبوبة الجنوبية** : تقع حبوبة الجنوبية على الشاطيء الايمن من نهرالفرات الاعلى وهي تابعة من الناحية الادارية الى ناحية الخفسة من منطقة منبج بمحافظة حلب ، ولما كان هذا الموقع من جملة المواقع التي ستغمرها مياه بحير سد الفرات فقد سارعت بعثة المانية اتحادية للتنقيب فيه منذ عام ١٩٦٩ الى جانب تل حبوبة المجاور له في الشمال . ويمتد هذا الموقع مسافة حوالي الكيلو مترين على هضبة وادي الفرات وهو محصور بين تل حبوبة في الشمال وتل قناص في الجنوب . ولقد أسفرت التنقيبات الجارية فيه بين ١٩٦٩ و ١٩٧٥ عن كشف أقدم مدينة متطورة في تاريخ قطرنا . كما أكدت نتائج التنقيب ان تل قناص الذي تعمل فيه بعثة اثرية بلجيكية على أساس أنه تل مستقل ، هو جزء من مدينة حبوبة الجنوبية، بل هو مركز معابدها ويمكننا تلخيص نتائج التنقيب بالنقاط التالية :

آ ـ ترقى حبوبة الجنوبية الى نهاية الالف الرابع قبل الميلاد واكدت نماذج العمارة واللقي الفخارية والحجرية والطينية والنحاسية المكتشفة فيها على انتمائها لحضارة اوروك في جنوب الرافدين .

ب ـ تتمتع المدينة بتخطيط عمراني متطور ، فالشوارع المعبدة بالحصى تربط بين الاحياء وقساطل المياه المصنوعة من الفخار والمدفونة في الارض تتسلل في كافة البيوت وتلتقي في الشوارع وتصب خارج حدود المدينة .

ج ـ تتميز البيوت السكنية بتخطيط متقن فالغرف ترتصف حول باحة متوسطة أو صالة كبرى ولعل من أبرزها هو البيت الكبير الذي تتوسطه صالة كبرى على شكل حرف (تي) اللاتيني ، وتزدان جدرانه بمحاريب غائرة .

د ـ يحيط بالمدينة من كافة جهاتها باستثناء الجهة المطلة على الفرات ، سور مزدوج ، الامامي منه صغير والخلفي هو الرئيسي ، ويتميز بسماكته وبابراجه المربعة التي تعززه بمسافات منتظمة ، وتخترق السور بوابتان ضخمتان . وخلافا للاسوار الدفاعية الخالية من أي تفصيل يتمتع سور مدينة حبوبة الجنوبية بمحاريب منتظمة تضفي الحيوية والرشاقة على سطوح الجدران الصماء . لعل هذا السور هو ابرز واعظم كشف اثري تحقق حتى الان اذا علمنا ان التنقيبات الاثرية في موقع اوروك لم تكشف حتى الان عن السوية الترابية التي تغيب في باطنها سور أوروك الذي تحدثنا عنه اسطورة جلجامش الشهيرة . وبذلك سيفخر قطرنا بأنه قدم أول نموذج ملموس لعمارة الاسوار في نهاية الالف الرابع قبل الميلاد .

هـ ـ كانت البعثة الاثرية البلجيكية العاملة في موقع تل قناص المجاور تعتقد انها كشفت في هذا التل عن معالم مدينة من العهد البابلي ومن عصر اوروك وكانت فخورة بكشفها عن معبدين من طراز معابد اوروك لكن البعثة الالمانية في حبوبة الجنوبية فوجئت باستمرار سور حبوبة نحو الجنوب وتخطيه حدود تل قناص بمسافة بعيدة . وهكذا تأكد أن تل قناص الذي يضم معبدين رئيسيين من عصر اوروك هو جزء من مدينة حبوبة .

و ـ الى جانب الاواني الفخارية المتنوعة والمميزة لعصر اوروك عثرت البعثة الالمانية على عدد كبير من الكتل البيضوية الشكل والمثقوبة من طرفيها وتحتفظ كافة هذه الكتل بطبعة ختم اسطواني زاخر بالاشكال الحيوانية والانسانية المحفورة حفرا دقيقا وماهرا . وكانت هذه الكتل تستخدم لاغلاق فوهات الاواني المعبأة بالبضائع السائلة والجامدة وكان يجري مهر تلك الكتل بخاتم صاحب البضاعة كما هو الحال في يومنا هذا بالنسبة للشمع الاحمر .

ز ـ ان المكان لايتسع لذكر كافة الشواهد المادية المكتشفة في حبوبة والتي تعرفنا على أوجه عديدة من أوجه حياة وفعالية تلك المدينة السحيقة في القدم .

٢ ـ جبل عارودة : تقوم بعثة أثرية هولندية منذ عام ١٩٧٣ بالمساهمة في حملة انقاذ اثار الفرات في موقع جبل عارودة الذي يقع على بعد بضعة كيلو مترات الى الشمال من موقع حبوبة الجنوبية . وكشفت هذه البعثة عن مبان دينية ومدنية وادوات فخارية وحجرية ورقم طينية (أرقام عددية) مميزة لعصر اوروك . بيد ان التنقيبات في هذا الموقع ما تزال حديثة العهد . ونتوقع مزيدا من الاكتشافات التي توضح لنا صورة هذا الموقع والدور الذي كان يلعبه على مرتفع عال وصعب المسالك مثل جبل عارودة الذي يهيمن على وادي الفرات في تلك المنطقة .

النصف الاول من الالف الثالث او عصر السلالات الاولى

ان الشواهد المادية والكتابية على هذه الفترة بالنسبة لقطرنا ماتزال ضعيفة وتقتصر على بقايا معمارية ونماج فخارية باستثناء مكتشفات البعثة الاثرية الالمانية في تل خويرة في الجزيرة العليا والبعثة الفرنسية في تل الحريري (ماري) على الفرات الاوسط . ومن اهم المواقع التي ابان التنقيب الاثري عنها شواهد مادية على هذه الفترة نذكر :

آ ـ تل براك :

يقع هذا التل على اطراف نهر الجغجغ رافد نهر الخابور في الجزيرة ويبعد حوالي ٣٠ كم الى الجنوب من بلدة القامشلي . قامت بعثة اثرية بريطانية برئاسة العالم مالاوان بالتنقيب فيه بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ وكشفت عن بقايا معبد يرقى الى عصر جمدة نصر (حوالي ٢٧٠٠ ق.م) وعثرت فيه على عدد كبير من الدمى الفخارية والحجرية المميزة لهذا العصر . كما تم الكشف عن معالم قصر يرجح ان يكون للملك الاكادي نارام ـ سن .

ب ـ تل شغربازر :

يقع الى الجنوب من بلدة عامودة في الجزيرة . وقامت بالتنقيب فيه البعثة السابقة التي نقبت في تل براك ولقد كشفت الاسبار العميقة فيه عن طبقة تعود الى عصر جمدة نصر ايضا .

ج ـ حماه :

قامت بعثة اثرية دانماركية بين ١٩٣١ و ١٩٣٨ بالتنقيب المنهجي الواسع في تل مدينة حماه وكشفت عن شواهد اثرية تتعاقب من الالف الرابع حتى الالف الاول قبل الميلاد وتضم عينات فخارية من عصر جمدة نصرايضا .

د ـ تل الحريري ـ ماري :

يقع هذا التل على الجانب الشامي من نهر الفرات الاوسط وهو قريب من بلدة البوكمال الواقعة على الحدود السورية العراقية ، وقامت بعثة اثرية فرنسية برئاسة الاستاذ بارو بالتنقيب فيه عام ١٩٣٣ وتوقف العمل فيه اثر الحرب العالمية

الثانية واستأنفت البعثة اعمالها في مطلع الخمسينات ومازال مستمرة حتى يومنا هـذا .

ابانت التنقيبات في منطقة القصر الذي اندثر في الالف الثاني قبل الميلاد ، ان القصر نفسه قد اقيم فوق نفس اساسات قصر اقدم منه يرقى الى عهد السلالات الاولى او عصر ما قبل الصارغوني ، بيد ان التنقيب لم يكشف عن وثائق كتابية يمكن ان تحدثنا عن طبيعة الدور الذي كانت تلعبه ماري في ذلك العصر الذي ازدهرت فيه دويلات المدن السومرية في جنوب الرافدين .

هـ ـ تل خويرة :

يقع هذا التل بين تل ابيض وراس العين وهو قريب من الحدود السورية التركية . وتقوم بالتنقيب فيه منذ ١٩٥٨ بعثة اثرية المانية برئاسة الاستاذ انطون مورتفارت ومن ابرز اكتشافاتها نذكر نماذج معابد واوابد وتماثيل حجرية ترقى الى عصر السلالات الاولى في الرافدين .

النصف الثاني للالف الثالث ، او العهد الاكادي وعهد سلالة اور الثالثة

بقيت الشواهد الاثرية على العصر الاكادي وعصر سلالة اور الثالثة في القطر العربي السوري مقتصرة على بعض المكتشفات المعمارية والقليل من القطع الفنية والاستعمالية في عدد من تلال الجزيرة حتى عام ١٩٧٤ ، عندما عثرت البعثة الاثرية الايطالية في تل مرديخ قرب سراقب على ارشيف الرقم المسمارية في قصر ملك تل مرديخ المعاصر للملوك اكاد في الرافدين وفيما يلي نستعرض المواقع الاثرية التي كشفت اعمال التنقيب عن شواهد مادية على هذه الفترة .

آ ـ تل براك :

كشفت البعثة البريطانية السابقة الذكر عن قصر كبير يعود لعهد الملك الاكادي نارام سين .

ب ـ تل خويرة :

كشفت البعثة الالمانية الانفة الذكر عن معابد ومساكن ترقى الى العهد الاكادي بيد ان نموذج المعبد المكتشف في هذا الموقع ينفرد بخصائص تميزه عن المعابد الاكادية الرافدية ويتجلى ذلك في الرواق الامامي الذي يتقدم هيكل المعبد المستطيل .

ج ـ تل مرديخ :

تقوم بعثة أثرية برئاسة الاستاذ باولو ماتييه من جامعة روما بالتنقيب في تل مرديخ القريب من بلدة سراقب منذ عام ١٩٦٤ وكشفت أعمال البعثة عن معالم معمارية هامة ترقى الى العهد البابلي (النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد) نتعرض لها في حينها . وعثرت في السنوات الاخيرة على جزء تمثال من حجر البازلت عليه كتابه أكادية كان من جملة ما تتضمنه اسم مدينة ايبلا التي جاء ذكرها كثيرا في النصوص الاكادية الرافدية . وكان هذا النص الوثيقة الكتابية الوحيدة التي كشفت عنها اعمال التنقيب انذاك . ولقد دعى هذا الاكتشاف الى الاعتقاد بأن تل مرديخ هو مدينة ايبلا الشهيرة . وظلت البعثة تعيش في امل العثور على مزيد من الوثائق المكشوفة للتأكد من هوية هذه المدينة والتعرف على تاريخها وحضارتها في عصور ما قبل العهد البابلي ، وعندما وصلت أعمال التنقيب الاثري الى الطبقات التي تلي طبقة العهد البابلي خلال موسم ١٩٧٤ سعدت البعثة بالعثور على اربعين لوحة طينية كتابية (رقم مسمارية) اكدت القراءة الاولية لسطورها على انتمائها للعصر الاكادي . وكانت الضجة التي احدثها هذا الاكتشاف اكبر عندما عثرت البعثة في موسم العام التالي (١٩٧٥) على حوالي اثني عشر الف لوحة اخرى في حجرة مجاورة لقاعة عرش القصر الملكي .

وتعتبر هذه اللوحات أولى الوثائق المكتوبة في المناطق الداخلية من قطرنا في العهد الاكادي . ان المكان لايتسع الا لسرد مقتضب للنتائج الباهرة لهذا الاكتشاف الذي قلب الصورة التاريخية للمناطق الداخلية للقطر العربي السوري في النصف الثاني للالف الثالث قبل الميلاد راسا على عقب . وبالرغم من ان قراءة اللوحات الكتابية لاتخرج عن نطاق رؤوس الاقلام الا اننا نستطيع أن نعرض بعض الافكار الاولية .

آ ـ اكد محتوى النصوص الكتابية على هوية ايبلا في تل مرديخ بشكل قطعي ووضع حد للفرضيات السابقة التي كانت ترجع موقع ايبلا الى الشمال من حلب .

ب ـ اكدت آثار الدمار والحريق في بقايا القصر المكتشف على صحة ماجاء في الوثائق الرافدية التي تذكر ايبلا من جملة المدن والممالك التي دمرها الملك الاكادي نارام سين أثناء توسعه باتجاه البحر الكبير (البحر المتوسط) .

ج ـ خلافا لما جاء على لسان ملوك ماري (تل الحريري) أو ملوك أكاد واشور بأن ملوك ايبلا كانوا يدفعون الجزية لهم وكانوا بالتالي يخضعون لنفوذهم فقد

ابانت نصوص تل مرديخ ان هؤلاء الملوك كانوا يدفعون الجزية بدورهم الى ملوك ايبلا .

د ـ كانت ايبلا (تل مرديخ) مركزا مرموقا لصناعة النسيج الموشى بخيوط الذهب والفضة (البروكار الدمشقي) وكانت اكاد واشور من جملة الممالك التي تستورده .

هـ ـ تذكر النصوص المسمارية الرافدية ان ملوك الرافدين كانوا يجلبون الخشب من ايبلا ولقد اكدت نصوص تل مرديخ الحالية على أن كرسي عرش ماري (تل الحريري) كان يصنع في ايبلا ويستدل ذلك من وصل توريد مثل هذا الكرسي الى ملك ماري . كما عثرت البعثة في قاعة عرش قصر تل مرديخ على بقايا خشبية محروقة ومحفورة بأشكال حيوانية تزيينية لعلها كانت جزءا من قطعة اثاث منزلي .

و ـ كانت بعض اللوحات الكتابية المكتشفة في تل مرديخ عبارة عن تقارير مرسلة من قادة جيوش ملك ايبلا وتسرد للملك تفاصيل الوقائع الحربية ونتائجها. ولقد تبين منها ان مملكة ايبلا قد مدت نفوذها العسكري والسياسي الى مناطق واسعة .

ز ـ كان للمراة شأن كبير في حياة مملكة ايبلا السياسية والاجتماعية . ففي حين لا ياتي ذكر لزوجات ملوك الرافدين في النصوص التي يتحدثون فيها عن احوالهم نجد أن اسم الملكة يسبق ذكر اسم الملك في نصوص تل مرديخ ، وكذلك عرفتنا نصوص تل مرديخ لاول مرة على اسماء زوجات الملوك الآكاديين والآشوريين المعاصرين .

ح ـ تكمن المفاجاة الكبرى بالنسبة لهذا الاكتشاف في التعرف على اللغة المتداولة في المناطق الداخلية من قطرنا خلال النصف الثاني للالف الثالث قبل الميلاد ، فخلافا للتكهنات التي كانت تفترض بأن اللغتين السومرية والاكادية كانتا سائدتين في بلاد الشام ايضا ، فقد ابانت نصوص تل مرديخ ان المفردات المستخدمة بعيدة عن الاكادية وقريبة من الكنعانية .

وتبرز اهمية هذه الحقيقة في انها تؤكد على امتداد جذور الكنعانيين الى اكثر من الالف الثاني والى ابعد من الساحل السوري واللبناني والفلسطيني .

ط ـ كانت حركة التعليم مزدهرة في ايبلا ويستدل ذلك من الكتابات المدرسية واسماء التلاميذ ومدرسيهم المسطرة في اللوحات المكتشفة . كذلك زودتنا نصوص

تل مرديخ باول قاموس يقابل المفردات السومرية بمعانيها الايبلائية المتداولة في ايبلا .

ما من شك ان نتائج الدراسة المقبلة لهذا الكنز الوثائقي الهائل ستلقى اضواء باهرة على تاريخ قطرنا في تلك الحقبة المظلمة .

وفيما يتعلق بعصر سلالة اور الثالثة في نهاية الالف الثالث فان التنقيبات الاثرية في الاونة الاخيرة كشفت عن المزيد من شواهدها المادية ولكنها ما تزال بخيلة جدا بالشواهد الكتابية التي قد تمكننا من تأكيد او نفي صحة المعلومات الواردة في النصوص الكتابية الرافدية . وتشير الشواهد المادية المكتشفة في تل الحريري (ماري) وفي بعض تلال منطقة غمر السد مثل تل العبد وتل ممباقة وتل حبوبة وتل سلنكحية وتل السويحات وفي بعض المواقع المنتشرة في سهل العمق وفي تل مدينة حماه ان نفوذ سلالة اور الثالثة قد امتد بعيدا نحو الغرب . بيد ان هذه الشواهد الحضارية لاتكفي لرسم نوعية العلاقة السياسية والحضارية رسما دقيقا وواضحا بين هذه المواقع ومملكة اور .

النصف الاول للالف الثاني قبل الميلاد او العهد البابلي القديم

يعتبر الالف الثاني قبل الميلاد اقل غموضا بكثير من الالف السابق له ، فالتنقيبات الاثرية الجارية في مواقع متفرقة من ارجاء قطرنا قد كشفت عن مساحات كبيرة نسبيا من السويات الاثرية التي كانت تغيب في باطنها معالم معمارية هامة وشواهد فنية متنوعة ووثائق كتابية وافرة . ومن ابرز هذه المواقع نذكر :

١ ـ تل الحريري ـ ماري

كشفت البعثة الفرنسية انفة الذكر عن اكبر قصر ملكي في العصور القديمة وكان هذا القصر يتجدد منذ عصر السلالات الاولى حتى عهد الملك زيميرليم ، اخر ملوك مدينة ماري الذي عاصر الملك البابلي حمورابي (منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد) .

ويتميز هذا القصر بقاعة العرش الفخمة وبباحاته الرحبة وغرفه وصالاته التي بلغت الثلاثمائة . والى جانب التماثيل الحجرية العديدة واللقى الكثيرة من الادوات والاواني الفخارية والحجرية والمعدنية المختلفة ، عثرت البعثة على اضخم ارشيف ملكي من الوثائق المكتوبة بالمسمارية على الرقم الطينية التي تخطى عددها خمسة وعشرين الف رقيم .

لقد عرفتنا محتويات هذا الكنز الوثائقي على مختلف جوانب الحياة اليومية والسياسية واجتماعية والاقتصادية في مملكة ماري وفي الممالك الصغرى والكبرى المجاورة لها خلال النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد ، كما اصبحنا نعرف الكثير عن مملكة حلب أو يمحاض وعدد من الممالك الاخرى مثل ترقا (تل عشارة) وتولول (تل البيعة قرب الرقة) والمشرفة (قطنة قرب حمص) وايمار (مسكنة على الفرات) .

وتفيدنا وثائق ماري الكتابية وشواهدها الحضارية انه رغم الاستقلال الذاتي الذي كان يتمتع به ملوك هذه المدينة الا أن حضارتهم وثقافتهم كانت رافدية ، فلغتهم هي الاكادية والسومرية وفنونهم التشكيلية مشابهة للفنون الرافدية المعاصرة.

٢ ــ تل مرديخ ــ ايبلا

كشفت البعثة الايطالية التي سبق ذكرها ، عن معالم قصر ومعبدين واحدى البوابات الرئيسية في سور المدينة ، فضلا عن حوضين حجريين تتمتع وجوههما بمشاهد دينية منحوتة . ويستدل من الكتابة التي تزين ظهر جزء من تمثال بازلتي لرجل أن التمثال المذكور هو تقدمة لمعبد الربة عشتار في ايبلا . بيد أن التنقيبات في هذه السوية لم تكشف حتى الان عن شواهد كتابية قد تزودنا بمعلومات عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ايبلا خلال النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد .

٣ ــ تل عطشانة ــ الالاخ :

يقع هذا التل على نهر العاصي في سهل العمق (منطقة انطاكية ـ لواء اسكندرون حاليا) وقامت بالتنقيب فيه من عام ١٩٣٦ حتى ١٩٤٩ بعثة أثرية بريطانية برئاسة وولي وكشفت عن سبع عشرة طبقة اثرية تمتد من الالف الرابع حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وعرفتنا المكتشفات على مملكة الالاخ التي كانت قائمة في هذا المكان . وفيما يتعلق بالنصف الاول للالف الثاني قبل الميلاد قد زودتنا نتائج التنقيب في هذا التل بوثائق كتابية هامة وبنموذج معبد وقصر يرقى الى منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد ووصلت ابعاد القصر من عهد الملك ياريليم الى ١٥ × ٩٠ مترا ويذكرنا مخطط القصر بالقصر الملكي في كنوسوس في جزيرة كريت .

كانت الالاخ عاصمة لمملكة موكش التي تضم منطقة سهل العمق وأول ملك تعرفنا عليه النصوص المسمارية التي عثرت عليها البعثة البريطانية هو ياريليم

الذي كان تابعا سياسيا لملك حلب . ويبدو أن الالاخ قد حظيت بمكانة هامة لوقوعها على طرق التجارة بين حلب والاناضول والبحر المتوسط . وتعتبر النصوص المسمارية المكتشفة في الالاخ المصدر الرئيسي الثاني بعد نصوص تل الحريري لمعلوماتنا عن مملكة حلب ـ يمحاض .

النصف الثاني للالف الثاني قبل الميلاد

لعل هذه الفترة من أفضل الفترات التاريخية الموثقة بالشواهد الحضارية والكتابية الوافرة . ولقد شهد القطر العربي السوري خلالها احداثا مثيرة حولته الى حلبة صراع بين الدول الكبيرة المجاورة له كالصراع الحثي ـ المصري والحثي ـ الاشوري ، كما عرف قطرنا اعنف مأساة حضارية وسياسية تجلت في غزو شعوب البحر للبلاد في حوالي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد . ولقد سبب هذا الغزو دمار ونهاية معظم الممالك والامصار التي ازدهرت على الساحل وفي المناطق الداخلية مثل اوغاريت والالاخ وقطنة وقادش .

ومن ابرز المواقع التي زودتنا اعمال التنقيب الاثري الجارية فيها بشواهد مادية وكتابية على هذه الفترة نذكر :

١ ـ راس الشمرة ـ اوغاريت :

يقع تل راس الشمرة على بعد حوالي ٧ كليو مترات الى الشمال من اللاذقية ، وتقوم بالتنقيب الاثري فيه منذ عام ١٩٢٩ بعثة اثرية فرنسية برئاسة الاستاذ كلود شيفر (حاليا برئاسة جان مارغرون) . ولقد حققت هذه البعثة اكتشافات اذهلت الاوساط الاثرية والتاريخية في العالم .

ومن ابرز تلك المكتشفات نذكر : الابجدية الاوغاريتية التي تعتبر الاولى من نوعها في تاريخ البشرية (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) بالاضافة الى العديد من الرقم المسمارية التي تدون الاحداث السياسية وتسرد الحياة اليومية وتسلط الاضواء على الممارسة الدينية وتسجل المعاملات الاقتصادية والعقود التجارية . كذلك فقد كشفت أعمال التنقيب عن القص الملكي الكبير البالغة مساحته حوالي الهكتار وعن عدة معابد دينية بالاضافة الى احياء بكاملها . وفي ضوء المكتشفات المتنوعة اصبحنا نعرف أن مدينة اوغاريت كانت عاصمة لمملكة صغيرة على الساحل ولقد عمها الازدهار الاقتصادي بفضل علاقاتها التجارية مع الجزر الايجية وبلاد

الاناضول ومع مصر وبلاد الرافدين وكانت غالبية اهاليها من الساميين الغربيين الذين نعرفهم باسم الكنعانيين .

هذا وتعتبر النصوص الكتابية المكتشفة في رأس الشمرة من جملة المصادر الرئيسية التي نستقي منها معلوماتنا عن مملكة حلب ــ يمحاض المعاصرة لها .

٢ ــ تل النبي مند ــ قادش القديمة

يقع هذا التل على بعد حوالي عشرين كيلو مترا الى الجنوب الغربي من حمص وهو يطل على نهر العاصي بالقرب من بحيرة قطينة . ولقد قامت بعثة اثرية فرنسية برئاسة الاستاذ بيزار بالتنقيب فيه خلال عام ١٩٢١ وكشفت عن منشات معمارية ولقى اثرية ترقى الى النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد ، كما عثرت البعثة على رقم مسمارية أكدت محتوياتها على ان هذا التل يضم في ثناياه مدينة قادش التي ذكرتها النصوص الحثية والمصرية القديمة في صدد المعركة العسكرية الفاصلة بين المصريين والحثيين .

وكان من جملة المكتشفات العثور على شاهدة حجرية منحوتة للملك المصري سيت الاول .

وعلى الرغم من الاهمية البالغة التي يتمتع بها هذا التل فقد توقف التنقيب فيه بعد عام ١٩٢١ وبقي الموقع في طي النسيان الى ان تقدمت في عام ١٩٧٥ بعثة اثرية بريطانية لاستئناف التنقيب في هذا المكان الذي يبشر بالعطاء الاثري والفيض التاريخي .

٣ ــ تل عطشانة ــ الالاخ

كشفت البعثة الاثرية البريطانية التي سبق ذكرها عن طبقة اثرية ترجع الى النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد . ولقد بينت النتائج آنذاك ان الالاخ قد احتلت مكانة بارزة خلال هذه الحقبة . ومن ابرز المكتشفات نذكر : القصر الملكي الذي بناه الملك نقميبا في منتصف القرن الخامس عشر وتمثال الملك ادريمي ثم العديد من الرقم المسمارية ذات الاهمية التاريخية البالغة .

٤ــ تل المشرفة (قطنة)

يقع هذا التل على بعد حوالي ١٨ كيلو مترا الى الشمال الشرقي من حمص

وقامت بعثة أثرية فرنسية برئاسة الكونت دو بويسون بالتنقيب فيه خلال سنوات ١٩٢٤ و ١٩٢٧ وكشفت عن سور مدينة من الالف الثاني قبل الميلاد كما أظهرت معالم معبد الربة الرافدية نينكال وعثرت على عدد قليل من الرقم المسمارية التي اكدت محتوياتها على أن هذا التل يحتضن مدينة قطنة التي ذكرتها النصوص المسمارية الرافدية والمصرية والحثية .

وبالرغم من النتائج الطيبة التي خرجت بها البعثة في هذا الموقع الا ان التنقيب فيه قد توقف منذ ١٩٢٧ ونحن لانزال نستغرب تردد الاثريين لاستئناف التنقيب في عاصمة مملكة شغلت مكانة مرموقة في أحداث العالم القديم وبخاصة خلال النصف الثاني للالف الثاني قبل الميلاد .

النصف الاول من الالف الاول قبل الميلاد

لقد اندثرت معظم الممالك المذكورة آنفا في أعقاب غزو شعوب البحر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ولايزال قطرنا يعاني من صمت المصادر التاريخية وخلو الطبقات الاثرية من الدلائل والعينات المادية التي قد تمكننا من رسم الصورة التاريخية والحضارية التي آل اليها القطر بعد ذلك التاريخ الحاسم ، فشعوب البحر لم يخلفوا لنا في المواقع التي جرى التنقيب فيها الا طبقات من الرماد الملفح باتربة القرون الطويلة (*)

بيد أن ممالك جديدة تكونت وازدهرت منذ القرن التاسع قبل الميلاد ولقد اعانتنا نتائج التنقيب في المواقع التي سنتحدث عنها على التعرف على بعض أوجه التاريخ السياسي والحضاري لقطرنا بعد ذلك الصمت الذي دام لعدة قرون .

لقد خلف الفينيقيون اجدادهم الكنعانيين في الساحل واستطاع الآراميون القادمون من الجزيرة العربية تأسيس ممالك عديدة في المناطق الداخلية من قطرنا وفي بعض مناطق الجزيرة ، وانبعثت امارات حثية من جديد في المناطق الشمالية من القطر .

١ ـ تل رفعت

يقع هذا التل على بعد حوالي ٣٥ كم الى الشمال من حلب وقامت بالتنقيب فيه عام ١٩٦٠ بعثة اثرية بريطانية واكدت نتائج التنقيب على أن هذا الموقع يغيب

في باطنه مدينة ارباد عاصمة مملكة بيت عجوزي الآرامية كما عرفتنا الشاهدة الحجرية التي جلبها تجار الاثار من قرية السفيرة في جنوب حلب والمشفوعة بكتابة ارامية قديمة ، على معاهدة سياسية عقدها ملك ارباد في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد مع الملك بارغاياه .

وتعتبر محتويات هذه المعاهدة مصدرا هاما لتاريخ القطر في عهد الملك تيغلات فيلصر الثالث .

٢ ـ تل حماه

عرفتنا التنقيبات الدانمركية التي جرت في حماه على شواهد مادية وكتابية تسلط الاضواء على المكانة التي شغلتها حماه في ظل الامارات الحثية الجديدة والدور البارز الذي لعبته المدينة عندما أصبحت أحد أكبر الممالك الارامية منذ القرن التاسع الى أن تحولت الى ولاية اشورية سنة ٧٢٠ قبل الميلاد ، وتجدر الاشارة الى أن اسم مدينة حماه معروف في الوثائق الكتابية منذ الالف الثاني قبل الميلاد .

٣ ـ تل حلف ـ غوزانة

يقع هذا التل عند منابع نهر الخابور ويبعد حوالي خمسة كيلو مترات الى الجنوب الغربي من بلدة رأس العين . وقامت بالتنقيب فيه بعثة أثرية المانية برئاسة ماكس فون أوبنهايم . وتعتبر هذه العملية أقدم عملية تنقيب أثري في القطر .

لقد أسفرت التنقيبات عن كشف قصر فخم من العهد الارامي ، وعرفتنا المكتشفات على اسم الملك كبارة كما اكدت الكتابات المكتشفة على أن تل حلف ماهو الا مدينة غوزانة التي كانت مركزا لولاية اشورية في سنة ٨٠٨ قبل الميلاد . بيد أن أعمال التنقيب لم تكشف الا عن القليل من الشواهد الاشورية .

نقلت البعثة الاثرية الالمانية معظم التماثيل والمنحوتات الحجرية الضخمة التي كانت تزين القصر الملكي الى برلين ، وخصصت لها قاعة كبرى في متحف الدولة ببرلين ، بيد أن قنابل الحرب العالمية الثانية لم ترحم المباني الثقافية وشاءت أحد القنابل التي سقطت في قلب القاعة أن تحول التماثيل البازلتية الضخمة الى شظايا صغيرة متناثرة . ولحسن الحظ أن البعثة نفسها قد تركت

في حلب قوالب جصية لكافة التماثيل التي نقلتها الى برلين ، وبفضل هذه القوالب تمكنت المديرية العامة للآثار والمتاحف من صب التماثيل لتزين بهـا مدخل متحف حلب الجديد .

٤ ـ اسلان طاش :

يقع هذا التل الى الشرق من طرابلس ولقد قامت بعثة اثرية فرنسية برئاسة تورود دانغان بالتنقيب فيه عام ١٩٢٨ ، واسفرت النتائج عن كشف مدينة مسورة وعن قصر للملك الاشوري تغلات بيلصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ قبل الميلاد) وعن معبد تابع للقصر نفسه ، كما أكدت التنقيبات على ان هذا التل يضم مدينة حداتو القديمة . ومن جملة المكتشفات نذكر بقايا زخرفية مصنوعة من مادة العاج ومنفذة باسلوب فينيقي .

٥ ـ تل برسيب :

يقع هذا التل على الشاطىء الايسر من نهر الفرات والى الجنوب من جرابلس ولقد قامت بعثة اثرية فرنسية برئاسة كل من توردو دانغان ودونان بالتنقيب فيه عام ١٩٢٩ حتى ١٩٣١ ـ وكشفت اعمال التنقيب عن قصر اشوري يرجـع تاريخه الى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ، وعثرت البعثة فيه على رسوم جدارية ملونة تمثل مشاهد ملكية اشورية وعلى انصاب منقوشة بكتابات حثية هيروغليفية .

كان تل برسيب في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد عاصمة لمملكة بيت عديني الارامية ثم اصبحت في ظل الحكم الأشورى منـذ ان فتحها الملـك شلمانصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م) . ولقد عثرت البعثة على نصب حجري باسم الملك اسرحدون (٧٨٢ ـ ٧٧٢) وعلى نصب اخر باسم والي شلمانصر الرابع (٧٨٢ ـ ٧٧٢ق.م) .

لقد شبهنا في مطلع مقالتنا هذه نشوء الصورة التاريخية والحضارية لقطرنا بلوحة فسيفسائية ونود أن نختتم هذه العرض بالاشارة الى أن مدارس البحث التاريخي والحضاري كانت في الماضي تكتفي بابطال الاحداث السياسية او العسكرية او الدينية لملء الصورة التاريخية والحضارية لمنطقة ما .

فنحن في اكثر الاحيان لا نعرف الا تاريخ الملوك والقادة والولاة والحكام ولكننا لا نعرف الا النذر اليسير عن تاريخ الرعية .

كما اننا احيانا لا نعرف شيئا عن مظاهر الحياة اليومية للعامة من الناس أو تركيبهم الاجتماعي او طرق معيشتهم او ماهية مصادر رزقهم .

ان صورة من هذا النوع تشبه الى حد كبير مشهد الفسيفساء الذي يمثل الامبراطور البيزنطي جوستينيان والامبراطورة تيودورا أمام خلفية ذهبية خرساء . اننا نريد صورة يتقدم فيها الخاصة والعامة على السواء امام خلفية ذاهية أو عاتمة للبيئة التي عاشوا فيها ولمظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي خلقتها فعاليتهم .

بيد ان التنقيب الاثري في قطرنا وفي اقطار اخرى من العالم لم ينج من مثل هذه الاساليب القديمة في البحث العلمي ونحن لا نزال نملك امثلة على منقبين اثريين اكتفوا بالكشف عن القصر والمعبد وتركوا المنازل والبيوت والاكواخ والشوارع والازقة مغيبة.

* * *

حول مصادر تاريخ العرب القديم

د. مفيد رائف العابد

كلية الاداب ـ جامعة دمشق

من وجهة نظر بعض المؤرخين أن من بين اكبر اسباب قلة المراجع التي تبحث في تاريخ العرب القديم ، ندرة المصادر وتناثرها وتفاوت قيمتها واهميتها وبالتالي صعوبة استخلاص المعلومات منها . وهو في الواقع سبب وجيه ينسحب على كل فروع التاريخ القديم ، ولكنه في مجال تاريخ العرب القديم تقل نسبة وجاهته أو تكثر حسب التعريف الذي يحدد تاريخ العرب القديم او بالاحرى من هم العرب المتحدث عنهم . فمن وجهة نظر البعض أيضا (وهي وجهة نظر مديدة) يعتبر الفينيقيون أو الكنعانيون والآراميون وغيرهم من الشعوب التي استوطنت مناطق الشرق العربي وانساحت من شبه الجزيرة العربية ـ كما توحي الدراسات الحديثة ـ يعتبر كل هؤلاء عربا ، في حين يعتبر بعض آخر ان العرب هم سكان شبه الجزيرة العربية الذين ظهر فيهم الاسلام وأمدهم بالقوة اللازمة لبناء الدولة العربية الاسلامية ، أي أن العرب من وجهة نظر هؤلاء هم العرب في الجاهلية(1) .

وبغض النظر عن اتساع وجهة النظر الاولى ، فان تواريخ العرب حسب ما تذهب اليه تعتبر نموذجية ومتوافرة بشكل معقول اذا ما قورنت بمصادر تواريخ اقوام أخرى اشادت حضارات قديمة . بيد أن المصادر تبدو ضئيلة فعلا من وجهة النظر الثانية وذلك لاسباب منها أولا : فقر العرب القدامى ، فالامم الفقيرة ماديا أو معنويا (وهذه وجهة نظر خاصة) لا يهتم بتاريخها الكثيرون وهي ايضا لا تخصص لتاريخها ما يليق به من مقام لاولويات معروفة . ثانيا : عدم اقامة العرب ممالك كبرى تخلف مصادر أو أوابد أو اثار متميزة . ثالثا: بعد المنطقة العربية عن مراكز الحضارات . رابعا : استخدام الاجيال العربية المتعاقبة لمناطق سكن واحدة تستهلك فيها الاجيال المقيمة المخلفات الاثرية لإسلافها . خامسا : اعتماد النسابين والمؤرخين العرب على

ذاكرتهم في تسجيل احداث عصرهم والاحداث التي سبقتها وبالتالي عدم اعتمادهم على الكتابة . سادسا : اقتصار التاريخ العربي القديم على روايات وضعها الوضاعون في الجاهلية أم في الاسلام لمآرب اقتضتها عواطف أو مؤثرات خاصة ، فدخل التاريخ في الاسطورة ولم يعد بالامكان التفريق الا بصعوبة بين التاريخ كأسطورة نصدقها وبين الاسطورة كتاريخ لا نصدقه .

وكأي من التواريخ القديمة الاخرى تقسم المصادر عن تاريخ العرب القديم الى قسمين . أولهما : المصادر الكتابية وهي متعددة ، وثانيهما : الآثار والنقوش .

أولا ــ المصادر الكتابية :

ويمكن تقسيم المصادر الكتابية بدورها الى اقسام ثلاثة ، تأتي فيمقدمتها الكتابات المقدسة ، وتليها في الاهمية اشعار العرب القدامى او اشعار الجاهلية ، وتأتي ثالثا الكتابات القديمة .

١ ــ الكتابات المقدسة: واهمها القرآن الكريم والتوراة ويتصل بهما الحديث الشريف والتلمود .

والقرآن الكريم ، كلام الله الذي يتصف بصفتين فريدتين متميزتين عن أي مصدر تاريخي آخر ، فهو رغم قدمه لم يتطرق اليه تحريف أو تبديل على مر العصور ، ومن جهة أخرى هو كلام الله المنزل الذي لا يرقى اليه شك . ويبدي بعض المؤرخين (الغربيين على وجه الخصوص) اعتراضا على قيمة الحادثة التاريخية التي يرويها القرآن الكريم من الناحية التفصيلية ، على أساس ان القرآن الكريم لايستهدف اعطاء معلومات تاريخية بقدر ما يهدف الى عرض امثلة يستفاد منها العبرة والموعظة ، ويستدلون على هذا بأن معظم اشارات القرآن الكريم التاريخية مقتضبة وعابرة يختلط فيها الحدث بالعرض التربوي له . ويرد بعض الباحثين(٢) على اتهام المؤرخين السابقين بأن اشارات القرآن العابرة لا يمكن ان ينتقص من أهميتها لسببين، الثاني منهما يتعلق بالمضمون ، والاول شكلي ، وهو ان مصادر أي تاريخ تعتبر وحدة متكاملة تساعد على استكمال الحقيقة التاريخية ، وقد يحصل احيانا ان ينير لنا سطر واحد أو حتى عدة كلمات من سطر طريقنا الى نقطة غامضة في تاريخ ما ، أو يقدم لنا تصورا جديدا ، او يستكمل لنا معلومة ناقصة .. الخ . ويمكن ان يضاف الى ذلك انه ليس من الضروري أبدا ان يكون أي مصدر سجلا مباشرا للاحداث والمواقف ، حتى انه في هذه الحالات قد يكون عرضة للتردي في الخطأ . وفي بعض الحالات يكون

الاستنتاج غير المباشر السبيل الوحيد أمام الباحث ، الذي يكمن دوره (وبخاصة في مجالات التاريخ القديم) في استخلاص اقرب ما يكون الى الحقيقة التاريخية ضمن الاطار المعروض له أو الصورة التي وصلته .

ولا ينتقص من أهمية اشارات القرآن الكريم من ناحية المضمون ، اذ أن هذه الاشارات اضافة الى قدسيتها تطلعنا – ولو بشكل مختصر – على عدد كبير من الاحداث والمواقف الخاصة بالمجتمع العربي قبل الاسلام أو المعاصرة لبدء انتشاره او السابقة لها . وهكذا يقدم لنا القرآن الكريم انفعال هذا المجتمع بهذه الاحداث والمواقف . وكذلك يعطينا القرآن الكريم في محاولته تصحيح هذه المواقف فكرة عن الاوضاع والممارسات والدوافع التي من اجلها تمسك ذلك المجتمع بعاداته وتقاليده ، ومن ثم يحصل المؤرخ من واقع اشارات القرآن على صورة الصراع الذي شهده المجتمع العربي في نهاية الجاهلية بين اسلوبين من اساليب الحياة العربية ، الاسلوب الجاهلي والاسلوب الاسلامي الباكر .

وواقع الامر فقد تعرض القرآن الكريم لاحوال كثيرة من الجماعات التي عاشت في الجزيرة العربية قبل الاسلام مثل عاد وثمود وسبأ وقريش (٣) ، بشكل مكن بالاستعانة ببعض المصنفات الكلاسيكية وأشهرها كتابات (بطلميوس وبلينيوس واسترابون (٤) من تحديد أماكن اقامتها بشكل دقيق . وهذا ما ينطبق اكثر ما يكون على عاد وثمود (٥) وبشكل أقل على سبأ (٦) التي يحدثنا القرآن الكريم عن سدها العظيم الذي سمي على اسم عاصمتها (مأرب) والذي تحطم اثر تصدعات متعاقبة وبنتيجة سيل عظيم(٧) . كما يخبرنا القرآن الكريم بعض المعلومات السياسية ، مثل زيارة المجاملة الخارجية التي قامت بها ملكة سبأ (والمعتقد بأنها سبأ الشمالية) بلقيس للملك سليمان (ملك يهوذا في القرن العاشر (٨) لتأكيد حسن الجوار وخشية قيام ملك يهوذا بتدبير اقتصادي يحرم سبأ عوائد تجارة الترانزيت التي اشتهرت بها وقتذاك على حد تفسير معظم المؤرخين المعاصرين .

ومن خلال تعرض القرآن الكريم لاحوال الجماعات العربية القديمة يعرفنا بكثير من جوانب الحياة الاجتماعية وبشكل خاص العلاقات بين سكان المدن التجارية وسكان البوادي . ويؤكد مثلا ان مكة كانت احدى أهم المدن ذات الصبغة الدينية الى جانب التجارية ، وان هذه المدينة زهت أيام مجدها بأن قاطنها كان يتمتع بنوع من الامن نظرا للصفتين السابقتين(٩) ، واللتين كانتا تكرسان باستمرار عن طريق الايلافات (الاتفاقات) التي كانت تعقدها قريش أشهر قبائل المدينة المكرمة مع قبائل اخرى(١٠) .

ويرد في القرآن الكريم استعراض شبه تفصيلي للوضع الاجتماعي في (يثرب) والصراعات التي دارت قبل وصول النبي الكريم اليها وطبقاتها الاجتماعية واصول سكانها . وفي الحديث عن الاعراب الذين يقطنون البوادي (١١) أو بالقرب من المدن(١٢) . يلقي القرآن ضوءا على احوال هؤلاء قبل الاسلام ويؤكد على عدم ارتباطهم بقيم خلقية ثابتة(١٣) وينصح بالتعامل معهم اما بالترهيب بالعذاب الاليم او بالترغيب بالامر الحسن (١٤) . وفي مجال الحديث عن هؤلاء يعطي القرآن الكريم فكرة عن مناخ الجزيرة العربية القاسي وطرق الحياة المثلى التي كان يحياها هؤلاء في ظل هذه الظروف ، وعن معرفة بعضهم القراءة والكتابة ، وعن استخدامهم الطيور في عمليات الصيد ، والخيول في اللهو والحرب ، والجمل للنقل الى مسافات بعيدة ، وغير ذلك من العادات الاجتماعية التي حارب الاسلام بعضها كوأد البنات ورسخ بعضها الآخر كالحمية والايثار .

واذا كانت معلومات القرآن الكريم تعتبر في نظر الجميع المصدر الاول لتاريخ العرب القديم لمعاصرته ذلك التاريخ وعدم تحريف نصوصه أو تبديلها ، فان معلوماته لا تفضل كثيرا المعلومات التي يمكن استخلاصها من الحديث الشريف . وتكمن اهمية الحديث من حيث المصدرية التاريخية في معاصرة الرسول الكريم لاحداث مجتمع ما قبل الاسلام . ومع ان الاهتمام الاكبر للاحاديث قد انصب حول امور واحكام دينية الا انه تضمن مع ذلك قدرا كبيرا من اخبار المجتمع الجاهلي التي يمكن استخلاصها أو استنتاجها بسهولة من واقع هذه الاحاديث ، وبخاصة في مجال العادات والتقاليد التي نهى عن بعضها الرسول الكريم وأيد بعضها الآخر .

ومع الاهمية السابقة للحديث الشريف ، يدخل بعض المؤرخين وحتى العرب المسلمون منهم عند الاخذ بها اعتبارات متعددة اهمها تتعلق بطريقة انتقال الحديث الشريف الينا ، فالمعروف ان الحديث ظل ينتقل مشافهة طيلة قرنين كاملين الى ان قام الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز بجمعه وتدوينه أواخر القرن الثاني للهجرة ، وهذا أمر في عرف الموضوعية التاريخية يقلل من اهمية المعلومات ــ التاريخية على وجه الخصوص ــ التي يمكن استقاؤها من الحديث ، اذ يحتمل تعرض الحديث الى تأويل او تغيير او تحريف او غيرذلك .وهذا بطبيعة الحال لا يقلل من قيمة رواة الحديث ، وبخاصة ان معظمهم او اشهرهم كمالك والبخاري ومسلم وابي داود والترمذي وابن حنبل قد عرفوا بصدقهم وحرصهم ، وأنهم لم يكونوا ينقلون من الاحاديث الا المثبت منها . ولكن المشكلة تكمن في انهم جميعا عاشوا في فترة تراوحت بين اواسط القرن الثاني للهجرة وبدايات القرن الرابع مما يجعل امكانية نقلهم

لاحاديث صحيحة مئة بالمئة واردا ولكن مع امكانية ابطال العمل بها زمن الرسول بموجب حديث آخر لم يذكر ضمن هذه الاحاديث لسبب ما . فاذا اضفنا الى ذلك ان فترة القرنين الاولين للهجرة ـ وهي الفترة التي لم تسجل فيها الاحاديث وانما رويت فقط ـ قد شهدت بروز ابرز التيارات والنزعات السياسية التي بررت وجودها بدعاوى دينية ، فان ذلك يدفعنا الى الحذر في الاعتماد على مرويات الحديث التاريخية ، وتأييد بعض كبار مؤرخينا فيما ذهبوا اليه وهو اننا لا نستطيع الاعتماد على الحديث تاريخيا الا في حالة كونه موافقا لما ورد في القرآن الكريم(١٥) .

وتعتبر التوراة والتلمود بعد القرآن الكريم والحديث الشريف ، أهم مصدرين مقدسين عن تاريخ العرب القديم . والتوراة كما هو معروف كتاب اليهود المقدس ، وهو عبارة عن مجموعة من الاسفار كتب معظمها في فلسطين جماعة من انبياء اليهود في أوقات مختلفة . وكتب بعضها الآخر جماعة اخرى في العراق أيام سبي بابل . وتختلف التوراة في قيمتها التاريخية عن القرآن الكريم في انها مرت بفترة رواية شفهية طويلة تصل احيانا الى ثلاثة قرون قبل البدء بكتابتها لدرجة حفزت بعض المذاهب اليهودية والمسيحية الى عدم الاعتراف ببعض الاسفار . والتلمود ، هو مجموعة من الشروح والاحكام التطبيقية المكملة للتوراة ، وقيمة المصدرين بعد الاخذ بعين الاعتبار تأخر تدوينهما هي انهما يعطيانا فكرة عن علاقة العبرانيين بالعرب المجاورين في الحجاز أم في سورية ، اضافة الى معاصرة احداثهما فترة الجاهلية الباكرة . ورغم ان معلوماتهما عن العرب تبدو في كثير من الاحيان موجزة لدرجة لا يتمكن معها الباحث الا الاعتماد على المصادر الاخرى كالاثار والنقوش والكتابات الكلاسيكية لاستخلاص شواهد تاريخية مكتملة ، الا انهما يعطيان فكرة معقولة عن عقائد العرب وعاداتهم من التي لانجد لها ذكرا في مصادر اخرى .

٢ ـ **اشعار العرب القدامى** : ورغم العلاقة الوثيقة بين التاريخ وكل انواع الادب التي يؤكدها عدد كبير من المؤرخين ، يطرح مؤرخون آخرون سؤالا مفاده : كيف يمكن للمؤرخ ان يعتمد على الشعر كمصدر تاريخي(١٦) وهو الذي تدخل فيه بالضرورة كل مقومات العواطف والمغالاة والتصورات والانطباعات الفردية التي قد تصل فيها درجة الخلاف بين شاعر وآخر الى حد التناقض ، وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها اطلاقا . ولكن مع ذلك يمكن القول ، ان المفهوم المعاصر لدراسة التاريخ لم يعد يهدف فقط الى التعرف على حياة الافراد ، اذ لا يمكن تصور أفراد معينين بمعزل عن مجتمعاتهم ، ومهما اوتي هؤلاء الافراد من كفايات وامكانيات خارقة لا يستطيع هؤلاء دون تجاوبهم مع ظروف مجتمعاتهم زمنا وامكانات، تعديل او تغيير هذه المجتمعات . ولما كان من واجب المؤرخ تناول ظروف أي مجتمع يقوم على درسه

من النواحي الاقتصادية والاجتماعية لا يجوز بالتالي ان تقتصر دراسة اي مؤرخ لاية حقبة زمنية على الوثائق الرسمية او المعلومات التي يدونها كبار القوم عن مسار حيواتهم . ولما كان الشعراء جزءا من مجتمعاتهم ، ولما كانت تعابيرهم الشعرية تعكس المعاناة الذاتية او الانطباعات الشخصية لكل واحد منهم وتتم هذه في اطار تجاربهم ، فان من باب المستحيل الاعتقاد أن الشعر لا يتضمن شواهد تاريخية حقيقية فعلا . واذا كان معظم ان لم يكن كل الشعراء يبالغون أو يتخيلون في تقديم هذه الصور ، فان من بدهيات عمل المؤرخ الا يسلم الا بما لا يتعارض مع المنطق السليم للامور وعليه ان يستنبط من اشعارهم ما لم يكتمل عنده من معلومات تاريخية بعد تجاوز اي مبالغة او تخيل او انفعال .

ويمكن ملاحظة ما سبق ذكره في بعض التوجهات العامة للمجتمع التي يمكن استخلاصها من واقع الشعر الجاهلي وبخاصة القيم التي تحكم هذا المجتمع وطبيعة تصوره لها . ولعلنا لا نستطيع ان ندرك كثيرا من علاقات المجتمع الجاهلي القبلية ان لم نكن نعرف تصور هذا المجتمع لعديد من القيم قد لا تكون مستساغة في مجتمعاتنا المعاصرة مثل معنى الشرف ورابطة العصبية وممارسة الثأر ، وكذلك بعض الدوافع التي تساعدنا على تبرير تصرفات معينة ، ويظهر هذا في شعر البكاء على الاطلال الذي ابتكره عدد من العشاق العرب والذي يرينا مقدار الضغط الاقتصادي الذي يضطر احيانا الشاعر الى التضحية بجوار الحبيبة ـ وهو امر يقرب الى الموت في تصوره ـ لقاء تأمين لقمة العيش لنفسه والكلأ لقطعانه(١٧) . ومن خلال هذه الاشعار يعرفنا الشعراء ببعض الامور التي لا دخل للمبالغة أو التخيل فيها نظرا لكونها جزءا من الحياة اليومية ، مثل الحيوانات وأنواعها وأشكالها وافضلها ، والملابس وأفخرها واحسنها والبيوت والخيام وأكبرها ومواصفاتها والآلهة واعظمها واجلها والطقوس وطرق ممارساتها ، والاماكن واكثرها شهرة والطرق واطوالها واكثرها امنا والاسواق والمواقع وغير ذلك من تفاصيل الحياة اليومية .

٣ ـ **الكتابات القديمة** : وهي كثيرة وان كانت كثرتها لا تتناسب طردا مع المعلومات عن جاهلية العرب او تاريخهم القديم . وتقسم هذه المصادر الى مجموعتين الاولى : كتبها كتاب الاغريق والرومان الذين عاصروا العرب في جاهليتهم وتدعى بالمصادر الكلاسيكية ، والثانية : كتبها كتاب العصور الاسلامية المختلفة ، وهذه بالضرورة تعتمد اما على المصادر الكلاسيكية ذاتها او على ما تخلف في ذاكرة النسابين من معلومات تاريخية .

آ ـ الكتابات الكلاسيكية : ويقصد بالكلاسيكية كل الكتابات التي كتبت قبل

الاسلام باحدى اللغتين اليونانية القديمة او اللاتينية ، وهي على ما احتوته من اخطاء ذات قيمة تاريخية كبيرة لانها تضمنت معلومات تاريخية وجغرافية وعن بعض القبائل لا نعلم عنها شيئا من مصادر أخرى .

ويعتقد بأن أول اشارة الى مجتمع شبه الجزيرة العربية وردت في (أوديسة هومروس) (القرن التاسع ق.م) ، وقد تتابعت الاشارات المقتضبة بعد ذلك في شعر (هسيود) (القرن الثامن ق.م) وبعد ذلك في بعض مسرحيات (ايسخولوس) (القرن الخامس ق.م) . وتعطي هذه الاشارات المقتضبة دلالة تاريخية مفادها أنه لم يكن بين العرب وبلاد الاغريق اتصال مباشر . بيد ان اول ذكر مفصل عن بلاد وتاريخ العرب القديم في المصنفات الكلاسيكية ورد عند (هرودتوس) (القرن الخامس ق.م) الذي عرف كلمة (ارابيا) على انها اقصى البلاد المأهولة في العالم من ناحية الجنوب (١٨) ، وضمنها اضافة الى شبه الجزيرة العربية كلا من بادية الشام وسيناء وصحراء مصر الشرقية . وباستثناء بعض المبالغات التي وردت في كتابات هرودتوس والتي يمكن تبريرها بأن مؤرخنا الكبير قد اعتمد فيها على الرواية ، وانه رغم حرصه على نقد رواياته ومحاكمتها لم يتمكن ان يكون في نجوة من الافكار الساذجة التي سادت عصره ، فان معظم ما أورده هرودتوس من معلومات تعتبر نموذجية - في تقديرنا - لفترة روايتها . ويتحدث فيها كما اسلفنا عن الموقع والتربة والمنتجات والعادات والتقاليد والعقائد والالبسة العربية ، وقليلا عن تاريخ العرب وعلاقاتهم بجيرانهم (١٩) .

ورغم الاهمية التي يعلقها المؤرخون على معلومات هرودتوس ، تبقى بدون شك معلومات موسوعية تعنى بالقضايا العامة على حساب المعلومات التفصيلية . ولم يظهر الاهتمام بهذه النواحي حتى العقد الثالث من القرن الرابع ق.م في نهاية حملة الاسكندر الشرقية . حيث تخبرنا مصادرنا ان الاسكندر الذي قضى عام (٣٢٣ق.م) كان قبل وفاته مباشرة يضع الخطط العسكرية لغزو بلاد العرب ، وكان قد ارسل بعض ضباطه للتعرف على مساحة هذه البلاد وسكانها وامور اخرى كان يجهلها ، ولكن القدر انكر عليه تحقيق هذه الامنية ومات دون تحقيقها . وقد دون هذه المعلومات اثنان من مرافقيه القائد بطلميوس (Ptolemy) (ملك مصر لاحقا) واريستوبولوس (Aristobulos) (مؤرخ حملة الاسكندر) اللذين خلفاها بدورهما الى كاتبين هما استرابون (Strabon) (٢٠) (٦٤ - ١٢ ق.م) . واريانوس (Arrianus) (٢١) (القرن الثاني ميلادي) وكاتب ثالث من فترة اقدم اهتم بالتاريخ الطبيعي اكثر هو ثيوفراستوس (Theophrastos) (٣٧١ - ٢٨٧ ق.م)(٢٢) .

ويبدو انه مع استقرار الامور السياسية في العصر الهلنستي (٣٢٣ – ٣١ ق.م) وارتباط المصالح الاقتصادية – التجارية منها على وجه الخصوص – لاقوى دولتين معاصرتين دولة السلوقيين في سورية ودولة البطالمة في مصر مع شبه الجزيرة العربية بدا اهتمام تفصيلي ملحوظ بالجزيرة العربية وسكانها واحوالهم . وبرز في هذا المجال ثلاثة كتاب رئيسيين : اراتوسثنس (Eratosthenes) (٢٧٥ – ١٩٤ ق.م) واجاثارخيدس (Agatharchides) (نهاية القرن الثاني وبداية الاول ق.م) وارتميدوروس (Artemidoros) (نهاية القرن الثاني وبداية الاول ق.م) . وتعتبر كتابات اراتوسثنس اول كتابات علمية عن الامور الاقتصادية للمنطقة العربية ، وفيها قسم المنطقة الى قسمين صحراوي وزراعي ، وسكانها الى بدو وفلاحين واقوامها الى معنيين (Minaioi) وسبايين (Sabaioi) وقتبانيين (Katabaneis) وحضارمة (Chatramotitae) ، وذكر ان اهم مدنها التجارية كانت (ايله) على خليج العقبة و (جرها) على الخليج العربي ، وغير ذلك من المعلومات الاقتصادية(٢٣) .

ويصف اجاثار خيدس وهو اغريقي من الاسكندرية في كتابه « الطواف حول البحر الارتيري (الاحمر) » سواحل الجزيرة العربية الغربية . وقد اعتبر كتابه في عرف ذلك العصر دليلا للتجارة والتجار ، اذ تعرض الى اهم مواصفات السواحل وخطورتها واهم مدنها والتخصصات التجارية لكل مدينة . ويسهب في ذكر ما يتعلق بمنطقة سبأ ومواردها وحياتها الاجتماعية الباذخة(٢٤) . ويعطي ظهور هذا الكتاب دلالة مفادها توطد النشاط التجاري بين دول العالم الهلنستي والمنطقة العربية لدرجة اصبح مألوفا او بالاحرى مطلوبا توافر مثل هذه الكتب الثقافية والعلمية في الوقت نفسه .

وتعتبر كتب ارتميدوروس الجغرافية الاحد عشر من ابرز الكتب المعاصرة التي تعرضت الى شؤون الجزيرة العربية ، ورغم انه اعتمد على منجزات من سبقه بصورة رئيسة الا انه اضاف اليها معلومات وتفاصيل جديدة عن مناطق البحر الاحمر ومراكز التجارة العربية في الرافدين والبتراء وطرق انتقال التجارة والعلاقات بين القبائل التي عملت في التجارة في المنطقة العربية(٢٥) .

ومع بداية الفترة الرومانية وبخاصة العصر الامبراطوري (٢٧/٣١ ق.م) تزايد الاهتمام بشؤون الجزيرة العربية ، ويعزو المؤرخون(٢٦) هذا الاهتمام المتزايد لاسباب ثلاثة أولها : مجاورة الحدود الشرقية للامبراطورية بلاد العرب ، وثانيها : رغبة الرومان في تأمين الخط البحري للتجارة الشرقية بعد تهديد البارثيين (Parthians) لمعظم الخطوط البرية التي كانت تتجمع في بابل وتنطلق نحو الغرب ،

وثالثها : تزايد الثروة في العاصمة روما وتزايد استهلاك الطيوب ذات المصادر الشرقيــة .

ويصنف الرحالة (استرابون) في أول قائمة كتاب هذه المرحلة الذي خالف من سبقه في طريقة عرضه كتابه الشهير (جغرافية) والذي جاء في سبعة عشر جزءا تحدث فيها عن اقاليم الامبراطورية الرومانية وما جاورها من بلاد ، وخص احـد فصول الجزء السادس عشر بالحديث عن العرب ، وكانت كتاباته اشبه ما تكون بدليل جغرافي سياسي يهم بالدرجة الاولى أهل السياسة والمثقفين اكثر مما يهـم البحارة والتجار . ويصرح استرابون في مستهل كتابه عن هدفه هذا . وتأكيدا لما صرح به لا يذكر من المواقع والمدن على السواحل الشرقية لبلاد العرب الا المـدن والجزر ذات الاهمية الاستراتيجية التجارية في نظـره ، كما يشير بيـن الفترة والاخرى الى اي تهديل او تغيير في طرق التجارة في المنطقة وانظمة الحكم السائدة فيها . وترجع أهمية كتابات استرابون هذه الى استعانته بمعلومات أفاده بها(٢٧) صديقه ايليوس جالوس (Aelius Gallus) الذي قاد مرة حملة ضد الجزيرة العربية(٢٨) .

ويختلف جايوس بلينيوس سكوندوس (G.P. Secundus) المعروف ب (بلينيوس الاكبر او بليني) (٢٣ ــ ٢٩ م) عن استرابون بدوره في انه يقدم معلوماته لكل الراغبين في المعرفة بشكل اقرب ما يكون الى دقة وموضوعيـــة وموسوعيـــة عصرنا . وقــد خصص بلينيوس في قسمين من كتابه الاشهر (التاريخ الطبيعي) فقرات مطولة نسبيا للحديث عن تاريخ بلاد العرب وجغرافيتها واقتصادياتها واحوالها الاجتماعية ونظـم حكمها . وتميز فعلا في القسم الثاني حيث قدم وصفا علميا دقيقا للطيوب والتوابل والاخشاب العطرية التي كان ينتجها العرب والاماكن التي اشتهرت بانتاجها واشهر تجارها واسعارها واستعمالاتها والضرائب التي كانت تفرض عليها في المناطق المستوردة لهــا(٢٩) .

وفي الفترة نفسها (القرن الاول الميلادي) ظهرت مجموعة من كتب الرحالة التي تطلبتها تعاظم حركة التجارة . وبيــن ايادي مؤرخينا المعاصرين مؤلف كتب باليونانية بعنوان « رحلة حول البحر الارتيري » لمؤلف مجهول ــ ربما كان تاجرا ــ تضمن معلومات ملاحية عن شواطىء شبه الجزيرة وبعض أسلم مسالكها وخطورة البعض الآخر ، ومعلومات أخرى عن بعض المراكز التجارية في عصر المؤلف واهمهـا موزا (مخا الحالية) وبعض شذرات من المعلومات عن الانباط كقـوة تجاريــة لها فاعليتها في المنطقة(٣٠) .

وعلى مستوى التخصص ظهر نوع جديد من الكتابات العلمية بدأها الرياضي والفلكي والجغرافي كلوديوس بطلميوس (C. Ptolemy) المعروف عند العرب باسم **بطلميوس القلوذي** (١٢١ ــ ١٥١ م) وقد خلف لنا بحثا بعنوان (**الدليل الجغرافي**) ارفقه بخارطة . وتعتبر محاولة بطلميوس لضبط الحدود والتقسيمات والاماكن في بلاد العرب عن طريق اعتماد خطوط طول وعرض وهمية اهم ما يسترعي الانتباه في الدراسة والخارطة . ومع ان خطوط عرض وطول خارطته لا تشابه الخطوط المعتمدة في الخرائط المعاصرة بسبب تحريف وقع فيه النساخ المتعاقبون كما يعتقد بعض المؤرخين المعاصرين ، ومع ان خارطة بطلميوس اغفلت المنطقة الشمالية الشرقية من بلاد العرب بين خطي عرض (٣٣ ــ ٥ر٣٥) شمالا ولم تسجل فيها اية احداثيات في حين كدست في القسم الجنوبي من الخارطة عددا من المواقع بعضها لا يمت الى المنطقة بصلة ، ومع ان بطليموس يضع الطرف الشمالي للخليج العربي في مكان قريب جدا من منطقة النجف الحالية ، وهذا خطأ وقع فيه كل الكتاب الكلاسيكيين قبله وبعده حينما كانوا يعتبرون مستنقعات الاهواز جنوبي الرافدين امتدادا للخليج، فانها ــ اي الخارطة والدراسة ــ مع كل هذا تبقى ادق خرائط العالم القديم عن المنطقة العربية اطلاقا(٣١) .

وينفرد كاتب يهودي هو فلافيوس يوسف (F. Josephus) (القرن الاول الميلادي) في تضمينه كتبه عن تاريخ اليهود في فلسطين بعض المعلومات عن العرب . وقد قسم حديثه عنهم الى قسمين : الاول منذ بدء الخليقة حتى عام (١٧٠ ق.م) (تاريخ استيلاء الملك السلوقي انطيوخس الرابع على بيت المقدس) واعتمد فيها على التوراة او على كتاب سابقين له ، والثاني حتى عام (٧٠ م) وهي فترة عاصر يوسف نهايتها وتسنم خلالها مهمة حكومية في فلسطين . وهذا ما يجعل كتابته عن هذه الفترة اكثر موضوعية وقربا من الواقع رغم ما يؤخذ عليه من جنوحه الى تمجيد اليهود ومآثرهم على الحضارة المعاصرة(٣٢) . وفي كتاباته معلومات قيمة عن العرب وبخاصة الانباط الذين يذكر ان نفوذهم امتد في تلك الفترة من الفرات حتى البحر الاحمر(٣٣) .

وفي اواخر الفترة الامبراطورية ظهر نوع رابع من الكتابات عن العرب ، فبعد محاولات التعرف العلمي عند الكتاب الكلاسيكيين في القرن الخامس ق.م ، والدوافع الاقتصادية التي اوحت بكتابات العصر الهلنستي ، والاهتمامات الموسوعية العلمية والسياسية التي سادت اهتمامات كتاب العصر الامبراطوري الباكر ، برزت اهتمامات جديدة للسياسة الامبراطورية اولها : الصراع مع الفرس ، وثانيها : دفع اذى

البرابرة ، وثالثها : نشر الديانة المسيحية . واصبح الكلام عن العرب ينحصر في نطاق التعرف على العرب القربين من الامبراطورية الرومانية الشرقية وهم (الغساسنة) ومن يلوذ بهم وعلى العرب المناوئين لهم في حماية الفرس وهم (المناذرة) ومن يؤيدهم . وضمن هذه الرؤية الجديدة ظهر عدد من الكتاب منهم يوسبيوس **(Eusebios)** من قيسارية في فلسطين (بداية القرن الرابع الميلادي) . الذي تحدث عن بلاد العرب وكان يعني بها المنطقة المجاورة لسورية القديمة ، وان كان قد صب جل اهتماماته حول امور انتشار المسيحية بين الاعراب ومدى تأثرهم بها أو معاداتهم لها(٣٤) .

على ان افضل كتاب هذه الفترة اميانوس ماركلينوس **(A. Marcellinus)** الانطاكي السوري (القرن الرابع) الذي كتب كتابا من واحد وثلاثين فصلا بعنوان (التواريخ) غطى فيها الفترة من (٩٦ ــ ٣٨٧ م) ولكن لم يصلنا من هذه الفصول الا ثمانية عشر فصلا تغطي الفترة من (٣٥٣ ــ ٣٧٨ م) وهي فترة قصيرة نسبيا ولكنها تعتبر في نظر المؤرخين قيمة جدا لسببين اولهما : ان كاتب احداثها عاصرها وشارك في صنع بعض احداثها نظرا لكونه واحدا من قادة الحملات العسكرية التي وجهت ضد الفرس ، وثانيهما : طريقة ماركلينوس الموضوعية في كتابة الاحداث المعاصرة . وان كانت موضوعيته هذه لم تحل دون وقوعه في بعض الاخطاء او التعميمات أو المبالغات التي منها ان العرب كانوا يشربون من دماء اعدائهم ، او ان العرب يعطون نساءهم حرية المفارقة بعد فترة زمنية محددة من الزواج ،او انه كان يوجد في الجزيرة العربية عدد كبير من الانهار والجداول ، وربما التبس على مؤرخنا أمر الوديان التي كانت تمتلىء بالمياه في مواسم الامطار(٣٥) .

ويعتبر بروكوبيوس **(Prokopius)** آخر اشهر المؤرخين الكلاسيكيين ، وهو من مواليد فلسطين ، واحد المقربين من الامبراطور يوستنيانوس الاول ، وكان قد عين في عام (٥٢٧ م) مساعدا لاحد القادة ، وتدرج بعدها في مناصب الدولة العسكرية والمدنية حتى اصبح امينا (محافظا) لمدينة القسطنطينية عام (٥٦٢ م) . وقد افاد من خبراته في كتابة مؤلفه الاشهر (بشأن الحروب) الذي خصص الجزء الاول والثاني منه للحديث عن الحروب بين بيزنطة وفارس ، وفيهما يمدنا بمعلومات ممتازة عن العرب في مجال حديثه عن امارتي الغساسنة والمناذرة . وفي هذا المجال يورد بروكوبيوس حديثين عن العرب اولهما : يتناول الاوضاع السياسية بين امارتي الغساسنة والمناذرة وفيها ذكر لاقامة الامبراطور يوستنيانوس الحارث **(Arethas)** الثاني بن جبلة ملكا على بني غسان وتشجيعه على مناهضة المنذر **(Alemoundaras)**

ملك الحيرة ، واشتراك الحارث في بعض معارك البيزنطيين . كما يذكر بروكوبيوس بعض المعلومات عن (المنذر بن ماء السماء) وصراعه مع الحارث بن جبلة(٣٦) . وترم الاحداث العربية هذه عند بروكوبيوس في اطارها التاريخي ، أي في اطار الصراع الفارسي البيزنطي ، ويبدو سرده لها سرد عارف خبير ببواطن الامور ، فلا يقصر سرده للحدث على ذكر ما له من صبغة عسكرية بل يتحدث عن القرار السياسي الذي ادى اليه الحدث بحكم صفة المؤرخ العسكرية وقربه من الامبراطور .

وفي حديثه الثاني عن العرب يذكر بروكوبيوس بعض احوالهم وبخاصة اماكن استقرارهم الرئيسة واشهر اعيادهم وقدراتهم العسكرية ، وفي هذا المجال يتحامل بروكوبيوس ، ويعكس وجهة النظر البيزنطية عامة اليهم حين يذكر مثلا بأنهم (اي العرب) يجيدون السلب والنهب ولا يجيدون حصار المدن ، ولا يكفون عن التنازع فيما بينهم وانهم برابرة ومن اكلة لحوم البشر(٣٧) . وفات بروكوبيوس ان سلب ونهب معسكرات الخصوم كانت احدى قواعد وضرورات الحروب في التاريخ القديم ، وان الفرس والبيزنطيين مثلهم مثل العرب كانوا يمارسون هذه العادة رغبة في اضعاف الخصم اقتصاديا وعسكريا بعد خسارته الجولة الاولى من الحرب ، وان كثيرا من خطط المعارك القديمة بنيت على اساس استدراج الخصم الى المعسكر الغني ثم الحاق الضربة القاصمة به وهو يحاول سلب المعسكر . كما اخطأ في حكمه بأن العرب لا يجيدون اقتحام المدن ، ففي خلال أقل من قرن من الزمن قامت الجيوش العربية الاسلامية بافتتاح أعتى مدن المنطقة واشهرها دمشق والاسكندرية . في حين يبدو بروكوبيوس محقا في ذكره نزاعات العرب المتكررة ، ويبدو في هذا انه تأثر في حكمه بالنزاع بين امارتي الغساسنة والمناذرة .

ومن الجدير بالذكر ان كل هذه المصادر الكلاسيكية كتبت باحدى اللغتين اليونانية القديمة او اللاتينية . ونظرا لندرة عدد الفاقهين لهاتين اللغتين فقد قامت مع نهايات القرن الماضي مجموعات من العلماء بترجمة عدد من هذه المصنفات الى اللغات الاوروبية الحديثة ، فساعدوا بعملهم هذا على ظهور مجموعة لا بأس بها من الدراسات حول تواريخ متعددة تعرضت لها هذه المصادر .

ب ـ الكتابات العربية الاسلامية : وتعتبر المصادر العربية الاسلامية آخر المصادر الكتابية التي يمكن الاعتماد عليها في الكتابة عن تاريخ العرب القديم ولكن مع بعض الحذر ، وذلك لاسباب اهمها : عدم معاصرة كتابها للاحداث التي كتبوا عنها ، ومن الطبيعي ان الحديث عن العرب القدامى الذي يمتد منذ القرن العاشر قبل الميلاد حتى بداية انتشار الاسلام في القرن السابع الميلادي ، وتغطية هذه الفترة الكبيرة في

كتابات المؤرخين المسلمين أمر يضعف بالضرورة من قيمة هذه الكتابات كمصادر ، وبخاصة بعض الكتابات التي توغل في التاريخ وتمد حديثها الى بدء الخليقة وآدم عليه السلام(٣٨) . وكلما أوغلت هذه الكتابات قدما في التاريخ كلما ازداد اعتمادها على الطريقة الاسطورية في رواية التواريخ لدرجة دفعت اصحاب هذه الكتابات الى الاعتراف بأسطورية كتاباتهم ، وهذا ما ذكره عبيد بن شريه — وهو أول الاخباريين العرب — بأنه كان يختار من احاديثه التي كان يرويها لمعاوية بن ابي سفيان عن أخبار العرب وايامها واخبار العجم وملوكها وسياستها لرعيتها اعجبها ، ورغم ذلك كان معاوية يطلب اليه تدعيم تواريخه الاسطورية بأشعار .. وقد لوحظت هذه الطريقة في رواية التواريخ عند بعض المتاخرين من الكتاب المسلمين دون ان يتمكنوا من تجنبها ، وهذا ما عبر عنه الطبري(٣٩) وابن خلدون(٤٠) صراحة في كتاباتهما .

ويؤخذ على المصادر الاسلامية فيما يتعلق باسناد رواياتها عن تاريخ العرب القديم انها اما لا تذكر مصادرها اطلاقا أو انها تذكر بعض المصادر الفارسية أو البيزنطية ولكن فقط في مجال الحديث عن ملوك فارس وبيزنطة مثلما فعل حمزة الاصفهاني(٤١) . او انها تعود بمصادرها الى اوائل الاخباريين المسلمين كعبيد بن شريه وابن الكلبي من الذين لم يعاصروا الاحداث التي كتبوا عنها ، وهذا ما فعله كل من الطبري(٤٢) والمسعودي(٤٣) .

ورغم المأخذ السابق يمكن لبعض المصادر الاسلامية عن تاريخ العرب القديم أن ترقى الى مستوى المصادر الموثوقة وبخاصة فيما يتعلق بفترات قريبة من ظهور الاسلام ، وهذا ما يلاحظ في تأريخ عبيد بن شريه لبعض ملوك المناذرة والغساسنة ، والحملة الحبشية على مكة المكرمة ، وكذلك كتابات ابن الكلبي (نهاية القرن الثاني الهجري) عن عبادات الجاهلية وأماكنها المقدسة(٤٤) ، واخيرا كتابات الهمذاني عن آثار اليمن ومدنها وقصورها(٤٥) .

ثانيا : الاثار والنقوش :

وتعتبر الاثار بقسميها الظاهرعلى سطح الارض او المدفون في باطنها ، ومن ضمنها النقوش طبعا رغم صفة بعضها الرسمية اصدق مصادرنا عن تاريخ العرب القديم واكثرها مدعاة لثقة المؤرخ وهي بالتأكيد طليعة مصادر التاريخ الجاهلي وذلك لانها تعكس صورة معاصرة فعلا من ناحيةالشكل والمضمون للاحداث المنوي تأريخها، وتترك المجال مفتوحا امام الاثاري والمؤرخ لتخيل او توقع شكل ونوعية المجتمعالعربي

القديم عن طريق دراسة ماصنع هذا المجتمع بأيدي ابنائه لاعن طريق ماقاله ابناء هذا المجتمع عن انفسهم او ما قاله غيرهم عنهم .

وتقسم الاثار التي خلفها العرب القدامى الى اقسام ، منها المخلفات الشخصية ومنها بقايا المنازل والمعابد والاضرحة والحصون والسدود ، ومنها تماثيل الالهة او رموزها او تماثيل الاشخاص ، ومنها الرسوم والفخاريات والمسكوكات . والنقوش العربية القديمة كثيرة ايضا كتبت بلهجات متعددة ، وهي عبارة عن كتابات تذكارية نقشها او امر بنقشها افراد أو حكام تخليدا لحادث معين .

ومن واقع الاثار العربية القديمة يتمكن الاثاريون والمؤرخون من استنتاج عدد كبير من الشواهد التاريخية السياسية والحضارية التي لاترد عادة في المصادر الكتابية . فمن بقايا الاسوار مثلا يستطيع المؤرخ ان يحدد اهمية المنطقة التي وجد فيها السور وحاجتها الى اداة دفاعية ويمكنه تكهن تعرضها لاخطار مجتمعات مجاورة. وقد تدلل نوعية وكمية وأحجام الاحجار المستخدمة في بناء السور على طراز البناء المستخدم ومدى اهمية الموقع وقدرة العناصر البشرية على تذليل الصعوبات الهندسية او الفنية ومستوياتهم الاقتصادية وغير ذلك من الامور . ومن المنحوتات الجدارية او الكاملة او النصفية يقدر الاثاري او المؤرخ ان يحدد معالم بعض العادات والتقاليد الاجتماعية والمعتقدات الدينية . وعن طريق المسكوكات يمكن تبين أو التأكد من بعض المعلومات السياسية وسني حكم الملوك او الامراء ونوعية المعاملات التجارية وكميتها وامتدادها والوضع الاقتصادي عامة وبعض مظاهر الحياة الدينية ، وغير ذلك من الامور التي يمكن استخدامها من هذه الاثار .

والنقوش التي تمدنا بمعلومات عن تاريخ العرب كثيرة ، منها ماكتب بلغة عربية وبلهجاتها المختلفة ومنها بغير ذلك ، ومنها ماعثر عليه في بلاد العرب من اليمن الى الشام ومن الرافدين الى مصر ، ومنها ماعثر عليه في بعض مناطق بلاد الاغريق او الحبشة . ومع انه يغلب على معظم هذه النقوش الصفة الشخصية فلا تمدنا الا بمعلومات عن اشادة منزل او معبد أو اقامة سور او شفاء مريض ، فان بعضها القى اضواء مناسبة وقدم معلومات سياسية واجتماعية واقتصادية واضحة لم تكن نعلم عنها شيئا من المصادر الاخرى .

ويبدو أن آثار العرب القدامى ونقوشهم لم تكن تغري كثيرا من الباحثين ، ومع ذلك فقد أرسل ملك الدانمرك عام (١٧٦١م) اول بعثة اثرية عملت حتى عام (١٧٧٢) للكشف عن اثار اليمن وعدن التي ورد ذكرها في المصنفات المقدسة . وقدتتالت

اهتمامات الاثاريين بمنطقة اليمن على حساب المناطق الاخرى في شبه الجزيرة العربية لاسباب اولها : قسوة مناخ المنطقة قياسا على مناخ اليمن ، وثانيها : قدسية الحجاز وتحريمه على الاجانب ،وثالثها : اهمية اليمن الاستراتيجية وقربها من عدن التي ورد ذكرها في المرويات المقدسة .

ومنذ ذلك التاريخ تتابعت البعثات الاثرية التي نفذتها معاهد وجامعات ومتاحف متعددة من العالم العربي ومن انحاء العالم ، أسفرت عن اكتشاف عدد غير قليل من الآثار والنقوش المختلفة التي نشر بعضها في موسوعة النقوش السامية **Corpus Inscriptionum Semiticarum)** وبعضها الاخر في تقارير حفريات جامعات القاهرة والرياض وتورنتو الكندية وكنتكي الامريكية ولندن ومعاهد اخرى ، وبعضها الثالث في مجموعات عرفت باسماء مكتشفيها مثل دوسو **(Dussaud)** وجلازر **(Glazer)** وهاليفي **(Halévy)** وجام **(Jamme)** وفيلبي **(Philby)** وغيرهم ، وبعضها الرابع في المجلات الاثرية التي تصدرها ادارات الاثار في المملكة العربيةالسعودية والمملكة الاردنية الهاشمية والجمهورية العراقية والجمهورية العربية السورية ،ونقوش اخرى أقل اهمية اكتشفت ولم تنشر بعد(٤٦).

* * *

١ـ لمزيد من التفاصيل انظر : جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (بيروت ١٩٦٨) ج١ ص ٣٧ ومابعدها .

٢ـ لطفي عبد الوهاب يحيى ، العرب في العصور القديمة (بيروت١٩٧٩)ص١٦٠ـ ١٦١

٣ـ انظر : سورة النجم، الاية (٥٠) وارتباط اسم عاد على وجه الخصوص بالاحقاف ، وقارن مع حاشية رقم (١) (٢) في لطفي عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٦٢

4) Pliny.,Natural History, VI. 2, 16; cf. Strabo., XVI, 4,21;4,5. 18-19.

٥: انظر سورة الشعراء ، الايات (١٤٧ــ١٤٨)، سورة الحجر ، الايات(٨٠ــ٨٢) ، سورة التوبة ، الاية (٧٠) ، الفرقان الاية (٣) ، النجم الاية (٥١) وقارن مع مايذكره استرابون XVI, 4, 2 ، وبلينيوس N. H, VI, 32, 157

٦ ــ يرجح المؤرخون المعاصرون وجود مملكتين باسم سبأ احداهما في اليمن وهي الاقدم والثانية شمال غرب الجزيرة العربية . انظر : لطفي عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ص ١٧٠

٧ـ سورة سبأ ، الايات (١٥ــ١٦) .

٨ـ نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الادنى القديم ، سورية (القاهرة ـ١٩٥٩) ج٣ ص ٢٣٤

٩ـ سورة ال عمران ، الاية (٩٦) ، سورة التين الاية (٣)

١٠ـ سورة قريش ، الايات (١ــ٤)

١١ـ سورة الاحزاب ، الاية (٢٠)

١٢ـ سورة التوبة ،الايات (١٠١ــ ١٢٠)

١٣ـ سورة التوبة ، الاية (٩٧) ، سورة الفتح ،الاية (١١) ، سورة الحجرات، الاية (١٤)

١٤ـ سورة الفتح ، الاية (١٦)

١٥ـ عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية (بيروت ١٩٦٤) ص ١٦

١٦ ــ ينفي بعض المستشرقين واخصهم(مارجوليوت) وبعض الادباء العرب

المعاصرين وعلى رأسهم (طه حسين) وجود شعر جاهلي ، ويدللون على نفيهم بدعاوى بعضها منطقي والاخر غير ذلك ، ، ولكن رغم ذلك فان ادلة معظم المستشرقين والادباء العرب المعاصرين تؤكد وجود هذا الشعر وعكسه لاساليب الحياة في العصر الجاهلي، انظر :

Margoliouth, D.S. «The Origins of Arabic Poetry» J. R. A. S July 1925.

وكذلك طه حسين . في الادب الجاهلي (القاهرة — بدون تاريخ) الطبعة الرابعة ص ٨٠ .

١٧ — لطفي عبد الوهاب يحيى . المرجع السابق . ص ٢٤٠ — ٢٤١

18) Herodotos., III, 107-113

19) Herodotos., 1, 131; 199, II, 12, 141; III, 8; 13; 97; 107-113;VII,69,86

20) Strabon., XVI

21) Arrianos., Anabasis of Alexander, VII

22) Theophrastos., Peri Phyton Historias, IX

23) Strabon., XVI, 4

24) Oxford Classical Dictionary. S.V, Agatharchides, P. 20

25) Strabo., XVI, 4, 18-19; Oxford Classical Dictionary. S.V, Artemidoros P. 104

٢٦ — لطفي عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٦

٢٧ — يشكك كثير من المؤرخين المعاصرين في صحة مرافقة استرابون للحملة انظر : المرجع السابق ص ٢٠٨ حاشية (٢٤)

28) Strabon., XVI, 4, 21-24.

29) Pliny., Natural History, VI, 147-162; XII, 51-99; Oxford Classical Dictionary, S.V, Pliny, pp. 703-4. Oxford Classi-

30) Cambridge Ancient History, vol. 10, pp. 80-3

31) Ptolemaeos. Mathematicos., Geographia. V. 14, 5; 18-19; Oxbord Classical Dictionary, S. V Ptolemy, pp. 746.

32) Josephus., Against Apion, I, 50; Antiquities, pp. XIV-XV

33) ., Antiquities XIV, 14, 2, Jewish Wars, 1, 1-3

34) Eusebios., Ekklesiastikes Historias, VI, 19-41

35) Ammianus Marcellinus. Historiae, XIII; XIV; XXXI.

36) Procopius., I, 17-18; II, 1; 13; 16; 19; 28.

37) ., I, 18; 19; II, 16-19; 27-28.

٣٨ ـ انظر : ابن خلدون . العبر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة ـ ١٩٦٥) ج ٢ ص ٣ ـ ٤٠٣ ، ٨٠ ، ٤٩ ، ٣٠٤٠٠ وقارن مع لطفي عبد الوهاب . المرجع نفسه ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

٣٩ـ الطبري . الرسل والملوك ، (القاهرة ـ ١٩٦٠) ج١ ص ٨ .

٤٠ـ ابن خلدون ، المصدر نفسه . ج٢ ص ٨

٤١ـ سعد زغلول عبد الحميد ، في تاريخ العرب قبل الاسلام (بيروت ١٩٧٥)ص ٤٧ـ٤٨

٤٢ـ الطبري ، المصـــدر نفســـه

٤٣ـ المسعودي . مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة ـ ١٩٥٨)

٤٤ـ طبقة بولاق . (١٣٣٢ هـ) تصوير الدار القومية بالقاهرة (١٩٦٥)

٤٥ ـ الهمذاني ، الاكليل ، تحقيق نبيه امين فارس (برينستون ١٩٤٠) .

٤٦ـ عن تفصيلات الرحلات الاثرية في المنطقة العربية راجع :

R. Dussaud, **La Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam** (Paris 1945); A. Fakhry, **An Archactogical Journey to Yemen** (Cairo 1952) 3vols, Z. Freeth and v. Winstone, **Explorers of Arabia** (London 1978); A. Musil, **Northern Negd** (N. Y. 1928);M. Niebuhr, **Travels Through Arabia** (Edinburgh 1972); W. Phillips, **Qataban and Sheba** (London 1955).

مملكة بيت بحياني الآرامية

د. علي ابو عساف

المديرية العامة للآثار والمتاحف - دمشق

تعالج هذه الدراسة تاريخ الدولة الآرامية في جوزان على ضوء اكتشاف تمثال الملك هديسعي (هدْ - يَسعِي) في مدينة رأس العين (أي مدينة سيكاني القديمة) وتتيح لكل مختص ومعني بتاريخ هذا القطر الاطلاع على أحدث المعلومات والاستنتاجات المتعلقة بتاريخ تلك الدولة .

وادخال مثل هذه الدراسة في مجلة « دراسات تاريخية » يعني اننا لا نفصل بين تاريخ العرب ، بالمعنى الذي يعرفه بعض الناس حتى الآن ، عن تاريخ الشعوب التي سبقتهم وعمرت هذه المنطقة من العالم ، والتي خلفت لنا حضارة نتعز بها وتمتد حضارتنا اليها ، وهي استمرارية لها ، وبيننا وبينهم قرابة شبه اصيلة لا نبتدعها بل تؤيدها الحقائق .

* * *

منذ اكتشاف مدينة جوزان ، عاصمة مملكة بيت بحياني ونحن حيارى في تاريخ الدور الارامي فيها وربطه بتاريخ الامبراطورية الاشورية المهيمنة على المنطقة انذاك .

واتفقت الاراء على ان النهاية الفعلية لهذا الدور في جوزان كانت عام ٨٠٨ ق.م. عندما قامت فيها ثورة على الاشوريين لخمدها بضراوة الملك ادد نيراري الثالث (٨٠٩ -٧٨٢ ق.م) . ونصب مانيكو اشور واليا عليها . فتحولت الى ولاية اشورية منذ ذلك الحين . واكتشفت فيها دار المحفوظات الآشورية التي حوت وثائق كثيرة،ادارية ونجارية ، القت الضوء على تاريخ المدينة خلال القرون الثامن والسابع والسادس ق.م، أي ابان الحكم الاشوري لهـا .

ان الاراء التي اتفقت في تحديد نهاية الدور الآرامي ،بالاستناد الى الوثائق

الآشورية اياها،اختلفت في تحديد بدايته بسبب فقدان الوثائق التي تحددها،أو تعين على تحديدها، فمنهم من قال انها بدأت في القرن العاشر أو في النصف الثاني منه،ومنهم من قال بأنها بدأت مع مطلع القرن التاسع أو خلاله . هذا بالاضافة الى ان الاراء قد تباينت في أمر تحديد بداية النفوذ الاشوري الفعلي هناك . ففريق اعتقد بأن اخماد ثورتهاعام ٨٠٨ق.م وضع حدا لاستقلالها أو ادارتها الذاتية،أما نفوذ الآشوريين فيها وتبعية المدينة لهم . فكان قبل ذلك بكثير ، وفريق اخر عارض هذا الراي واعتقد أن ضم دولة جوزان للامبراطورية الاشورية قد بدأ مع اول غزو على تلك المدينة عام ٨٩٤ ق.م . والسبب في ذلك ان مافي الوثائق الاشورية والارامية من معلومات حول تاريخ بيت بحياني أوقع الباحثين في هذا الغموض الذي يبدده الآن اكتشاف تمثال الملك (هديسعي) الذي يقدم لنا نصا يساعد على الاجابة على العديد من التساؤلات حول تاريخ تلك الدولة .

تقع عاصمة مملكة بيت بحياني على بعد ثلاثة كيلومترات الى الغرب من بلدة راس العين على منابع الخابور. وتتمثل أطلالها الآن بتل حلف، وقد امتدت شمالا حتى جبال طور عابدين الى الجنوب من ديار بكر . وشرقا حتى حدود دولة نصيبين الارامية . اما المدى التي وصلت اليه حدودها الجنوبية والغربية فغير معلوم. والمعلومات المتوفرة لدينا حتى الان تشير الى عدم قيام أية دولة ارامية بين منابع الخابور في الشرق ونهر الفرات في الغرب . وبما أن نفوذ دولة بيت عديني الارامية قد امتد من الفرات الى البليخ أو الى الشرق منه . فاننا لا نستبعد ان تكون لدولة بيت بحياني وبيت عديني حدود مشتركة على حوض البليخ .

نقب البارون ماكس فون اوبنهايم وبعثته في موقع تل حلف خلال الاعوام ١٩١١ ١٩١٣ و ١٩٢٧ ـ ١٩٢٩ ، وكشف على أطلال المدينة الآرامية ودار الوثائق الآشورية التي ثبت منها ان تل حلف هو مدينة جوزان ، وتساءل العلماء انذاك فيما اذا كان جوزان هو الاسم الآشوري للمدينة،أم أنه اسمها الآرامي ؛ اذ من المعلوم أن النصوص الاراميةالتي وجدت بها لم تذكر اسم المدينة . ولاداعي لطرح هذا السؤال بعد الان فالنص الارامي المنقوش على تمثال الملك هدسعي يقول بأن هذا الملك هو ملك جوزان

نستقي اخبار هذه المملكة من بعض الفقرات القصيرة في حوليات الملوك الاشوريين خلال القرن التاسع ق.م ، ومن الوثائق المحلية القليلة التي حوت امورا شخصية فقط وعثر عليها بين أطلال المدينة .

وردت اول اشارة الى جوزان في حوليات الملك الاشوري اددنيراري الثاني

(٩١١ـ٨٩١ ق.م) الذي وصل منابع الخابور خلال حملته الخامسة ضد بلاد خاني جلبات عام ٨٩ وقال:« نهر خبور لعبر ان آل جوزان‌شا ابي سلامو مار بحياني‌او كلوني لالك = نهر الخابور لاعبر الى مدينة جوزان التي يكلؤها (اي يرعاها ، يحفظها) ابي سلامو لادخل » فقد دخلها واخذ الجزية من اميرها ابي سلامو .

ومنذ ذلك الحين ، وعلى مدى قرن من الزمن . ظل الملوك الاشوريون يشنون غاراتهم على الاراميين في الجزيرة ، حتى اخضعوهم وحولوا بلادهم وممالكهم الى‌ولايات اشورية ، يديرها ولاة اشوريون . واشتهر من بينهم اشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ـ٨٥٩ق.م) بالقسوة والوحشية . وخلال حملته الثانية على بلاد خاني جلبات ذكر انه تقبل الجزيةمن شيوخ تلك البلاد ومن بينهم كان شيخ بيت بحياني الذي فقد اسمه . وبعد ذلك بخمس سنوات ذكر نفس الملك ان شيخ بيت بحياني الذي لم يذكراسمهايضا قد دفع له الجزية . ونظن ان عدم ذكر اسم هذا الشيخ يعود الى قلةاهميته ، وخضوعه له .

وبعد ذلك بثمانين حولا تقريبا نشبت في تلك المدينة ثورة ضد الاشوريين‌وكانت خلال السنة الاولى لتولي الملك الاشوري ادنيراري الثالث (٨٠٩ـ٧٨٢ ق.م)السلطة اي في عام ٨٠٨ حيث قضى عليها ، واصبحت ولاية اشورية يديرها وال اشوري‌يعينه الملك .ومنذ ذلك الحين انتهى والى‌الابدحكم الشيوخ الاراميين على المدينة والمملكة وتعاقب عليها ولاة آشوريون ذكرت الوثائق اسماءهم ولا حاجة لذكرهم لان بحثي هذا مقتصر على المملكة الارامية .

وهكذا لانجد في الوثائق الاشورية سوى اسم ابي سلامو بن بحياني الذي كان في‌الحكم عام ٨٩٤ ق.م . ولايجب ان نعتقد بأن ابي سلامو هو ابن بحياني ،بل‌هومن نسله. ولاننسى ان اشور ناصر بال الثاني قد قال بانه استلم الجزية من شيخ بيت بحياني وان كتابة آرامية عثر عليها في جوزان ورد فيها اسم زدنت ذوبحياني (اي‌زدنت ال بحياني) وهذا يكفي للتدليل على أن بحيان هو شيخ القبيلة الارامية التي انتشرت حول‌منابع الخابور واليه نسبت ، واليه انتسب شيوخها . هذا بالاضافة الى‌ان ملوك اشور قد اعتادوا ذكر اسم اي شيخ ارامي مقرونا باسم القبيلة في كثيرمن الاحيان‌دون‌ان‌يكون ابنه .

بعد هذا العرض للمعلومات التي وجدناها في النصوص الاشورية حول مملكة بيت‌بحياني ، ومعرفة اسم حاكمها عند مطلع القرن التاسع ق.م واستخلاص بعض المؤشرات التي توضح بأن حكم السلالة الارامية فيها قد انتهى قبيل نهاية القرن

التاسع ، وان حكامها قد دفعوا الجزية للملوك الاشوريين خلال تلك الفترة ،وانهم كانوا تابعين لهم يحكمون باسمهم ، لابد لنا ان ننتقل لنناقش نتائج التنقيبات الاثرية وماكشفت عليه واستعراض النصوص المحلية .

* * *

كشفت التنقيبات الاثرية على الحي الملكي الارامي في المدينة الذي يقع في الجزء الشمالي منها ، ويحيط به سور فيه بوابة جنوبية تؤدي الى احياء المدينة الاخرى، وبوابة شمالية تؤدى الى النهر ونبع المـاء .

يضم الحي قصر السكن في الزاوية الشمالية الشرقية ، ويقابله في الزاوية الشمالية الغربية المعبد ـ القصر . وتنتشر الى الجنوب منهما مدافن ارضية ومصاطب .

ودلت الدراسات على ان المباني قد شيدت خلال دورين متعاقبين ، الدور القديم ودور كباره الذي وسع الحي الملكي ومبانيه بما يزيد على الضعف . ويـرجع السبب في هذا الحركة العمرانية الواسعة التي شهدتها مدينة جوزان ، ليس فقط الى ولع كباره بالعمران ، بل الى المباني التي شيدها اسلافه اوسلفه وكانت من اللبن الذي يحتاج الى الترميم والتجديد باستمرار ؛ لذا عمد الى هدمها وترحيل انقاضها وتشييد ابنية حديثة فوقها . توسعت وتجددت هي الاخرى حتى دمرت عام ٨٠٨ ق.م

ويظهر أن المعبد ـ القصر هو درة مباني جوزان . وقد اعتنى به كباره، فكسيت قواعد جدرانه من الخارج بلوحات حجرية سوداء بازلتية ، وبيضاء كلسية ، رسمـت عليها اشكال بشرية وحيوانية ، وروعي عند سفها تناوب اللونين الابيض والاسود ، وتخللها في بعض الاحيان لوحات من الحجر الرملي الاحمر وبينت الدراسات ان اللوحات من عصرين مختلفين ، مجموعة منها قديمة واخرى حديثة متقنة . وقد استخدمت المجموعة القديمة في كسوة قواعد الجدران الجانبية والخلفية ، اما الحديثة فزينت الواجهة الامامية وجانبي المدخل . ويحمل ساكف باب القصر ثلاثة أعمدة ، اثنـان منها على شكل رجل والثالث على شكل امرأة. أما قواعدها فالوسطى على شكل ثور والجانبيتان على شكل اسد ، وكان سقف القصر من الخشب والطين وجدرانه من اللبن .

ويفتخر كباره بانجازه بناء القصر في مجموعة من النصوص القصيرة التـي نقشت على المنحوتات وهي متشابهة ونورد فيما يلي نصين اثنين منها :

أ ـ النص رقم (١)

النص بالاشورية	الترجمة
١ ـ ايكالي كباره آبل خدياني	هيكل كباره بن خديان
٢ ـ شاابي اب ابي بلطوني	الذي ابي وابو ابي (جدي) بحياتهم
٣ ـ لاعفشوني اناكو عتفش	لم يعملوا انا عملت
٤ ـ من شاشمي افشطوني شمه	من الذي اسمي يمحي ، اسمه
٥ ـ اشكنوني ٧ ماريشو فان ادد	ينزلن سبعة من ابنائه امام هدد
٦ ـ لتشرفوا ٧ ماراتيشو	ليحترقن . سبع من بناته
٧ ـ ان اشتار خاريما تولرام	الى عشتار خادمات ليرومن
٨ ـ ابدى ايليمو امان اشطر	عبدي ايليموا المعلم سطر (كتب)

النص رقم (٢)

النص بالاشورية	الترجمة
١ ـ ايكالي كباره آبل خديان	هيكل كباره بن خديان
٢ ـ شارمات ختي (اوبالي) شا ابي اب ابـي	ملك بلاد ختي (بالي) الذي ابي وابو ابي (جدي)
٣ ـ لاعفشوني انا كو عتفش من شاشمي افشطوني	لم يعملوا انا عملت ، من الذي اسمي يمحين
٤ ـ شمشو اشكنوني٧ ماريشو فان ادد	اسمه ينزلن . سبعة من أولاده امام هدد
٥ ـ لشربوا .ابدى ايليموا امان اشطر	ليحرقن . عبدي ايليمو المعلم سطر (كتب)

ليس في هذين النصين دليل على تأريخهم وبالتالي تأريخ القصر ، ولا يشيران الى

علاقة كباره ووالده خديانو ببحياني او بيت بحياني ، ويخاوان كذلك من ذكر اسم جوزان . لقد عودنا الملوك الاراميون على الاكتفاء بذكر اسم ابيهم دونما حاجة الى ذكر اسم الجد ، الا في قليل من المواضع . ويريد كباره التأكيد على ان الهيكل هو قصره لذا لم تكن به حاجة للذكر انه هو ملك جوزان او بيت بحياني .

يدعي كباره ان ما فعله هو ، لم يفعله ابوه ولا جده . وحتى لو كانت هذه العبارة من قبيل التفاخر والاعتزاز فان بها جزءا من الحقيقة . فكما اشرت اعلاه ، عمد كباره الى توسيع الحي الملكي ، وتجديد ابنيته ، ليكون اشد ضخامة وجمالا ووقعا في النفس من حاله السابقة .

لم يكن في مقدور البعثة الكشف على الطبقة التي تقع مباشرة تحت الطبقة الارامية ولكنها اثبتت ان المباني الارامية (اي الحي الملكي) قد شيدت فوق مصاطب ولم تشيد فوق ابنية اقدم . لذلك فقدنا الدليل الاثري الذي كان من الممكن ان يساعدنا على تحديد بداية حكم الاراميين .

ويدلل كل ذلك على ان كباره ووالده وجده وسلفهم ، قد وصلوا جوزان ، واستقروا بها، وبنوا الحي الملكي بما فيه السور والقصور والمعابد والابواب فوق انقاض المدينة القديمة . ويبقى السؤال المطروح متى تم ذلك ؟ ومن هم الملوك الذين بنوا الحي الملكي في جوزان .

عرفنا حتى الان اسم الملك ابي سلامو من النصوص الاشورية ، واسم خديانو وولده كباره من وثائق كباره نفسه . ونضيف اليهم اسم زدنت او زدمة الذي ذكر اسمه في جملة نقشت على قاعدة مذبح حجري وهي زدنت ـ ب ع ل ـ زي ـ ب خ ي ن ـ وترجمتها زدنت بعل (سيد) بحيان . وبنتيجة دراسات عديدة لغوية ، معمارية ، وفنية، وسياسية ..الخ جعل بعض العلماء عصر كباره ووالده خديانو قبل ابي سلامو ، وجعله البعض الآخر بعده . وانفرد الاستاذ اولبرايت بايراد قائمة لملوك جوزان رتبها زمنيا وتتالف من :

١ ـ خديانو الذي حكم عند منتصف القرن العاشر قبل الميلاد .

٢ ـ كباره ابنه وحكم عند نهاية القرن العاشر .

٣ ـ ابي سلامو الذي خضع للاشوريين عام ٨٩٤.

٤ ـ امير غير معروف دفع الجزية عام ٨٨١ لآشور ناصر بال الثاني .

٥ ـ امير غير معروف دفع الجزية بعد عام ٨٧٦ ايضا لاشور ناصربال الثاني.

٦ ـ زدنت : ربما حكم عند منتصف القرن التاسع .

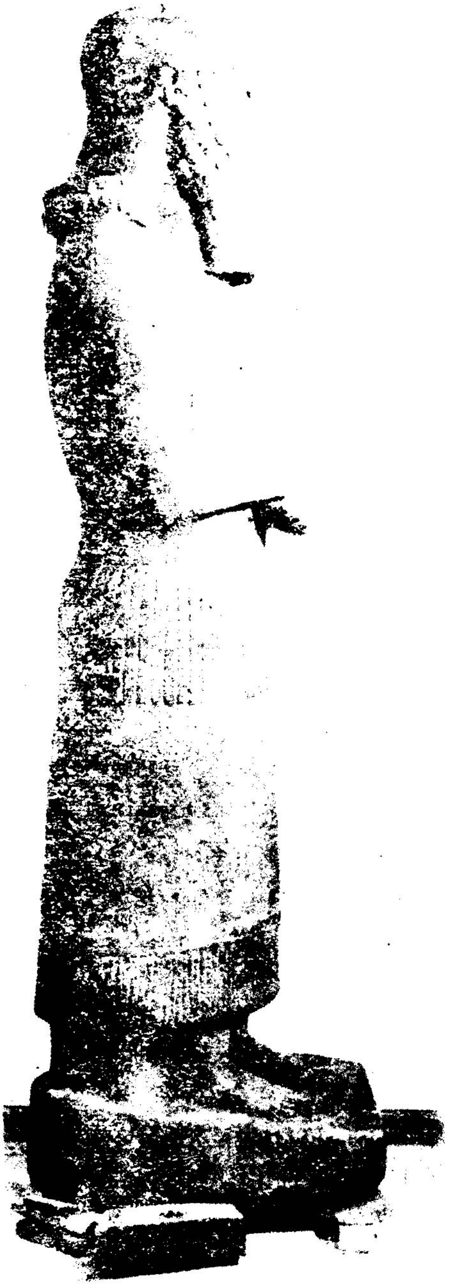
ليس من السهل تحديد زمن حكم هؤلاء الملوك او الامراء فلا نعرف عنهم سوى اسمائهم ، ولانعرف من عاصرهم من الملوك الاشوريين . وحتى ابي سلامو الذيعاصر حدد نيراري الثاني لانعرف متى اعتلى العرش ، ومتى انتهى حكمه .

★ ★ ★

وفي شهر شباط من عام ١٩٧٩ قامت احدى اليات بلدية رأس العين بتجريف الطرف الجنوبي الغربي لتل الفخيرية ، فعثرت بين الانقاض على تمثال من الحجر البازلتي بالحجم الطبيعي للانسان ، وهو تام ، غير أن الرأس كان مفصولا عنالجسم فاعيد تركيبه في المتحفالوطني بدمشق حيث يحفظ الان . وتعود اهمية هذا التمثال لكونه قدنقش عليه نصان اشوري وارامي ، وقد نقش النص الاشوري على سطح الساقين الامامي ويتالف من ٣٨ سطرا تاما ، في حين نقش النص الاراميعلى سطحهما الخلفي ،ويتالف من ٢٣ سطرا تاما . والنصان متطابقان ويختلفان فقط في لقب صاحب التمثال الذي يصفه النص الاشوري بانه ((شاكن ال جوزان)) اي حاكم جوزان والآرامي بانه ملك جوزان . وصاحب التمثال هو ((هد ـ يسعي بن شمش نورى)) .

يضيف هذا الاكتشاف اسمين جديدين لقائمة حكام جوزان التي اوردناها اعلاه ويتحتمعلينا الان اعادة النظر في التسلسل الزمني لهم وعلاقتهم بالامبراطورية الاشورية . وبما ان للنص دورا في ذلك نقدم فيما يلي ترجمة شبه حرفية لهمعمراعاة استخدامالكلمة الارامية نفسها فيما اذا كانت معروفة في اللغة العربية (مرتبة حسب السطور المنقوشة على التمثال):

١ ـ دمية هديسعي نصبت امام هدد سكن (أي هدد السيكاني) .
٢ ـ جوجل (سيد) السماءوالارض،منزل الخيرات ، ومعطي الرعي .



٣ ــ ومسقي الاقطار كلها، ومعطي السلوة، والشراب

٤ ــ الارباب كلها اخوته . جوجل (سيد الانهار جميعا ، منعم على

٥ ــ الاقطار كلها، اله رحمان الذي دعواته طيبة ، يسكن

٦ ــ سكن (اي سيكاني) السيد رب السيد هديسعي ملك جوزان بن

٧ ــ سسنوري (شمش نوري) ملك جوزان لتحيا نفسه ولتطول أيامه ،

٨ ــ ولتكثر سنوه، وليسلم بيته، وليسلم زرعه (ذريته) وليسلم

٩ ــ اناسه ، وليخرج المرض منه وليسمع ابتهالاته ، و لـ

١٠ــ يقبل دعاءه دائما ، فاعطاه . ومن بعد ذلك يكون (المقصود من يأتي بعده)

١١ــ ينقلها لمكان جديد ، واسماء ليضع بها (المقصود التمثال)، والذي يمحي اسمي منها ،

١٢ــ ويضع اسمه بها هدد الجبار ليكون قبيله (خصمه) صنم . هديسعي

١٣ــ ملك جوزان وسيكاني وازران لترتفع مودة عرشه

١٤ــ ولتطول حياته ، ولتستجاب دعواته يا الهة وياناس

تمثال الملك هديسعي
(المتحف الوطني بدمشق)

١٥ ـ كرموا الدمية هذه ،التي وضعها قدام الباقي ، قدام هدد .

١٦ـ ساكن مدينة سيكاني ، سيد الخابور وضعت صنمه هناك ، من يمحي اسمي من الاناء

١٧ـ الذي في بيت هدد ـ سيدي (هدد) لحمه (طعامه) وماءه لتأخذه من

١٨ـ يده .شول(شالة زوجة هدد) سيدتي لحمه وماءه لتأخذه من يده . ولو

١٩ ـ زرع لا يحصد ، والف (مكيال) شعير لو زرع حفنة يأخذمنه .

٢٠ـ ومئة ضأن ليرضعن فطيما ولا يرتوي ، ومئة بقرة ليرضعن

٢١ـ عجلا ولا يرتوي ، ومئةمن النساء ليرضعن غلاما ولا يرتوي

٢٢ـ ومئة من النسوة ليخبزن بالتنورخبزا ولا يملانه .ومن القلة ليلتقط شعبهشعيرا حتى ياكلوا

٢٣ـ ووباء شباط ، وباء نرجال لا يغادر بلاده .

ان هذا النص يضعنا امام لون من الدعاء والابتهال الى الرب هدد ، كما نجده عند بعض الملوك الآراميين الآخرين مثل برخيه ملك كتك ومتي ايل ملك ارفاد . وهو لايحوي سوى امور شخصية، وليس فيه فائدة لتاريخ مملكة بيت بحياني ، اذ اننا لا نجد فيه اي حديث عن أعماله العمرانية أو المعارك التي خاضها كالذي نجـده في حوليات ملوك آشور ، بل نجد تلميحات واشارات الى بعض الامور المتعلقة بتاريخ هذه المملكة وعلاقتها بالامبراطورية الآشورية .

الامر الاول الذي يسترعي الانتبـاه هو ان النص الآشوري قد نقش على سطح التمثال الامامي في حين نقش النص الآرامي على سطحه الخلفي ،' وبالاضافة الى هذه الحقيقة نرى ان هديسعي قد لقب والده ولقب نفسه ملك جوزان في النص الآرامي ، وشاكن جوزان ، اي والي جوزان ، في النص الآشوري . وواضح من ذلك ان هديسعي هو ملك بالنسبة الى مواطنيه الآراميين ، ووال بالنسبة الى الآشوريين الذين لقبوا ولاتهم على المقاطعات بكلمة (شاكن) . واذا ما علمنا ان كباره قد لقب نفسه في النص الآشوري اياه (ملك بلاد بحياني) ادركنا صحة استنتاجنا . وهذا يعني دونما شك ان هديسعي ووالده شمش نوري كانا ولاة للاشوريين . بينما كان كباره غير ذلك . ويتبين هذا الذي ذكرناه بشكل اكثر وضوحا اذا ما قارنا تمثال الملك هديسعي مـع تماثيل الملوك الآشوريين . ففي حين يرتدي الملوك الآشوريـون الملابس المزركشـة ويتزينون بالحلي ويمسكون بالصولجان في يدهم اليمنى ، يرتدي هديسعي أبسـط

الملابس ولا يحمل اية شارات او زينات ملكية ، تماما كتماثيل كبار رجال الدولة الآشوريين من ولاة وقادة عسكريين ، وعلى العكس من الملوك الآراميين الاخرين .

والامر الثاني الذي يرتبط بالامر الاول ويوضحه هو ان هديسعي قد لقب نفسه في السطر السادس من النص (ملك جوزان) وفي السطر الثالث عشر ملك جوزان وسيكاني وازران . فما هو الدافع يا ترى ؟.

تجاور مدينة سيكاني بلدة راس العين من الجنوب وتعرف اطلالها باسم تـل الفخيرية الذي يبعد حوالي (٣) كيلو مترات الى الشرق من تل حلف (اي‌مدينة‌جوزان). اما مدينة ازران (او زراني كما وردت في النص الآشوري) فلا نعرف اين تقع . ولابد انها تجاور كل من جوزان وازران . ووردت اول اشارة الى مدينة سيكاني في حوليات الملك الآشوري ادد نيراري الثاني خلال حملته على منطقة الخابور عام ٨٩٤ . اذ دخلها واخذ الجزية من اهلها . بعد ان كان قد حل في جوزان ، واخذ الجزية من شيخها ابي سلامو .وتشيرهذه الحادثة بوضوح الى ان سيكاني كانت آنذاك مستقلة ، ولم تكن تابعة لجوزان . وبعد هذا التاريخ لم يعد يرد ذكر لسيكاني في الحوليات الآشورية، الا وكأنها مدينة تابعة غير مستقلة . ونستنتج من هذا ان المديـنـة كانت قد فقدت استقلاليتها ، واتبعت لجوزان مقر الوالي الآشوري . وبما انه علينا ان نرى في النص المنقوش على التمثال مذكرات تروي قصة حياة هديسعي ، نفترض ان‌سيكاني قد الحقت بجوزان في عهد هذا الملك ، بعد ان كان كوالده ملكا على جوزان فقط ، ثم ضمت اليه سيكاني وازران . اذ كان من عادة الملوك الاراميين ان لا يلقبوا انفسهم ملوك اكثر من مدينة او مقاطعةالا اذا ضموها الى مملكتهم ؛ كما فعل ملك حماة (ذكير) الذي ضم اليه لعش،ولقب نفسه (ملك حماة ولعش) . ونظن ان هذا ينطبق على هديسعي. وقد حدث ذلك بعد عام ٨٩٤ ق‌م، حيث كانت سيكاني لاتزال مستقلة كما ذكرت اعلاه . ولا يمكن ان تكون‌قدضمت بعد هذا التاريخ مباشرة ، لان النص يفيد بأن ذلك قد حدث في زمن‌حكم هديسعي الذي حكم والده قبله .ولابد والحالة هذه من أن تكون قد مرت سنوات على تلك الترتيبات الجديدة فمتى تم ذلك ؟

اذا عدنا ثانية الى وثائق الملوك الاشوريين نرى أن جوزان قد تحولت الى مقاطعة آشورية عام ٨٠٨ ق.م.،وعين لادارتها وآل آشوري اسمه مانيكو آشور.ومنذ ذلك الحين والملوك الآشوريون يعينون ولاتهم على جوزان من رعاياهم وليس من بين الاراميين المحليين . وطبيعي والحالة هذه ان يكون كل من هديسعي ووالده شمش نوري قد حكما قبل ذلك التاريخ.وقد ذكرت اعلاه ان سيكاني كانت عام ٨٩٤ مستقلة،



رأس تمثال الملك هديسعي
المتحف الوطني بدمشق)

وانها ضمت الى جوزان في عهد هديسعي . فمن المؤكد اذن أن تبدأ فترة حكمهما بعد هذا التاريخ . واذا كان الامر كذلك فمن الجائز ان يكون شمش نوري هو خليفة ابي سلامو ، الذي كان يحكم جوزان عام ٨٩٤ ق.م

وبعد فان هذه الملاحظات والافتراضات التي اوردتها قد مكنتنا من تحديد فترة حكم هديسعي ووالده شمش نوري فيالقرن التاسع ق.م. ، ويبقى علينا الان تعيينها بشكل أدق .

في ٢٢ــ١١ــ١٩٧٩ بعث لي الزميل ميلارد من جامعة ليفربول بانكلترا برسالة يقول فيها ان احد معاصري آشور ناصربال كان اسمه شمش نوري وورد اسمه في قائمة الولاة والمعاصرين لعام ٨٦٦ ق.م. غير ان لقبه مع الاسف غير واضح . ومع ذلك فهو يستطيع الجزم بأن لقبه كان (حاكم جوزان) وبما أن السيد ميلارد يعد بحثا حول رجال الدولة الاشوريين ومن عاصرهم من الملوك الاجانب ، (لم ينشر بعد) ، اكتفي بهذه الاشارة الىما بعثه لي .

وتأسيسا على ذلك يجوز لنا أن نفترض بأن والد هديسعي (شمش نوري) كان ملكا عى جوزان في عام ٨٦٦ ق.م . ومن المحتمل أنه عين في هذا المنصب قبل هذا التاريخ ، واستمرفي الحكم لمدة لا نستطيع تحديدها .

والنص الذي بين أيدينا يثبت أن هديسعي قد خلف اباه ولا ندري عدد السنوات التي قضاها في الحكم ..

ولو استعرضنا مرة أخرى قائمة ملوك بيت بحياني التي وضعها اولبرايت ، وهي:

١ ــ خديانو الذي حكم عند منتصف القرن العاشر ق.م .

٢ ــ كبارة ابنه وحكم عند نهاية القرن العاشر ق.م .

٣ ــ ابي سلامو خضع للاشوريين ودفع الجزية لهم عام ٨٩٤ ق.م .

٤ ــ امير غير معروف دفع الجزية عام ٨٨١ ق.م. لآشور ناصر بال الثاني .

٥ ــ امير غير معروف دفع الجزية بعد عام ٨٧٦ أيضا لآشور ناصر بال الثاني .

٦ ــ زدنت ربما حكم عند منتصف القرن التاسع ق.م .

لوجدنا أن افضل مكان يحتله شمش نوري وولده هديسعي الترتيبين الرابع والخامس . ومما لاشك فيه أن ابي سلامو وشمش نوري قد حكما في النصف الاول من القرن التاسع ق.م من حيث أن ابي سلامو دفع الجزية لادد نيراري الثاني عام ٨٩٤ ق.م وأن شمش نوري كان حاكما على جوزان عام ٨٦٦ ق.م . وبما ان الفرق بين التاريخين هو ٢٨ عاما فقط، فاننا لانستبعد ان يكون شمش نوري هو خليفة ابي سلامو الذي امتد حكمه لسنوات بعد عام ٨٩٤ . بينما امتد حكم شمش نوري الى ما قبل عام ٨٦٦ **ق.م.**

وهكذا يكون حكم الملك هديسعي قبيل وبعد منتصف القرن التاسع ق.م. ويعقبه زدنت الذي بقي في الحكم على ما نقدر حتى تحولت جوزان الى ولاية آشورية.

أما كباره ووالده خديانو فتقع مدة حكمهما في القرن العاشر ق.م. وكذلك بحياني الذي نسبت اليه القبيلة والمملكة .

* * *